صرخات القلب

إدراك قرب الله عندما يبدو بعيدًا جدًا

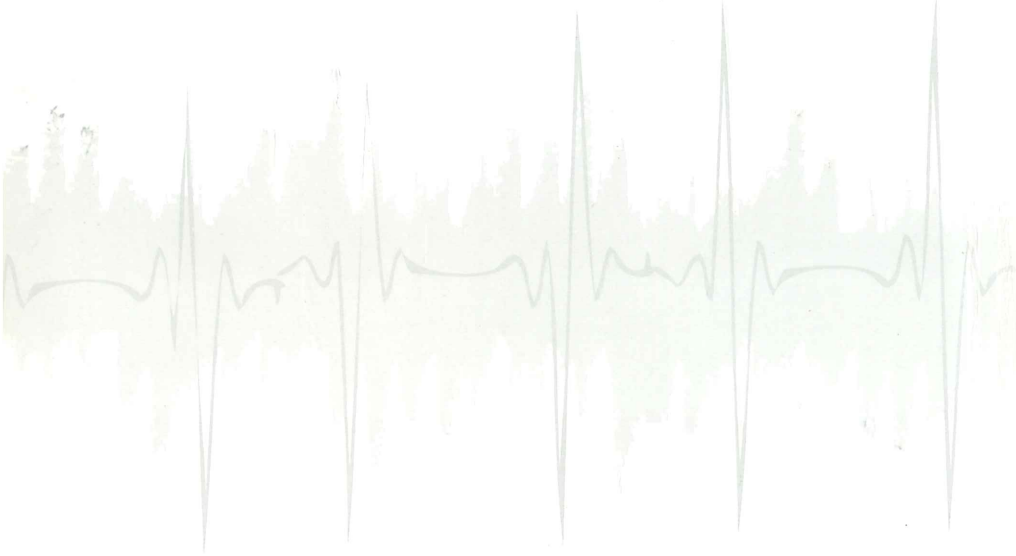

د. راڤي زكارايوس

coptic-books.blogspot.com

وظيفة أحلامي

أطفال خلّابون

أفضل زواج

ولكن شعور متنامٍ بالفراغ المطلق

أُطلق على **راڤي زكارايوس** لقب أعظم المفكّرين في جيلنا هذا. وهو يستكشف في كتاب **صرخات القلب** مشاعر العبث الداخلية التي تسحق القلب البشري، كما ويساعدنا على:

- رؤية أسباب آلامنا
- التخفيف من وطأة شعور الضمير بالذنب
- اكتشاف التحرّر في الاستمتاع
- تعزيتنا خلال وحدتنا
- اختبار إيمان ثابت في حياتنا اليومية
- معرفة الله بشكل حقيقيّ

هذا الكتاب هو مصدر إلهام وطمأنينة في آن واحد... إنّه بحث يكشف عن مشاعرنا الخفيّة، ويُعلن حضور الله المستمرّ والمحتوم في كلّ لحظة من حياتنا... هو رحلة تنتهي بأجوبة مَرْضيَّة لصرخات القلب.

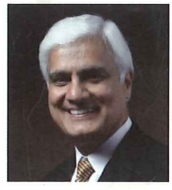

«لا مجال للخداع والتلاعب حين يتكلّم الله، إنّما هناك حقيقة تحدّد الحياة. فلمسات الله تهدّئنا حين يتكلّم، وسنتمتّع بتعزياته، عالمين أنه سمع صرخاتنا وأصبح قريبًا من عقولنا.» راڤي زكارايوس

راڤي زكارايوس هو المدير العام لخدمة راڤي زكارايوس حول العالم. ولد في الهند وتعلّم في جامعة كامبردج. ألقى محاضرات في أهم الجامعات حول العالم، في أكثر من خمسين بلد. قام بتأليف كتب عديدة منها: "يسوع بين آلهة أخرى"، "هل يستطيع الإنسان أن يحيا من دون الله؟" و"نجّنا من الشرير". له ولزوجته مارجي ثلاثة أولاد. وهم يسكنون في أتلانتا - ولاية جورجيا.

ISBN 978-9953-530-34-5

9 789953 530345

Dar Manhal Al Hayat

دار منهل الحياة

coptic-books.blogspot.com

صرخات القلب

إدراك قرب اللّه عندما يبدو بعيدًا جدًا

coptic-books.blogspot.com

Originally published in English under the title:
Cries of the Heart by Ravi Zacharias
Copyright © 1998, 2002 by Ravi Zacharias
Published by W Publishing Group
A division of Thomas Nelson, Inc. www.ThomasNelson.com

All Rights Reserved. This Licensed Work published under license.

الطبعة الأولى ٢٠١١

الكتاب: **صرخات القلب**
إدراك قُرب الله عندما يبدو بعيدًا جدًا

المؤلّف: د. راڤي زكارايوس

الناشر: دار منهل الحياة
بالاشتراك مع «خدمة راڤي زكارايوس حول العالم»
www.rzim.org
rzim4me@gmail.com

ترجمة: لوئيس جداد
تنقيح: القس ميشال خوري

تصميم الغلاف: دار منهل الحياة
التصميم الداخلي: دار منهل الحياة

ص.ب. ١٦٥ منصورية، المتن – لبنان
هاتف: ٤٠١٩٢٢ ٤ ٩٦١+
فاكس: ٥٣٢٤٨١ ٤ ٩٦١ +
بريد إلكتروني: info@Dar-Manhal-Alhayat.com
موقع إلكتروني: www.Dar-Manhal-Alhayat.com

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9953-530-34-5

جميع حقوق الطبع باللغة العربية محفوظة للناشر وحده،
ولا يجوز استخدام أو اقتباس أي جزء منه من دون إذن الناشر،
وللناشر وحده حق إعادة الطبع

coptic-books.blogspot.com

إلى ذكرى أمّي... إيزابيلاّ

التي سمِعَت صرخاتي قبلَ أن أنطقَها بوقتٍ طويل

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

المحتويات

تقديم ماكس لوكادو		٩
شكر		١١
مقدّمة		١٣
الفصل الأول	صرختٌ لمعرفةِ اللّه	٢١
الفصل الثاني	صرختٌ لأشعرَ بإيماني	٥٧
الفصل الثالث	صرختٌ لأجلِ منطقٍ في المَعاناة	٩٥
الفصل الرابع	صرختُ ضميرٍ مذنبٍ	١٢٩
الفصل الخامس	صرختٌ لأجلِ حرّيةٍ في المتعة	١٦٥
الفصل السادس	صرختُ قلبٍ وحيد	٢٠٣
الفصل السابع	صرختُ اللّه لأجلِ شعبه	٢٣٧
ملحق للفصل الثالث		٢٧١
Endnotes		٢٨٥

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

تقديم ماكس لوكادو

يمكنُ لبعض النّاس جَعلَ أصعب المهام تبدو بسيطةً، فيمكن للاعب الغولف المحترف أن يجعلَ تسديدة الغولف تبدو سهلةً، ومغنّي الأوبرا البارع يقودُ الجمهورَ للاعتقادِ أنّ باستطاعةِ أيٍّ كان تأديةَ كلِّ النوتات، ويتكلّم عالِمُ الكيمياءِ لغةَ دراستِهِ بالجهد نفسه الذي نتلو به الأبجدية.

إنّ البعضَ يجعلُ الأمور تبدو بغاية البساطة، لكن عندما نجرّبها بأنفسنا نعرفُ بشكلٍ أفضل. فإذ نضربُ كرةَ الغولف أو نغنّي الأغنية أو نقرأ الكتاب ندركَ أنّ هذا ليس بالمهمّة السهلة. وحدها المحاولاتُ الشخصيّةُ تزيد إعجابنا بالذي فعل ما نحن نستطيع فقط أن نحلمَ بفعله.

قد يكون هذا هو سببُ إعجابي الشديد براڤي زكارايوس، فما يفعله الآخرون بمضرب الغولف أو الأوپرا أو الكيمياء يفعله راڤي بالفكر المسيحيّ، إذ يقدّمُ إجاباتٍ نيّرةً للأسئلة الصّعبة ويجعلُ المعضلات تبدو بسيطةً. لكنّنا نعلم أنَّ المهمّة المعطاة من الله لراڤي ليست سهلةً، فتحدّيه الأوّل هو أن يتصارع مع قضايا يفضّلُ الكثيرون تجنّبَها. يُدرِجُ هذا الكتاب عيّنةً من نظام حِميته الفكريّة اليوميّ: أسئلة عن المعاناة، الوحدة، اليأس، والذّنب. إنّه يكدح وسط هذه المعضلات، لكنّ مهمّته لا تنتهي هناك، فهو لا يمشي تلك الغابات المُبهَمة فحسب بل يترك ممرًّا يقودنا عبرها، وخمِّن ماذا؟ الخريطةُ مقروءةٌ ومفهومةٌ، وإنّ قراءتها سهلة بل ومُفرِحة، والكتاب الذي بين يديك الآن هو خير مثال. تركَتني قراءتي لهذه المخطوطة مذهولاً ومشجَّعًا، مذهولاً بمهارةِ الكاتب، ومشَجَّعًا بأنّ رئيسَ الحياة أعطى هذا الجيل مفكِّرًا موهوبًا مثل راڤي زاكارايوس.

coptic-books.blogspot.com

لثلاثة عقودٍ كان راڤي يفعلُ حولَ العالم ما فعلَه في هذه الصفحات، ساعَدَنا أن نفكِّر دون أن يفكِّر عنّا، وهو يفعل ذلك بكلِّ رقيّ.

أتذكّر ملاحظةَ أبداها صديقُنا المشترك الناشرُ الرّاحل كيپ جوردان Kip Jordan، الذي أصغى إلى حواراتٍ جامعيّة عديدة بين راڤي والطلاب – مع كلِّ ما يمكن أن تؤول إليه من عدائيّة – فقد أخبرَني كيپ مرةً: «لم أرَ راڤي أبدًا يعاملُ شخصًا بغير احترام، فهو دائمًا يُصغي بصبرٍ ويُجيب بطريقةٍ تُكرِم من طرح السؤال.»

ليس عندي أيّ تحفّظ على التّوصية بقراءة هذا الكتاب؛ لو كان الأمر يتعلّق بالغولف أو الغناء أو الكيمياء، لما استطعتُ أن أشهدَ لراڤي زكارايوس، أمّا فيما يتعلّق بالقضايا الصّعبة في الإيمان والحياة فلا أعرفُ أحدًا أفضل منه.

coptic-books.blogspot.com

شكر

غالبًا ما أُسأل بعد إلقاء محاضرةٍ أو عظةٍ، كم أخذ من الوقت إعدادُ ذلك التقديم، وقد قرّرتُ أنّ أيّ جوابٍ يحدّدُ وقت الإعداد بساعاتٍ أو أيّامٍ يحملُ خطورة نسيان السنوات التي انقضَت قبل نصف ساعةٍ إلقاء. وأخشى أنّ هذه هي الخطورة المحتملة عند تقديم الامتنان لأولئك الذين ساعدوا في وضع هذا الكتاب.

لذا إنَّ أيَّ إغفالٍ لأسماءٍ هو مع اعترافٍ تامٍّ بالرّجال والنّساء الكثيرين وأفكارهم التي، على مرّ السنين، ألهمتني أن أفكّر بعمقٍ في التساؤلات التي تشكّلُ دواخلنا؛ أنا مدينٌ لهم كثيرًا.

بالنسبة لهذه المخطوطة هناك في الدّرجة الأولى شخصٌ آخر عملَ بمحبّة وتضحية وهي زوجتي مارجي Margie، إنّها تستحقُّ شكري القلبي.

كِلانا معًا لطالما قدَّرنا عطاء المحرّرةِ النهائية سو آن جونس Sue Ann Jones، التي كانت تشجيعاتها واقتراحاتها مُراعيةً وصاقلةً بشكلٍ متناسق، وبها نحن أفضل.

طاقمُ مجموعة W للنّشر عملَ معنا برقيٍّ وامتيازٍ مهنيّ.

الشكرُ واجبٌ أيضًا لدانييل ديورانت Danielle DuRant، التي عملَت على المهمّة المُملّة في تدبير التصاريح.

كما دائمًا، أعبِّر عن تقديري لكلِّ زملائي في العمل ولأولادي الذين ضحّوا بالكثير لمنحي الوقت لأعمل على هذا الكتاب.

coptic-books.blogspot.com

صلاتنا أنّه كنتيجةٍ لهذا الكتاب يُجاب على صرخاتٍ كثيرين، وأن يتبارك الله بقبوله هذا كتقدمةٍ له أولاً.

الشكر الأخير لم أتوقّع أن يعبَّر عنه بهذه الطريقة، لكن بينما هذه المخطوطة في طريقها للطباعة صُدمنا وحزنّا عميقًا لانتقال الصديق المحبوب والمُشير الحكيم، كيپ جوردان Kip Jordan، النّاشر ونائب الرئيس في دار نشر الكلمة، والتي تدعى حاليًا مجموعة W للنشر. إنّ بصماته موجودةٌ في كلِّ كتبي، إذ تحدّاني بمحبةٍ لأجمع بين البساطة والسموّ. إنّ موتَه مذكِّرٌ عنيفٌ بالصّرخات التي يتكلّم عنها هذا الكتاب، لكنَّ حياتَه وقد عاشها بشغفٍ، أظهَرَت الحقائق التي تشيرُ إلى إلهِ كلِّ تعزيةٍ، الذي هو يتمتّع بعناقه الآن.

coptic-books.blogspot.com

مقدّمة

عادت زوجتي مارجي Margie ذات مرّة من رحلةٍ قصيرة وهي بادية التأثّر من محادثةٍ مرَّت بها وفطرَت قلبها. كانت في مهمّةٍ بسيطةٍ لشراء صورةٍ وإطارٍ، عندما بدأ حوارٌ مع مالكة المحل؛ حين قالت زوجتي أنّها تريد مشهدًا فيه أولاد، سألتها المرأة عَرَضًا إن كان لدى من ستشتري لهم الصورة أولادٌ، فأجابتها: «لا، لكن هذا ليس باختيارهم.» وفجأةً، بعد توقّفٍ قصير، وكسدّادة فلّينٍ نُزعت من مكانها، انفجرَ سؤالٌ بعدائيةٍ مكشوفةٍ من شفتَي المرأة الأخرى: «هل حدَثَ أن فقدتِ طفلاً؟» فوجئت مارجي إلى حدٍّ ما وأحسَّت في الحال بالمأساة الرّهيبة التي قد تكون وراء ذلك السؤال. لقد اتّخذت المحادثة منحًى مضطربًا كما هو واضح، لكنَّها مع ذلك لم تكن مستعدّةً لفيض المشاعر والغضب الذي تلا من تلك المرأة التي ما تزال غريبةً. وسرعان ما تبيّنَت القصة المؤسفة إذ تابعت المرأةُ الكلام عن الولدَين اللذَين فقدَتهما، وما أنزلته بها كلُّ خسارةٍ بمفردِها من وجعٍ في القلب. لم يكن هناك قناعٌ على مرارتها ولا تردّدٌ حول أين ستلقي لومَها على هذه المآسي.

إذ وجدَت مارجي نفسَها عاجزةً عن التفوّه بما يمكنه أن يخفّف ألمَ الجرح المفتوح في قلب المرأة ابتدأت بالقول: «أنا آسفة»، فقوطعَت بنهيٍ صارمٍ: «لا تقولي شيئًا.» أخيرًا تدبّرَت الفرصة لتقول وبشكل متقطّع: «سأصلّي لأجلك خلال هذا الوقت الصعب»، لكن حتى هذا جلبَ ردًّا جازمًا: «لا تزعجي نفسك.»

غادرَتها مارجي وعادت إلى سيّارتها وجلست هناك تبكي من صَدمَتِها ومن تَوقِها لمساعدة تلك الحياة المحطّمة. ومنذ تلك المحادثة

coptic-books.blogspot.com

حمَلَت في ذهنها صورةً لا تُمحى لوجهِ امرأةٍ تقلّصت كلُّ عضلة فيه بغضبٍ وألم – امرأةٍ تنشدُ لمسةً ومع ذلك تنأى بنفسها، تتوقُ للتعزية لكنّها تُصمتُ كلَّ من يرجو مساعدتها، تدفعُ الناس في طريقها للوصول إلى الله.

الغريب أنّ ذلك الحدثَ أنتجَ صداقةً، وكان لنا امتيازٌ رائعٌ أن نتقرّب من تلك المرأة ونصلي معها في بيتنا، بل أيضًا شعرنا بامتنانها العميق بينما حاولَت بطرقٍ عديدةٍ أن تقول شكرًا.

خلال كلِّ ذلك قدَّمَت لنا رمزًا عن صرخاتٍ مكتومةٍ حقيقيّةٍ ومُضنيةٍ للتفكير، وعن بحثٍ عن أجوبةٍ تحتاجُ وقتًا قبلَ أن يُغلبَ الغضبُ بالحكمةِ ويفسحُ الكربُ سبيلاً للرّضى .

إنّ هذه الصّرخات المكتومة والحقيقيّة وغيرَ المعبَّرِ عنها بكلماتٍ، والتي تشرّبَت بها كلُّ حياة، مستوطنةٌ في الحالة البشريّة إلى حدٍّ بعيد – رجالاً، نساءً، شبّانًا، وحتّى أطفالاً.

هناك الآن أصواتٌ احترافيّة عديدة تُنبِّهنا من الوهم الذي تأثَّرَ به على الأخصّ الرجالُ في ثقافاتٍ عديدة، وهو أنَّ القوّة تكمُنُ في عدم الشعور، ويا له من ثمنٍ دُفِعَ بسبب العيش مع بَترٍ كهذا!!

لا يطغى الألمُ على كلِّ صرخة، ولكن لكلِّ حياةٍ صرختها الخاصّة أو أنّها سمعَت صرخةَ آخر يصارعُ مع مشاعرَ أو عواطفَ تحتاجُ إلى تفسير. لا يُنفّسُ عن كلِّ صراعٍ بذات الشدّة، لكنّ حياة العديدين محكومةٌ بكثيرٍ من النّزاع الداخليّ. وتمامًا مثلما أنّ البعضَ أكثر قدرةً على تجاوز الفشل، هكذا البعض أيضًا أكثر قدرةً على التّعامل مع تقلّبات الحياة.

لذا فإنّ هدف هذا الكتاب ليس ببساطةٍ تقديم بلسَمٍ شافٍ للألمِ المرِّ لصرخةٍ غيرِ مسموعة، بل بالحري مواجهة حقيقة أنّنا كلّنا في أوقاتنا الخاصّة نتعامل مع صرخات مكبوتة.

coptic-books.blogspot.com

نُشِرَت منذ سنواتٍ مضَت مقالةٌ في ريدرز دايجست *Reader's Digest* عنوانها: «عندما نكون وحدنا، نرقص» *When We Are Alone We Dance* وكانت الفكرة الأساسيّة أنّنا عندما نكون لوحدنا ولا أحدَ يراقبنا، كلُّنا لدينا بعض التعابير الإيقاعيّة، ربّما لا ننجحُ في ضرب كعوبِنا في الهواء، لكنَّ ذلك لن يمنعنا من المحاولة. ضمن ذلك العالم الخاص، كلٌّ منّا أيضًا يصارع مع معركةٍ ما تُذوي القلب، قد تكون بالنسبة لأحدهم ألمًا داخليًا من الوحدة، وللآخر شبح الذّنب المروِّع، ولدى آخر قد يكون السؤال: «لماذا لا أشعرُ بقربِ **الله** مع أنّي فعلتُ كلَّ ما أعرفُ أنّه صحيح؟» وربّما يكون عند غيرِه سؤالُ الأسئلة: «مَن أنت يا **الله**؟»

سيميّزُ القارئ في الحال مجالَ صراعاتِنا الوجوديّة، فإن كان هناك ما يوحِّد ثقافاتنا اليوم فهو الأسئلة غير المُجابة ذات الواقع المحسوس.

الوحدةُ في حياةٍ غيرِ محبوبةٍ هي نفسُها في بومباي Bombay كما في برشلونة Barcelona. الحياةُ المُعَذّبةُ بالذّنب هي نفسُها لدى نجم سينمائيّ في هوليوود Hollywood كما لدى معلّم مدرسةٍ في هاڤانا Havana. كيف أختار حياةً فيها متعة دون أن تكون لَا أخلاقية؟ أُكِّدَت هذه الأسئلة المزعجة بحادثةٍ مروّعةٍ وقعت في مدينة نيويورك New York منذ بضعة سنوات وكانت تتويجًا لسلسلةٍ من أحداثٍ صعبة الوصف أصابت امرأةً شابةً – القصّةُ أشدُّ فطرًا للقلبِ من أن تُذكر – وشعورًا منه بالألم الصّامتِ لمدينةٍ كاملة تساءلَ أحدُ أعضاء مجلس الشيوخ بانزعاجٍ: «كيف يمكنُ أن يجريَ الكثيرُ من الخطأ في حياةٍ واحدةٍ دونَ أن يدري به أحد؟»

وبعد أيّامٍ من التّفكير بذلك السؤال الواضح قدَّم مستشارُ المدينة الجواب الوحيد المقبول ظاهريًّا، قال: «إنَّ الحياة أكثرُ انشغالاً وتعقيدًا بالنسبة لي من أن أسمعَ صرخةَ كلِّ شخصٍ في مجتمعي، ففي الحقيقة أنا أصارعُ لأجدَ الوقت لسماع عائلتي الخاصّة. إن كان عليَّ سماعُ صرخة كلِّ شخصٍ في مدينة نيويورك، فقد يُطلَب منّي أن أُصغي لصوت كلِّ ورقةٍ

coptic-books.blogspot.com

عشبٍ ونبضة قلب كلِّ سنجاب، وسيكونُ الضجيج مُصمًّا على الجانب الآخر من الصّمت.» لا أظنُّ أنَّه غالى في وجهة نظره، فلو جُمِعَت أصواتُ صرخاتِ قلبِ أيِّ مجتمعٍ ستكونُ الضجةُ فعلاً مُصمّة.

إذًا إلى أين نذهب؟

هناك مكانٌ تجتمعُ فيه معاناة البشر وأسئلتهم، ذلك المكان هو قلبُ الله. يصوِّرُ لنا الإنجيل بشكلٍ متكرّرٍ الصّرخات المتألّمة، رغم كونها صامتةً أحيانًا، لمحتاجين يلتمسون شخصًا يمكن أن يقدّم لهم رجاءً.

لا يوجد بين كلِّ قصص الكتاب المقدَّس قصّةٌ تعكسُ بدقّة تلك الحاجات المتنوّعة مثل قصّة المرأة السامريّة على البئر ومحادثتها مع يسوع. ذُكِرَ هذا اللقاء في الأصحاح الرابع من إنجيل يوحنّا، وسأشير إليه لاحقًا خلال هذا الكتاب. تركَ التلاميذُ يسوع ليرتاح قليلاً بينما ذهبوا إلى المدينة ليبتاعوا طعامًا، وعندما عادوا ذُهلوا لرؤيته يتكلّم مع السامريّة، لكن خافوا أن يسألوه لماذا يتكلّم معها، أو ما الذي حرّض هذه الألفة الغريبة. وما أعظمَ يسوع في ذلك الحوار! لقد مَثّلَت المرأة كلَّ مضّطهَد ومرفوض في ذلك المجتمع، كانت امرأةً وليست رجلاً، كانت سامريّة مُثقَلَةً بالرفض العرقيّ، كانت منبوذةً ومحطّمةً من خمس زيجاتٍ فاشلة، حدَّدت الله في موضعٍ معيّنٍ، ولم يكن لديها أدنى فكرة عن كيفيّة الوصول إليه. أكان ممكنًا وجودُ امرأةٍ أقلّ تقديرًا للذاتِ من تلك المرأة في عالمِها المُشتَّت؟

بدأ يسوعُ عملَه اللطيف لكن المصمِّم، يزيحُ عنها الرّطانة اللاهوتية المُجَمَّلة والمتلاعبة التي ألقَتها عليه، ليُمَكِّنها أن تنطقَ بصرخة قلبها الحقيقية. وكمثلِ تقشير طبقات بصلة، أبعَدَها باطّرادٍ عن مخاوفها وأحكامها المُسبَقة، عن برامجها لوقاية نفسها، عن حيَلها لإخفاء جروحها، ليوصلَها إلى المصدر المثير والمتألّق لِشَبَعها الأعظم، المسيح نفسه. لكنّه لم يتوقّف هناك بل مضى إلى أبعد، وذلك «الأبعد» سوف

coptic-books.blogspot.com

يجتذبُ انتباهَنا في هذا الكتاب. باختصارٍ، لقد نقلها من التجريديّ إلى الواقعيّ، ومن الواقعيّ إلى المباشر، ومن المباشر إلى الشخصيّ. لقد جاءت تطلب ماءً لعطشها الجسديّ، ويسوع أشبعَ عطشًا أعظم – عطشَها الروحيّ.

عندما دخل التلاميذ أخيرًا في المحادثة سألوا يسوع إن كان يريدُ أن يأكل، فقال لهم يسوع: «أَنَا لِي طَعَامٌ لآكُلَ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ»، وبكلِّ الحيرة تساءل التلاميذ إن كان أحدٌ سبقَ فأطعَمَه. لقد كانوا على مستوًى مختلفٍ تمامًا من الجوع والعطش، بينما كان هو عاملاً مشيئةَ الآب يشاركُ خبز الحياة ويفتحُ ينبوع ماء الحياة، فلا يكون عطشٌ فيما بعد.

يلتقي في هذه القصّة البسيطة جوعُنا نحن مع تَوق الله الكبير لإشباع ذلك الجوع الداخليّ وملءِ توقنا العميق.

أتذكّرُ حديثي في إحدى المناسبات مع رجلٍ جاء من بلدٍ أُريقَ فيه الكثير من الدماء بسبب نزاعٍ داخليّ، من أرضٍ حيث يُكسَر قلبُ أحدهم كلّ يوم برصاصةٍ طائشةٍ أو بصراعٍ أيديولوجيٍّ مليءٍ بالكره. أخبرني أنّه رغمَ كونه لسنوات عديدة وجدَ الراحة في معرفته أنّ المسيح قد حمل خطاياه، إلاّ أنه لم يدرك إلّا لاحقًا حقيقة أنَّ المسيح قد حمل أحزاننا أيضًا. إنّ الحميميّة مع الله هي معرفةٌ ربَطَت ما يعرفُه الشخصُ مع ما يشعرُ به، إنّها معرفة تأخذُ كلاًّ ممّا نعرفه وما نشعر به على محملِ الجدّ، وليست موقفًا قدَريًّا يقول: «ليَكُن ما يكون» ويستسلم ليقبلَ حتى ما يتحدّى المنطق. عندما نتعلّمُ أجوبةَ الله العميقة لكلِّ عاطفةٍ نشعرُ بها، نجدُ الرّضا والشجاعة ونعيشُ حياةً ملؤها الأمل والثقة، وعندها يصبحُ لكلّ يومٍ أهمية خاصّة إذ نُعظّمُ أفكارَ الله ونلجمُ مشاعرَنا. لقد فرَضنا لوقتٍ طويلٍ جدًا فاصلاً بين الواقع والشعور، وبغير فطنةٍ قَبِلنا بأنظمة فكرٍ تُلازِمُ واحدَنا فيما هو يفعلُ ما يؤذي الآخر. علَّقَ ڤولتير Voltaire مرّةً أنَّ كلَّ شقاء الإنسان هو انعكاسٌ لعظَمته، وبكلماتٍ أخرى يمكنُ بل وينبغي أن تكون حواسُّنا وأحاسيسُنا مؤشّراتٍ متّحدة إلى الأبديِّ والحقّ،

coptic-books.blogspot.com

وما جمَعَه الله لا يفرّقه إنسان. هناك أغنية تقول: «كيف يمكنُ أن يكونَ خطأ بينما أشعرُ به أنّه صحيحٌ جدًا؟» ويمكنُنا شرعيًّا أن نتجادل حول ذلك السلبِ للعالم الموضوعيِّ للصّواب والخطأ تحت رحمة الشغف اللّحظي، لكن هناك جانبٌ آخر للقضيّة وهو أكثر صعوبةً: كيف يمكنُ للأشياء أن تكونَ صوابًا بينما يُشعَرُ بها أنّها خطأ؟

هل يتوقّعُ الله ممّن ابتُلِيَ بالوحدة أن يتعامل مع ذلك الشعور على أنّه غيرُ حقيقيّ؟ ألا يطرحُ البحثُ عن إلهٍ شخصيٍّ في عالمٍ غير شخصيٍّ أسئلةً شرعيّة؟ ألا تؤخذ بعين الاعتبار أسئلة إنسانٍ في كَربٍ؟ ألا ينبغي أن نمتلك حكمةً وسطَ المُتَع اللامحدودة المحيطة بنا؟

ذلك ما نأمل من هذا الكتاب أن يقودَنا إليه. نحن لن نقنعَ بالتعامل مع المشاكل التي تظهر بمجرّد جرّةِ قلمٍ ذكيّة، ولن نتوقّف حيثُ تُصاغُ الأجوبةُ كردودٍ مرتَجلةٍ فحسب، بل نأملُ أن نشغَلَ كاملَ كياننا في أسئلة وصرخات القلب. وكما أنَّ الصرخات تولَدُ من مشاعر حقيقيةٍ، هكذا ينبغي أن يُذهبَ بالفرح إلى مسندٍ وثقةٍ حقيقيّين.

هناك ملاحظتان لا بدَّ منهما فيما يتعلّق بمادّة الكتاب بينما نَبسِطُها. الأولى أنّ موضوعَ الألم والمعاناة هو مشكلةٌ فلسفيّةٌ بقدر ما هي عاطفية. في تعامُلي مع الموضوع تحت عنوان: «صرخة لأجل منطقٍ في الألم» *The Cry for a Reason in Suffering*، ركّزتُ دراستي على سفر أيّوب وقاومتُ إغراء أن أكون فلسفيًّا جدًّا بحيث لا أغيِّر مسارَ الفكرة ولا أنتقصُ من القوّة العاطفيّة للمادّة. من ثمّ، تركتُ ثقلَ المنطق يؤثّر في جزءٍ صغيرٍ فقط من الموضوع، بينما الدّفعُ الرئيسيُّ في المادّة هو إجابةٌ للمشكلة الشعوريّة للألم عندما نواجهه شخصيًّا. أمّا بالنسبة لمن يريدون مصارعة الموضوع فلسفيًّا فقد أضَفتُ في آخر الكتاب مُلحقًا موجَّهًا للقضية الشائكة عن كيف يمكن لله أن يخلقَ عالمًا عرفَ أنّ المعاناة ستأتيه كنتيجة، وهذا سؤالٌ مختلفٌ قليلاً عمّا هو في سفر أيّوب أيضًا.

coptic-books.blogspot.com

الملاحظة الثانية، أنّه في موضوعَي المتعة والوحدة كان من الممكن أن يُقال أكثر لإكمال الجواب، لكن على أيّة حال، قد ضَمَّنتُ تلك الأفكار وأوصلتُها إلى ذروتها الشرعيّة في الفصل الأخير، وسيكونُ المنطقُ واضحًا عندما تصل إليه.

يصفُ داودُ نفسَه في المزامير كشخصٍ مجروحٍ يبكي في فراشه ليلاً، وتكلّمَ داود نفسُه عن السعادة التي حصلَ عليها عندما أخذ صرختَه للربّ.

دعونا بنفسِ الثّقة نبدأُ رحلتَنا في الإجابةِ على صرخاتِ القلب، وربّما نُفاجأ بمعرفة كم من الصرخات المحجوزة سيُكشفُ عنها الغطاء.

عندما يتكلّم **الله** لن نُجيبَ بالقول: «لا تقل شيئًا»، بل سوف نهدأُ بلمسته ونرتاحُ بمؤاساته، عالمين أنّه اهتمَّ ليسمع صرخاتنا وليدنوَ منّا في حاجاتنا. نحن أيضًا سنَتوقُ لنقول له: «شكرًا لك.»

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل الأول

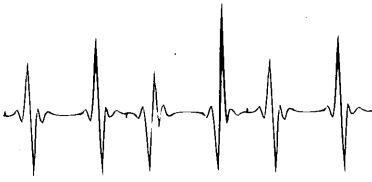

صرخةٌ لمعرفة اللّه

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

قُدِّمَت مسرحيّةٌ قصيرةٌ في سهرة عيد الميلاد ذات سنة، وكانت بشكلٍ رئيسيٍّ مونولوجًا ليوسفَ إذ حَمل يسوع بين ذراعيه بعد لحظاتٍ من ولادته وتحدَّثَ إليه. نظرَ يوسف إلى وجه الطفل وبكلِّ انفعالات وعواطف والدٍ جديدٍ تكلَّمَ مازحًا عن شبَهِه بأمّه، ثمّ توقّف قليلاً وهمسَ بكلِّ جديّة: «أتساءلُ كيف يبدو أبوك...؟» وكان بإمكان المرء أن يشعرَ أنَّ مئات الحضور أرجعوا صدى ذلك الشعور.

عبرَ التاريخِ تساءل الفنّانون، الكتّاب، الموسيقيّون، الباحثون، وكلُّ من قرأ حياة يسوع، كيف كان يبدو، وممّا يثيرُ الاهتمام أنّ الذين رأوه فعليًا مضَوا بالبحث خطوةً أبعدَ إذ قالوا: «أرِنَا الآب.» وأحدُ أوّل الأسئلة التي طرَحَها من كانوا سيصبحون تلاميذًا: «أَيْنَ تَمْكُثُ؟» (لو أنَّ يسوع أجابَهم بمجرّد دعابةٍ لقالَ: لن تصدّقوني إن قُلتُ لكم!)

في ضوء أسلوبه وقدرته، كان غموضًا منطقيًّا ذاك الذي دفعَهم كي يسألوه عن عنوانه، ونحن كلّنا تَفَكّرنا في شكله، سواءً يسوع الذي في التاريخ أم الله الخالق.

كتبَ أوغسطينوس Augustine عن مواجهةٍ تشبه تجربة فاوست Faustian Type عُرِضَ فيها عليه بهجةٌ مؤقتةٌ، وكان الشرطُ الوحيدُ هو فقدانُه التمتّعَ برؤيةِ الله يومًا، فقرّر دون تردّد: «ما من متعةٍ تستحقُّ تلك الخسارة.»

الله في نعمته وحكمته بارَكنا بالعقلِ والحواس التي تتوقُ أن تراه، تسمعه وتعرفه، وفي الوقت نفسه أعطانا الامتياز الرائع بالسماح

coptic-books.blogspot.com

لمخيّلتنا أن تقدّم كلًّا من الحرّية والمحدوديّة. لقد حذّرَنا من أن نصنع صورةً منحوتةً، وذلك لتنبيهنا أنّه رغم كوننا نمجّدُ الإنسان بأن نصنع له صورةً منحوتةً في الحجر أو نرسمَه على القماش، لكنّ محاولةَ فعلِ الشيء نفسه **لله** ليست سوى انتقاصًا منهُ.

إنّ رسمَ Circumscribing **الله** محفوفٌ بخطر حُكمنا المُسبَق الشخصيّ، دون أن نذكرَ شيئًا عن تناقضيّة ذلك الرسم. كما ينبّهنا الكتابُ المقدّس أيضًا أن لا أحدَ «يرى **الله**» ويعيش.

عندما صرخ موسى أنّه لن يعبُرَ إلى كنعان ما لم يكشف له **الله** مجدَه، أجابه **الله**:

> «هُوَذَا عِنْدِي مَكَانٌ، فَتَقِفُ عَلَى الصَّخْرَةِ. وَيَكُونُ مَتَى اجْتَازَ مَجْدِي، أَنِّي أَضَعُكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ، وَأَسْتُرُكَ بِيَدِي حتى أَجْتَازَ. ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي، وَأَمَّا وَجْهِي فَلاَ يُرَى.»
> خروج ٣٣: ٢١-٢٣

ليس في النّصوصِ الكتابيّة إلّا القليل جدًّا عن مظهر يسوع، لذلك، علينا كلُّنا أن ننتظر اليوم الذي فيه «سَتَرَاهُ كُلُّ عَيْنٍ» (رؤيا ١: ٧)، ونحن لا نملكُ إلّا أن نتساءل ماذا سيترتّب عن رؤيتنا له حينها.

لكن حيثما قُدِّمت تلك الملامحُ الشكليةُ، بتحفّظٍ ولسببٍ، يكونُ النصُّ الكتابيُّ سخيًّا في وصف شخص **الله**، وصفاته، وكيف اختارَ أن يُظهرَ نفسَه. وفي تنقيبنا في غنى ذلك المضمون نَصِلُ إلى إدراك عمق إجابته على صرخة القلب البشريّ «مَن أنت يا **الله**؟» وهذا ما ينبغي أن يكون المطلب الأسمى لكلِّ رجلٍ، امرأةٍ، وطفلٍ لأنّه من تلك المعرفة تنبَعُ كلُّ أجوبة صرخات القلب والعقل.

عبَّرَ تشارلز هادون سپرجن Charles Haddon Spurgeon عن ذلك جيّدًا:

coptic-books.blogspot.com

«الدراسةُ الحَريّةُ بالمسيحيِّ هي الذّات الإلهيّة، فإنّ أعلى علمٍ وأسمى تبصّرٍ وأعظمَ فلسفةٍ يمكنُها أن تشغَلَ انتباهَ أولاد الله هي الاسم، الطبيعة، الشخص، الأفعال، ووجود الله العظيم... إنّ التأمُّلَ في الذّات الإلهيّة أمرٌ مفيدٌ جدًّا للذهن، إنّه موضوعٌ واسعٌ جدًّا بحيث ضاعَت كلُّ أدواتِنا في اتّساعه، وعميقٌ جدًّا بحيثُ غرقَت كبرياؤنا في لانهائيّته. نحنُ نفهمُ مواضيعَنا وننبري لها ونشعرُ فيها بنوعٍ من الرّضا الذاتيّ ونمضي في طريقنا مع الفكرة «أنظر أنا حكيم»، ولكن عندما نأتي إلى هذا العلم السيِّد ونجدُ أنَّ مسبارَنا لا يستطيعُ أن يسبرَ غورَه، وأنَّ نظرنا الثّاقب لا يستطيع أن يرى ارتفاعَه، نعودُ مع الفكرة «ما أنا إلّا من أمسٍ ولا أعرفُ شيئًا».»[1]

الله هو الموضوعُ المركزيُّ لكُتّاب الكتابِ المقدَّس، فَهُم انغمسوا في السعي وراء معرفته، وتركوا لنا ما أعلَنَه لهم الروحُ القدس.

في أولِ ما ابتدأ الله يكشفُ عن نفسه أُعطينا لمحةً عن الخوف الذي غمرَ الشعب بينما انتظروا عودةَ موسى من قمّة الجبل. لقد عرفوا أنَّ قائدَهم وقفَ في وضعٍ فريدٍ في كلِّ الخليقةِ عندما دُعيَ من الله إلى الجبل ليتسلّمَ وصاياه. كانَ هناك تفاعلٌ مع الله، شركةٌ مع الله، وتعليماتٌ من الله.

وإذ نبدأ هذه الدّراسة دعونا نضع أنفسنا مكانَ من يطرحُ السؤالَ عمّن هو الله ونتعلّم كيف، مع الوقت، نجدُ الجوابَ المتكامل.

أنا واثقٌ أنّ هذه الحقائق التي نكشفها سوف توسّع الذهن وتملأ القلب.

واقعُ حفرة المَناوِش

أعودُ إلى مقطعٍ كلاسيكيٍّ، هو صلاة يهوشافاط في الأصحاح العشرين من سفر أخبار الأيام الثاني. كان هناك جيشٌ ضخمٌ يطبقُ على

coptic-books.blogspot.com

جيوشه، فدعا الأمّة للصلاة. ليس مفاجئًا أنّه في أوقات الحروب قد رُفعَت بعض الصلوات القلبيّة الأكثر اتّقادًا، أمّا كيف صُلّيت ومن قِبَل من، فهذا بحدِّ ذاته يشكّلُ دراسةً مشوّقةً، فالتاريخُ زاخرٌ بصلوات قادة الجيوش عشيّة حروبهم الكبيرة.

تخبرُنا السجلاتُ السنويةُ للتاريخ الروسيّ عن نقطة التّحول المحورية عندما حاصرَ ناپليون Napoleon موسكو وأُشعلَت أبراجُها وأُحرقت. عالمًا أنّه على حافة الإذلال والهزيمة كان القيصرُ في كنيسة سانت پيترسبورغ Saint Petersburg على وجهه أمام الله يتوسّله أن يخلّص أُمَّته.

لا، هو لم يكن ذاك الرجل الورع ذا الميل الطبيعيّ للصلاة، بل في الواقع عاش هذا القيصرُ حياةً منغمسةً في الملذّات وكان قد سبقَ فعَيّنَ، عَمدًا، رجلاً سيّئًا كرئيس أساقفة بأمل كسب نصير في نمط حياته الشرير. لكنّ الله يعمل من خلال خطط وحِيَل الزعماء السياسيين، فرئيسُ الأساقفة هذا بعد تولّيه المنصب لم يعُد يريدُ أن يهزأ بالله، وبخطوةٍ مفاجئةٍ كلّيًا للجميع سلَّم حياتَه للمسيح.

بينما الأمّةُ تترنّحُ على شفير الهزيمة، طلبَ القيصرُ نفسُه الله بالتوبة والصلاة، وسمعَ الله التماسَه وأرسلَ الشتاء بمثابة نبيٍّ؛ والبقيّةُ تاريخ.

في الرّابع والعشرين من شباط ١٩٨٦، يسجّل تاريخُ الشعب الفلپّيني نفسَ صرخة اليأس. كان ثمانمائة جنديًّا أهدافًا مكشوفةً أمامَ القوّةِ الجوّيةِ التابعةِ للرئيس فرديناند ماركوس Ferdinand Marcos، وقد وقفوا يراقبون بانفعالٍ تلك الطائرات تحومُ فوقَهم، عالمين أنّ أيّة محاولةٍ لثورةٍ سلميّةٍ ستنتهي في لحظاتٍ مع جيشهم الصّغير الذي عُصِف به. لكنّهم لم يكونوا واقفين هناك فحسب، وإنّما مُقادين بقراءةٍ من الكتاب المقدَّس وصلاة. فالجنرال هونستو إيسليتا Honesto Isleta، واثقًا بأنّ النّهاية قد اقتربت، كان يقرأ لهم من المزمور ٩١

coptic-books.blogspot.com

(هو أخبرَني بهذه القصّة شخصيًّا حين كان طالبًا في منهاجٍ كنتُ أدرِّسُه في الفلبين)[٢]:

اَلسَّاكِنُ فِي سِتْرِ الْعَلِيِّ،
فِي ظِلِّ الْقَدِيرِ يَبِيتُ.
أَقُولُ لِلرَّبِّ: مَلْجَإِي وَحِصْنِي. إِلهِي فَأَتَّكِلُ عَلَيْهِ.
...بِخَوَافِيهِ يُظَلِّلُكَ، وَتَحْتَ أَجْنِحَتِهِ تَحْتَمِي.
تُرْسٌ وَمِجَنٌّ حَقُّهُ.

المزمور ٩١: ١، ٢ و٤

وبينما هم يستمعون لكلمة الرّب تُتلى عليهم، كان أزيزُ الطائرات المعادية فوق رؤوسهم يعلو أكثر فأكثر. لكن كان هناك ما يحدث وهم غير مدركين، فعندما اقتربَت الطائراتُ، بدلاً من أن تدمّرَ تلك الحفنة الضئيلة على الأرض، ارتدَّ الطيّارون واحدًا تلو الآخر وهبطوا، وقصّة الثّورة اللادمويّة هي أيضًا تاريخُ الآن.

في حرب الخليج سنة ١٩٩١ كان قائد الجيش نورمان شوارتزكوف Norman Schwarzkopf على دفّة أكبر قوّة قتالية وُضعت يومًا تحت إمرة شخص واحد، وسُجِّلَ عنه أنّه كان في الصّلاة بينما كانت طائرات Stealth القاذفة للقنابل تُطبقُ على أهدافها لابتداء الحرب. ليس هناك دائمًا فحوًى قوميّ لمثل هذه الصلوات الظّرفيّة، لكنّ المبدأ يرشح لكلّ واحد منا.

أخبرَنا قسٌّ صديقٌ عمَّا حدثَ بعدَ ظهرِ يوم أحدٍ بينما كان كلُّ شيء هادئًا في بيت العائلة. سمعوا فجأةً صراخًا وجَدالاً وشجارًا في حديقتهم الخلفية، وإذ أسرعوا إلى النافذة رأوا طفلَهم الصّغير واقفًا بقبضتين مطبقتين، ومن أعلى منه يحدّقُ به أحدُ أطفالِ الجيرانِ الأكبر سنًّا. وقبل أن يتمكّنوا من الركض لنجدته سمعوه يصيح بما بدا أشبهَ بصيحة حربٍ: «آتيك باسم الربّ القدير، إله جيوش إسرائيل»، فما كان من الجارِ

coptic-books.blogspot.com

المستنمر المسكين، وقد ارتبك كلّيًا بتلك الصّيحة المرعبة الغريبة تمامًا عن عقله الوثنيّ الصغير، إلّا أن استدارَ وهربَ بأسرع ما يمكن لرجليه أن تأخذه. قال صديقي أنّهم ضحكوا بطَرَب عالمين أنّ درسَ مدرسة الأحد ذلك الصّباح عن داودَ وجليات تمَّ تطبيقُهُ في مشاحنة بعد ظهر ذلك اليوم.

من معارك الحياة الأكبر والأكثر جدّية إلى نزاعات الطفولة التي نواجهها، نحن نصلّي في أوقات المواجهة مع عدوٍّ أكبر. لكن في مثال يهوشافاط هناك ما هو أكثر من ذلك، يوجدُ في مضمون صلاته درسٌ لاهوتيٌّ بليغُ العمق، والصلواتُ كهذه نادرةٌ، وفيها الشيء الكثير لنتعلّمه. كانت أكثر من مجرّد صرخة من أجل المساعدة أو النّصرة، كانت التماسًا لأجل مَن هم في وسط ذلك الصراع ليعرفوا مَن هو الله. لم يطلب يهوشافاط تدخّلاً فقط، بل ابتغى شخصَ الله ذاته وحضوره. لقد آمن أنّه في ذلك السياق فقط سيجدُ النّصرةَ في حياته الخاصّة قبل أيِّ نصرٍ في معركة. رفع يهوشافاط في صلاته ثلاثة أسئلة عن الله، وبينما ننظرُ إلى تلك الأسئلة سنصرف جُلَّ وقتنا على الأوّل إذ عليه تتوقّف إجابتا السؤالين الآخَرَين.

بينما نخوضُ في هذه الأفكار ستتمّ الإجابةُ عن السؤال الأكثر أهميةً: «من أنت يا الله؟» ولا بدّ لي من أن أحذّرَ القارئ أنّ رحلتنا خلال الأفكار التي سنتصارعُ معها لن تكونَ سهلةً دائمًا، بل أشبه بتسلّقِ جبل. لا توجدُ طريقٌ مختصرةٌ، لكنّني واثقٌ أنّنا إن أمعنّا التفكيرَ بينما نتابعُ رحلتنا معًا سنصلُ إلى القمّة وسنجدُ أنّ الجهد والصّبر مستحِقّان والمكافأة مكافئة.

خطورة الإدراك

تبدأ صلاة يهوشافاط في الأصحاح العشرين من سفر أخبار الأيّام الثاني في الآية السادسة:

coptic-books.blogspot.com

«يَا رَبُّ إِلهَ آبَائِنَا، أَمَا أَنْتَ هُوَ الله في السَّمَاءِ، وَأَنْتَ الْمُتَسَلِّطُ عَلَى جَمِيعِ مَمَالِكِ الأُمَمِ، وَبِيَدِكَ قُوَّةٌ وَجَبَرُوتٌ وَلَيْسَ مَنْ يَقِفُ مَعَكَ؟»

يا لها من طريقةٍ لابتداء صلاته – «أَمَا أنتَ هو...؟»

كيف سيُكملُ هذا؟ لم يكن المقصود مجرّد السؤال فقط، بل أيضًا التأكيد للشعب وسط خوفهم من المستقبل. أنا أتجرّأ أن أرتئي أنه لو طُلِبَ من مئة شخص اختيروا عشوائيًا أن يملأوا الفراغ بعد «أَمَا أنتَ هو...؟» فحتمًا ستبيّنُ الردود المتنوّعة أنَّ الله يبدو مختلفًا لكلّ شخصٍ منهم، ليس ذلك فقط، بل على الأغلب سيأتي جوابُ معظمِهم في سياق خوفه أو حاجته الأكثر إلحاحًا.

نُشِرَت في إصدار كانون الأول ١٩٩٠ من *Life Magazine* مقالةٌ عنوانُها «من هو الله؟» *Who is God?*، قُصِدَ بها عرضُ المفاهيم الموجودة عن الله لدى مجموعةٍ منوّعةٍ من الناس تتراوحُ بين العالِم والكاهن وربّة المنزل، وكانت القصص المرويّة آسرةً. تكلّمت امرأةٌ متقدّمةٌ في العمر مصابةٌ بالسرطان عن قربِ الله منها في مرضها الفتّاك. وتحدّث كاهنٌ، سبقَ أن أخطأ ويعيش الآن مع شبح الإيدز AIDS، عن رحمة وغفران الله بينما هو لا يزال في وضعه المؤسف. وتحدّثَ عالمٌ في الأحياء الجزيئية عن عجائب دراسته التي وجّهته إلى الله الخالق والمبدع. حتى تلك النقطة كان هناك خيطٌ مشتركٌ، كان الله بالنسبة لهم، مهتمًّا، معزّيًا، موحيًا، شخصيًّا... صديقًا، لكن بعدَ ذلك بدأ تغيّرٌ دراماتيكيّ، فلم يكن الله شخصًا بقدر ما هو قوّة، والحقيقةُ ليست تجسيدًا بقدر ما هي فكرة، والخلاصُ ليس حالةً بقدر ما هو مسعًى، وكلّما تقدّمتَ في القراءة كلّما أصبحت المفاهيمُ أكثر تشويشًا، وبرزت حقيقةٌ جليّة: كلّما ضاقَ تعريفُ الله أكثر، قلَّ عددُ الذين يقبَلون به. استدعت المقالةُ للذاكرة مقابلةً أُجريت منذ بضعة أعوام مع مادلين موراي أوهاير Madalyn Murray O'Hair، الملحدةِ المفوّهة، في

coptic-books.blogspot.com

برنامجٍ حواريٍّ مع ديڤيد فروست David Frost؛ وسُئِل الحضورُ عمّن منهم يؤمن بوجودِ **الله**، وكان العددُ طاغيًا. فنظرَ فروست إلى أوهاير وطرحَ التحدّي بأنّها وكما هو واضحٌ تؤمن ضدّ الاتجاهِ السائد لإيمان المجتمع. فردّت بغير احترامٍ للجمهور قائلةً بعدم قدرتهم على التفكيرِ منطقيًا في هذه القضايا. وقد صرّحَ اللاهوتيّ ار. سي. سپراول R. C. Sproul بالصواب أنّها لو فكّرَت هي نفسُها بوضوحٍ لاستطاعت ختمَ الموضوعِ لصالحها بنقاشٍ مُفحِمٍ إذ كان بإمكانها أن تسأل، «كم منكم يؤمن بأنَّ **الله** موجودٌ وأنّ ابنَهُ يسوع وُلِدَ من عذراء، ومات على الصّليب، وقام من الأموات، وهو الطريقُ الوحيد إلى **الله**؟» ولكان عددٌ مذهلٌ من الحضور أنزلوا أيديهم مع ذلك السؤال.

مهما تكن نيّةُ الجمهور استرضائيةً، ما من شكٍّ في كون مفاهيمهم عن **الله** مختلفة وأنّه لن تبزغ صورة وحدويّة متناغمة عمّن هو **الله**. فبالنسبة لأحدهم قد يكون حاكمًا سياسيًا يحرّضُ الناس على الإطاحة بأيّة قوّةٍ أخرى ترفضُ العمل برؤياه، ولآخرَ قد يكونُ الإلهَ الذي يعملُ في حياة الأفراد بدلاً من الأنظمة، وقد يرى آخر أنّ روحَه هو الذي يتجلّى في التاريخ، وبالنسبة لكثيرين قد يكون **الله** مجرّد ما يريدونه أن يكونه.

يولِّدُ السؤال «من أنت يا **الله**؟» أجوبةً متناقضةً عندما يُترك لرحمة الأهواء الفرديّة، ولسنا نذكرُ هذا للإقلال من شأن المفاهيم الشخصيّة، بل فقط للتأكيد أنّها تختلف من شخص لآخر، وأنّها عندما تتناقض مع المفاهيم الأخرى لا توجد نقطةٌ مرجعيّةٌ لمعرفة أيِّ مفهومٍ منها هو الصّحيح.

مع المجموعة المُربكة من الأجوبة المقدَّمة لهذا السؤال الكليّ الأهمية، يتحوّل طالبُ **الله** عن الاختبار ليرى إن كان الفيلسوف يستطيع أن يقدّم الحُكمَ الفصل ويرسّخَ مرّةً وأبدًا مَن هو **الله**.

coptic-books.blogspot.com

مشكلةُ الجدَل

زيادةً في خيبةِ أملِ المفكّر ستصبحُ المياهُ هنا أكثرَ كدرًا، حيث الآن توضَعُ فكرةُ وجود الله قيد الامتحان. ما على أحدنا سوى أن يقرأ المناظرات العديدة التي جرَت ليتبيّن كم من السهل على بعض الفلاسفة أن يتسلّقوا سلّمَ التجريد بزعم محاولة إيضاح القضايا.

واحدةٌ من تلك المناظرات قامت بين الباحثَين البارزَين، ج. ب. مورلاند J.P. Moreland مدافعًا عن الإيمان المسيحيّ بوجود الله، وكاي نيلسن Kai Nielsen، الفيلسوف المُلحِد الشهير[٣].

عرَضَ مورلاند ببراعةِ البراهين المتنوّعة التي تتكلّم عن سببٍ أوليٍّ، شخصيٍّ وذكيٍّ للكون، وفشلَ نيلسن في الردّ على معظم دفاعات مورلاند المدروسة مليًّا والمقدَّمة بلياقةٍ عن الإيمان المسيحي، وعلّقَ كلَّ نظامه الإيمانيّ على جدالٍ واحدٍ قائلاً: «لو سألتني مَن صنعَ هذه البيتزا، أستطيعُ أن أريك من صَنَعها، وعندما أسألك أن تريني الله الذي صنعَ هذا العالم، ليس لديك مَن تريني إيّاه، فليس هناك إثباتٌ يدلُّ على إلهك هذا.»

هذا، بالنسبة لأيّ عارفٍ في الفلسفة، ردٌّ ضعيفٌ على جبلٍ من الأدلّة.

قامَ عدّةُ فلاسفةٍ آخرون بالردّ على البروفسور نيلسن، وأظهَرَ أحدُهم على وجه الخصوص فراغ الافتراض بأنّ جداله لأجل دلالةٍ يدحضُ كلَّ الجدالات الأخرى. لكنَّ نيلسن كان مقتنعًا بأنَّ ذلك هو كلّ ما يحتاجه في ترَسانَته، وهكذا استمرّت المناظرة جيئة وذهابًا حتى باتَ من المشكوك فيه إن كانَ الجدلُ، حتى بأفضل حالٍ له، قادرًا على حلّ غموض الله لغير الرّاغب.

ومرّةً ثانية، ليس هذا للإقلال من قيمةِ المناظراتِ الفلسفيّة، وإنّما لإظهار كلٍّ من محدوديّتِها والسهولة التي يستطيعُ بها المحنّكُ الاختفاءَ وراءَ جبلٍ من الكلمات.

coptic-books.blogspot.com

مع كوني اشتغلتُ في الفلسفة قسطًا لا بأس به وتمتَّعتُ بها، أنا مقتنعٌ أنَّه إن كان شخصٌ ما ماهرًا فعلاً في دراستِه فهو يستطيعُ على الأغلب أن «يُثبتَ» أيَّ شيءٍ يرغبه، ولا فائدةَ في المناقشة مع شخصٍ مصمّم على شرح استبعاد كلِّ شيء، فإن كانت الإرادةُ خاطئةً لن ينالَ منها شَيءٌ صالح.

إن نأخذ بعين الاعتبار المادّة في هذه المناظرة وغيرها من المناظرات التي أُجريَت حول الموضوع نفسه، لا يمكننا إلّا أن نُكبِرَ ونحترم القوة الفكريّة وراء المناقشات الحصيفة. فالمعرفةُ والتحصيلُ العلميّ مثيران للحسد، وبالإمكان الافتراضُ أنّ لدى كلٍّ من المشاركين دافعًا أصيلاً، لكن ممّا يزعج فعلاً أنّه عندما ترتقي المادّة إلى مثل تلك المستويات الرفيعة يُحجَبُ معظمُنا من المناظرة، وتأتي الصّرخةُ من الداخل: هل هذا فعلاً ما يتطلّبُه ترسيخُ قبول الله في عالَم الفيلسوف؟ قد يكون الأمرُ فعّالاً بالنسبة للبعض، لكن بالنسبة للأكثرية إنّ كلَّ تلك الكلمات تَميلُ فقط لأن تُبهِمَ الصّراع الوجوديَّ لكلّ واحدٍ منّا.

حتمًا إنَّ هذا العِلم يخدمُ غايةً عظيمةً في المساعدة على إزاحة عقباتٍ هامّةٍ لأولئك في الصفوف الأمامية للمعركة العقليّة، لكنّه لا يزال يشكّلُ فجوةً فكريةً جسيمةً يمكنُ عبورُها من قِبَل القلّة فقط. ويصلُ الإحباطُ إلى درجةٍ بعيدة عندما يبلغُ كلٌّ من التّجربة والمناقشة حدودَهما، وكنتيجةٍ، يمكنُ ابتكارُ كلّ أنواع الكاريكاتور عن الله لتلائمَ رغباتنا.

يروي أوجين بيترسون Eugene Peterson في كتابه *Running With Horses* «الرّكض مع الأحصنة» قصّةً أخّاذة؛ حين كان طالبًا في اللاهوت عملَ أيضًا في الفريق الرّعويّ لكنيسةٍ في مدينة نيويورك. كان المشرفُ على الكنيسة، ويلي أوسّا Willi Ossa، رسّامًا في النهار وبوّابًا في اللّيل. كان ألمانيًا ترعرع خلال سنوات الحرب وتزوّج لاحقًا من فتاةٍ أمريكيّة، ثمَّ اتّخذا لهما مع طفلهما الرضيع بيتًا في نيويورك.

coptic-books.blogspot.com

عرَضَ ويلي أن يرسمَ صورةً لأوجين بيترسون الذي وافق على ذلك ليحافظ على استمرار التواصل والصّداقة، إذ كان في حياة أوسّا موقفٌ هادئٌ جدًّا، لكن عدائيّ تجاه المسيحية. وهكذا يومًا بعد يومٍ وأسبوعًا بعد أسبوع خصّص بيترسون وقتًا ليجلس أمام الرسّام، وخلال هذا الوقت لم يَسمح له أوسّا أبدًا أن يرى كيف كان يتقدّم في الرّسم.

وذاتَ يوم، دخلَت زوجةُ أوسّا فجأةً بينما كان يرسم، وبنظرةٍ واحدةٍ إلى اللوحة صاحت «كرانك! كرانك! (مريض بالألمانية)، لقد رسمتَهُ ليبدو مثلَ جثة!»

ردّ أوسّا بحدّة وهو متضايقٌ من كشف هدفه في غير أوانه «إنّه ليس مريضًا، بل هذا ما سيبدو عليه إن فارقَه الحنوّ وجفّت منه الرّحمة.»

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى أدرك بيترسون مجملَ الأمر. لقد كرِهَ ويلي أوسّا الكنيسة واعتقد أنّ المسيحيّين مراؤون، ولامَ كنيسةَ الدّولة في موطنه لأنّها لم تفعل المزيد من أجل كبح فظاعات المحرقة الإباديّة، والآن ببعض الامتنان لصداقة بيترسون أراده أن يعرف ماذا سيحلُّ به إذا استمرَّ في «الطريق المسيحيّ».

إنّها قصةٌ مُحزنةٌ وقرارُ اتهامٍ ضدّ المخزونِ التاريخيّ للمسيحيّة.

لكن خلف كلِّ ما سبق، يتساءلُ أحدُنا: «أليسَ لدى الكثيرين هذه الصورةُ عن الله؟» فوليدَ تجربةٍ شاذّةٍ ما أو مرتشحًا من فلسفةٍ متطرّفةٍ ما، يرَون الله كقوّةٍ معاديةٍ، حقودةٍ، صارمةٍ، خلوٍ من المحبّة والرّحمة.

لقد اختزلَه فلاسفةُ العالم إلى فكرةٍ مفردةٍ، ودرسَهُ علماءُ الاجتماع كظاهرةٍ ثقافيةٍ، بينما حشَرَهُ الوجوديّون في شعورٍ، فلا عجبَ أن يصرخَ السائلُ الصّادقُ: «من أنت يا الله؟»

coptic-books.blogspot.com

هذا هو الخطر الذي يمكن للمناظرة والدّيانة المبنيّة على الاختبار فقط أن تقودَ النّاسَ إليه، إذ نُترَكُ مع نسخةٍ فنيةٍ عن كيف يبدو الله، وفقًا لحكم الفنّان المُسبَق أو مفهومه عن الله.

حقيقةُ الإعلان

مع معاثرِ النقاشِ وما تحملُهُ الخبرةُ من إمكانيةِ الانحراف، ننتقلُ إلى مصدرٍ مختلفٍ كلّيًّا عمَّن هو الله، ألا وهو ما كُشف عن الله في الكتابِ المقدَّس. أَعلنَ اللهُ لنا نفسَهُ في عدّة نصوصٍ هامةٍ، ونحصلُ على لقطاتٍ عنه من مختلف الكُتّاب الذين أُلهموا بالرّوح القدس. ها هنا مقطعٌ مألوفٌ ورائعٌ من النبيّ إشعياء.

«أَلاَ تَعْلَمُونَ؟ أَلاَ تَسْمَعُونَ؟ أَلَمْ تُخْبَرُوا مِنَ الْبَدَاءَةِ؟ أَلَمْ تَفْهَمُوا مِنْ أَسَاسَاتِ الأَرْضِ؟ الْجَالِسُ عَلَى كُرَةِ الأَرْضِ وَسُكَّانُهَا كَالْجُنْدُبِ. الَّذِي يَنْشُرُ السَّمَاوَاتِ كَسَرَادِقٍ، وَيَبْسُطُهَا كَخَيْمَةٍ لِلسَّكَنِ. الَّذِي يَجْعَلُ الْعُظَمَاءَ لاَ شَيْئًا، وَيُصَيِّرُ قُضَاةَ الأَرْضِ كَالْبَاطِلِ. لَمْ يُغْرَسُوا بَلْ لَمْ يُزْرَعُوا وَلَمْ يَتَأَصَّلْ فِي الأَرْضِ سَاقُهُمْ. فَنَفَخَ أَيْضًا عَلَيْهِمْ فَجَفُّوا، وَالْعَاصِفُ كَالْعَصْفِ يَحْمِلُهُمْ.

فَبِمَنْ تُشَبِّهُونَنِي فَأُسَاوِيهِ؟ يَقُولُ الْقُدُّوسُ. ارْفَعُوا إِلَى الْعَلاَءِ عُيُونَكُمْ وَانْظُرُوا، مَنْ خَلَقَ هذِهِ؟ مَنِ الَّذِي يُخْرِجُ بِعَدَدٍ جُنْدَهَا، يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ؟ لِكَثْرَةِ الْقُوَّةِ وَكَوْنِهِ شَدِيدَ الْقُدْرَةِ لاَ يُفْقَدُ أَحَدٌ...

أَمَا عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَسْمَعْ؟ إِلهُ الدَّهْرِ الرَّبُّ خَالِقُ أَطْرَافِ الأَرْضِ لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَعْيَا. لَيْسَ عَنْ فَهْمِهِ فَحْصٌ. يُعْطِي الْمُعْيِيَ قُدْرَةً، وَلِعَدِيمِ الْقُوَّةِ يُكَثِّرُ شِدَّةً. الْغِلْمَانُ يُعْيُونَ وَيَتْعَبُونَ، وَالْفِتْيَانُ يَتَعَثَّرُونَ تَعَثُّرًا. وَأَمَّا مُنْتَظِرُو الرَّبِّ فَيُجَدِّدُونَ قُوَّةً.

coptic-books.blogspot.com

يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ. يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ. يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ.»

إشعياء ٤٠ :٢١ –٢٦، ٢٨ – ٣١

واصغِ لكلماتِ النبيّ ميخا والذي معنى اسمِه «مَن مثلُ الله؟»:

«اسْمَعُوا أَيُّهَا الشُّعُوبُ جَمِيعُكُمْ.
أَصْغِي أَيَّتُهَا الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا.
وَلْيَكُنِ السَّيِّدُ الرَّبُّ شَاهِدًا عَلَيْكُمُ، السَّيِّدُ مِنْ هَيْكَلِ قُدْسِهِ.
فَإِنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ وَيَنْزِلُ وَيَمْشِي
عَلَى شَوَامِخِ الأَرْضِ، فَتَذُوبُ الْجِبَالُ تَحْتَهُ،
وَتَنْشَقُّ الْوِدْيَانُ كَالشَّمْعِ قُدَّامَ النَّارِ.
كَالْمَاءِ الْمُنْصَبِّ فِي مُنْحَدَرٍ.
كُلُّ هذَا مِنْ أَجْلِ إِثْمِ يَعْقُوبَ.»

ميخا ١: ٢–٥

وميخا ذاتُه عندما تكلّم عن الرّعبِ الذي سيشعرُ به مَن يواجهُ الدينونة، ختَمَ بهذه الكلمات:

«مَنْ هُوَ إِلهٌ مِثْلُكَ غَافِرٌ الإِثْمَ وَصَافِحٌ عَنِ الذَّنْبِ لِبَقِيَّةِ مِيرَاثِهِ!
لاَ يَحْفَظُ إِلَى الأَبَدِ غَضَبَهُ،
فَإِنَّهُ يُسَرُّ بِالرَّأْفَةِ.
يَعُودُ يَرْحَمُنَا، يَدُوسُ آثَامَنَا،
وَتُطْرَحُ فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ جَمِيعُ خَطَايَاهُمْ.»

ميخا ٧: ١٨ و١٩

تأمّل أيضًا في وصف اللقاءات بين الله وموسى، بين الملاك ومريم، وبين يسوع وشاول الطرسوسي. فبِوَضعها إلى جانب كلمات الأنبياء

coptic-books.blogspot.com

تبزغُ صورةٌ عن رجالٍ ونساءٍ يجاهدون للكلام في حضور الله ومن ثمّ يَجِدون الكلمات قاصرةً عن التّعبير عمّا شَعَروا.

ليس مفاجئًا إطلاقًا أن نجِدَ بولس، في وصفه لرؤياه التي أُخذَ بها «للسماء الثالثة»، يقول: «أَفِي الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ، أَمْ خَارِجَ الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ.» كان عاجزًا عن الوصف – وهذا ليس مألوفًا أن يحدثَ لبولس – فأوجز بهذه الكلمات: «مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ» (١كورنثوس ٢ : ٩).

كذلك يوحنا الذي كان له امتياز أن يتسلّم الرؤيا الأخيرة وجَدَ الكلماتِ تخذلَهُ، فكانت أفضلَ محاولاته اللازمة الكثيرة التّكرار «شبهَ... شبهَ... وكأنّه»، كيف للإنسانِ أن يصِفَ ما يقصُرُ دونه كلُّ تشابهٍ؟

قوّةُ ومحدوديّةُ عِلمِ اللاهوت

من حفنة المفاهيم الواضحة التي تبزغُ عند إجمال هذه الحقائق العظمى، هناك أربعةٌ رئيسية. الأوّل هو **سيادةُ الله**، الثاني **قداسةُ الله**، الثّالث **عِلمُ الله الكليّ**، والرّابع **عدمُ تغيّرِ الله**. وكلٌّ من هذه المفاهيم كفيلٌ بمجلّداتٍ من التّفسير، لكن كلّ ما يمكننا أن نبلغه في هذا الموضع عبارةٌ فقط عن رأس أُنملةٍ منَ الفكرة لمساعدتنا للوصول إلى الذروة.

عندما نقرأُ عن سيادة الله، نقرأ عن عالَم خُلِقَ من لا شيء. نقرأُ أنَّ الله يوجّهُ سُبُلَ الأفراد، بل حتى التاريخ. نقرأُ عنَ سلطانه على العناصر. نقرأُ عن وجوده الذاتيّ غير المسبَّب بأيِّ قوةٍ أو سببٍ آخر. وباختصارٍ، الله هو الحاكمُ المطلَقُ للكون.

بدأ جايمس مونتغمري بويس James Montgomery Boice، المُحرِّر والمُساهِم في الكتاب الرّائع «إلهنا ذو السلطان» *Our Sovereign God*، موضوعَه بقصّةٍ عن صديقٍ لعائلةِ دونالد غراي بارنهاوس Donald Grey

coptic-books.blogspot.com

Barnhouse، كانَ عضوًا في فرسان الولايات المتحدة في زمنٍ نَدَرَت فيه السيارات أو الطائرات. كان هذا الجنديّ الفخور ميّالاً لسَرد القصّة تلو القصّة عن حياته المثيرة والمجيدة كعضوٍ في الفرسان. وفي إحدى المناسبات قال:

«إنّ أهمَّ شيءٍ في كامل القوى المسلَّحة للولايات المتّحدة هو لواءُ الفرسان، ثمّ رقيب الفرسان، ثُم الفارس، وثمّ هناك حصان الفارس... يليه لا شيء، ثمّ لا شيء، ثمّ لواء المشاة.» لقد أوضحَ فكرتَه، فأيُّ شيءٍ له علاقةٌ بالفرسان هو جزءٌ من كلِّ شيء، ومن بَعدِه لا شيء بحيث أنّ الأفضل في أيِّ شيءٍ يليه هو أقلُّ من لا شيءٍ بالمقارنة معه.

بعد سنواتٍ عديدة، عندما سُئِل بارنهاوس عمّا هي العقيدة الأهمّ عن الله، أشارَ إلى سيادة الله، وكلّ ما عداها يأتي بعدها.

الحقيقة أنّه لو لم يَكُنِ الله سائدًا، كيف وُجدنا نحنُ وإلى أين نتّجه؟

كم سيكونُ مُرعبًا هذا الوجود إن لم يكن هناك قيّمٌ أو مسيطر. لقد عرَّفَ الله عن نفسه بـ«الكائن» I am. هل من طريقةٍ أفضل لوصف مَن هو على مرِّ الأزمانِ موجودٌ؟ لا شيءَ ولا أحدَ آخرَ يستطيع أن يدّعي ذلك الوصف. كلُّ شيءٍ آخر قد أوجِد، أمّا الله فليس له بداية أو نهاية. ليس هناك زمنٌ لم يكن هو فيه، ولا يمكن له ألاّ يكون. إنّها سيادةُ الله التي تعطي الحياة والتاريخ هدفًا، إنّه سائدٌ بأفضل وأنقى معنًى للكلمة.

المفهوم الثاني هو قداسةُ الله. سبعةٌ من كلِّ اثني عشر ذكرًا لاسم الله في العهد القديم تشيرُ إليه على أنّه قدّوس. ليس في الله شيءٌ باطلٌ، ضارٌّ، أو ناقصٌ، وإنّما نقاوةٌ جوهريّة بِها يَكتسبُ كلُّ شيء تصنيفَه إن كان صالحًا أم شرًّا. لا يمكنُ لله أن يكذب وهو لن يرتكب خطأً.

كتبَ الباحثُ الألمانيّ رودولف أوتّو Rudolf Otto، في بداية القرن العشرين كتابًا هامًا تُرجِم إلى الإنكليزية بمعنى «فكرة القدّوس»

coptic-books.blogspot.com

The Idea of the Holy. وفيه قدَّمَ نقطةً حيويّةً أنّه رغم كون معنى النّقاوة الأخلاقيّة موجودًا في فكرة القداسة، فإنَّ مفهومَ القداسة يتجاوزُ بعيدًا مجرّدَ الأخلاق، ودعاها «مزيدًا» أو «فائضًا» يمضي أبعدَ جدًّا من الصّلاح، إنّها «غموض هائل»[٤].

بتعليقٍ مشابهٍ كتَبَ أ. و. توزر A. W. Tozer، أحدُ أهمِّ الكُتَّاب المبدعين في موضوع قداسة الله:

> «لا كاتبُ ولا قارئُ هذه الكلمات مؤهّلٌ لتقدير قداسة الله، وبالفعل يجبُ أن تُفتحَ قناةٌ جديدةٌ عبرَ صحراء عقولنا لتسمح لمياه الحقِّ العذبة، التي ستشفي داءَنا الأكبرَ، بأن تجري فيها. لا يمكننا أن ندرك المعنى الحقيقيّ للقداسة الإلهيّة بالتفكير في شخصٍ أو شيءٍ طاهرٍ جدًا ثم الارتقاء بالمفهوم إلى أعلى درجة نستطيعها. فقداسة الله ليست مجرّدَ تجويدٍ لانهائيٍّ لأفضل شيءٍ نعرفه، إذ نحن لا نعرف شيئًا يشبه القداسة الإلهية. فهي تقف معزولةً، فريدةً، لا يمكن الدنوّ منها، لا يمكن فهمها، لا يمكن بلوغها، والإنسان الطبيعيّ أعمى عنها، فهو يمكنه أن يخافَ قدرةَ الله ويُعجبَ بحكمتِه، أمّا قداستُه فلا يمكنه حتى تخيُّلها.»[٥]

إنَّ قداسةَ الله موضوعٌ أسَرَ عقولَ كلٍّ من اللاهوتيّين ومؤلّفي التّرانيم. وكلّما تعمّقَ الكاتبُ في دراستها، شعَرَ بأنّه أقلُّ كفاءةً في الكلام عنها.

إلى جانب مفهومَي سيادة الله وقداسة الله، نلاحظُ خاصّيةً مُساويةً في اكتنافها بالغموض وهي عِلمُ الله الكليّ. وبعبارةٍ واضحة هذا يعني أنّ الله يمتلك المعرفة التامّة، ولذلك هو لا يحتاج أن يتعلّم. «مَنْ قَاسَ رُوحَ الرَّبِّ، وَمَنْ مُشِيرُهُ يُعَلِّمُهُ؟» (إشعياء ٤٠: ١٣).

coptic-books.blogspot.com

وهنا أيضًا يُجيدُ أ. و. توزر تلخيصَ مضامين هذه الصّفة:

«يَعرِفُ الله فورًا ودون أيِّ جهدٍ كلَّ أمرٍ وكلَّ الأمور، كلَّ عقلٍ وكلَّ العقول، كلَّ روحٍ وكلَّ الأرواح، كلَّ الكائن وكلَّ كائنٍ، كلَّ جمعٍ وكلَّ الجموع، كلَّ النّاموس وكلَّ النّواميس، كلَّ العلاقات، كلَّ الأسباب، كلَّ الأفكار، كلَّ الغوامض، كلَّ الألغاز، كلَّ المشاعر، كلَّ الرغبات، كلَّ سرٍّ مكتوم، كلَّ العروش والسيادات، كلَّ الشخصيّات، كلَّ الأشياء المَرئية وغير المرئية في السماء وفي الأرض، الحركة، الفضاء، الزمن، الحياة، الخير، الشرَّ، السماء وجهنّم.»[٦]

الخاصّيةُ الرّابعةُ هي عدمُ تغيّرِ الله. إنّه غيرُ فانٍ وغيرُ متبدّلٍ، فهو ليس نزَويًّا أو هوائيًا، بل يعملُ دائمًا في انسجامٍ مع شخصيّته.

لكن عندما نحاولُ أن نفهم سيادة الله، قداستَه، علمَه الكليّ وعدم تغيُّره بشكلٍ جيّدٍ، يبرزُ أمرٌ صادمٌ. فهذه كلُّها، على روعَتِها، يُمكنُ إن توَقّفنا لنتأمّلها مليًّا، أن تُوقعَنا في قليلٍ من الإرباك. لمَ ذلك؟

هنا نواجهُ محدوديّةَ علم اللاهوت الذي هو سيّد العلوم.

صحيحٌ قطعًا أنّه بينما يختزلُ قلمُ الفيلسوف عددَ مَن يستطيعون المصارعةَ في معرفة الله، ويمكن للإيمان المبنيِّ على الاختبار فقط أن يتسبّبَ في استنتاجاتٍ خاطئةٍ عن شخص الله، يعطينا الإعلانُ الإلهيُّ في الكتاب المقدَّس الوصف المكتوب الذي ينبغي أن تُقاس عليه كلُّ المزاعم عن الله، إذ هو كلمةُ الله. لكن على قدر يقينيّة ذلك، تُقدِّم هذه التعاليمُ نفسُها تحدّيًا جسيمًا حين نُعمِلُ الفكرَ فيها.

فمثلاً يمكن أن تبدو سيادةُ الله تعسّفيةً بشكلٍ مرعبٍ عندما تتّخذُ الحياةُ فجأةً منعطفًا مأساويًا. وهذا لا يقرُّ به الجميع، لكنّ الكثيرين فكّروا به.

coptic-books.blogspot.com

تلقّيتُ مرّةً مكالمةً هاتفيّةً من شخصٍ غريبٍ كليًّا كان مستلقيًا في سرير مستشفى في مدينة تبعدُ مئات الأميال. كان قد حصلَ على رقم هاتفنا خلال برنامجنا الإذاعيّ وأصَرّ أنّه يحتاج بشدّة أن يتكلّمَ معي. وإذ أظهرَ الألمُ في صوته صدقَ حاجَته حُوِّلت المكالمةُ إليّ مباشرةً. كان قبل أيّامٍ قليلةٍ يلعب البايسبول في نزهة مع زملائه في العمل، وفيما كان يركضُ باتجاه إحدى القواعد ارتطم بلاعبٍ آخر، وكان الاصطدام شديدًا جدًّا بحيث انقصم رأسُه إلى الخلف. كان يتّصل بي من المستشفى بعد أن تلقّى خبرَ إمكانيّة بقائه مشلولاً منَ الرّقبة فما دون. حتى تلك اللحظة من حياته لم يكن له أيّةُ علاقةٍ بالكنيسة أو بالله، لكن الآن كان يتّصل بمَن اعتبَرَهم «أناسًا متديّنين» في بحثٍ عمّن يمكن أن يشفيه.

يا لها من مأساةٍ لرجلٍ في أربعينياته مع عائلةٍ فتيّة! وفي حالته يبدو مفهومُ سيادة الله تعسّفيًا جدًّا، فقد تحوّلَ في لحظةٍ واحدةٍ منَ الصّحّة التّامّة مع كلِّ شيءٍ ليعيشَ لأجله، إلى الشلل الكامل.

نفسُ الإرباك المفزع يبرزُ مع قداسة الله. فنحن كبشرٍ نُحِبُّ مفهوم القداسة حين نسلكُ في الصّواب، لكنّنا حذرون جدًا في تطبيقه عندما نكون مخطئين.

قرأتُ منذ سنتين على الصفحة الأولى لصحيفةٍ دوليّةٍ معروفةٍ قصّةَ سائق شاحنةٍ في إيطاليا كان عادةً يزور بيوت الدعارة خلال سفره. وذاتَ مرّةٍ أخبَرَه أحدُ أصحابه عن أفضل بيت دعارةٍ سبَقَ له أن زاره، وعمّن يجب أن يَطلبَ ليتلقّى أفضلَ خدمة، وقرّرَ أن يتبَعَ التّوصيات رغم كون المكان قريبًا من بيته. وعندما وصَلَ إلى بيت الدعارة، طلَبَ بنت الهوى تلك وانتظرَ وصولها، ولصدمته الكليّة وغضبه الشديد، عندما دخلت تلك المرأة إلى الغرفة اكتشف أنّها زوجتُه، واحتدمَ غيظُه إذ عرف أنّه بينما كان يسافرُ كانت زوجتُه تكسبُ معيشتها بالبغاء، فأمسَك بها فاقدًا السيطرةَ على نفسه ولكان قتلَها لو لم يُضبَط.

coptic-books.blogspot.com

بينما قرأتُ القصّة هزَزتُ رأسي غيرَ مُصَدّقٍ، فذلك رجلٌ مطمئنٌ تمامًا لنمط حياته الفاسق والمخادع، لكن عندما انقلبت عليه الأدوار لم يقدر أن يتقبَّلَ رُعبَ كونه ضحيّةَ ذات فلسفته.

عندما يكشفُ شخصان فاسدان أحدُهما الآخرَ، هناك نزعةٌ كونيّةٌ لتوجيه الإصبع. فنحنُ رغم أنّنا أنفسَنا أشرارٌ من دون تردّدٍ، نطبّقُ معاييرَ مقدّسةً على الآخرين. وبقدر ما هو مُعَزٍّ أن نختبئ خلف القداسة عندما نريدُ أن نوبّخَ الآخرين على معاصيهم، فإنها تصبحُ مفهومًا مُرعبًا عندما نوضَعُ نحنُ تحت التّمحيص الصّارم لنُورِها.

ماذا سنفعلُ عندما نقف أمام الله القدّوس وتتكشّفُ رداءاتِنا بكلِّ هَولِها؟ هل سنلومُ الله؟

إن تبدو السيادةُ مستبدّةً والقداسةُ مرعبةً، فالعلمُ الكليُّ يبدو متهكّمًا. قال داود في المزامير:

«أَيْنَ أَذْهَبُ مِنْ رُوحِكَ؟ وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرُبُ؟
إِنْ صَعِدْتُ إِلَى السَّمَاوَاتِ فَأَنْتَ هُنَاكَ،
وَإِنْ فَرَشْتُ فِي الْهَاوِيَةِ فَهَا أَنْتَ.
إِنْ أَخَذْتُ جَنَاحَيِ الصُّبْحِ، وَسَكَنْتُ فِي أَقَاصِي الْبَحْرِ،
فَهُنَاكَ أَيْضًا تَهْدِينِي يَدُكَ وَتُمْسِكُنِي يَمِينُكَ.
فَقُلْتُ: إِنَّمَا الظُّلْمَةُ تَغْشَانِي.
فَاللَّيْلُ يُضِيءُ حَوْلِي!
الظُّلْمَةُ أَيْضًا لاَ تُظْلِمُ لَدَيْكَ، وَاللَّيْلُ مِثْلَ النَّهَارِ يُضِيءُ.
كَالظُّلْمَةِ هكَذَا النُّورُ.»

المزمور ١٣٩: ٧ – ١٢

coptic-books.blogspot.com

عندما تكونُ كلُّ فكرة، كلُّ فعلٍ، وكلُّ نيّةٍ معروفةً، يُمكن للإنسان بسهولةٍ أن يشعر بأنّه مهدّدٌ، بل وحتى مُنتَهكٌ. إنّ العلم الكليَّ يجعلُ التفحّص يبلغُ مستوىً مؤلمًا.

أمّا بالنسبة لعدم تغيّر **الله**، بوسعنا أن نكون متأكّدين أنّه سيكونُ دائمًا سائدًا، دائمًا قدّوسًا، ودائمًا كلّيَّ العِلم.

أمورٌ قليلةٌ تُخيفُنا كبَشرٍ قدر ما يُخيفنا عدمُ قدرتِنا على تغيير أيِّ شيءٍ. وكم يكونُ ذلك معذِّبًا عندما نكون موضوعين تحت التّحدّي ومحدودين.

التعبير الأسمى

باختصارٍ، تَردُنا هذه الحقائق للوهلة الأولى كأفكارٍ، وعلى قدر ما هي بديعةٌ ومجيدةٌ هذه التّعاليمُ العظيمةُ، لكن لا يزال هناك عنصرٌ مفقودٌ في الكيفيّة المُثلى لمعرفة **الله**. ولذلك لم يتوقّف **الله** عند ذلك الحدّ بل فعَلَ ما هو أكثر، ودعوني أُقدّمُ له بمَثلٍ إيضاحيّ.

عندما كنّا نعيشُ في الهند، وقعَ حدثٌ طريفٌ مع أحد العاملين في بيتنا كان قد نشأَ في قرية، وكانت المدينةُ أمرًا جديدًا كليًّا بالنسبة إليه. وذاتَ يوم، كضيافةٍ خاصّة، أعطته أمّي بعض المال ليذهب ويشاهد فيلمًا، وكان ذلك أوّلَ فيلمٍ يشاهدُه. عندما عاد بعد حوالى ساعتين، كنتَ لتظنَّ بالنظر إلى وجهه أنّه قد مشى على سطح القمر. لقد كان مُنتشيًا، وسألناه ماذا حدث؟ فأخبرَنا أنّه حين وصلَ إلى دار السينما كان الفيلمُ قد سبقَ وابتدأ. دخلَ إلى القاعة المظلمة ووقفَ بجانب الباب إذ لم يستطع أن يرى إلى أين يتّجه، وأثناء ذلك كان وجهُه إلى خلفِ القاعة من حيث كانَ يُعرض الفيلم، ورأى حزمَ الضّوءِ تأتي من فتحةٍ في الجدار وتمتّعَ بالمنظرِ للحظة معتقدًا أنّ ذلك هو الفيلم، ثمّ التفتَ حولَه صدفةً وصُعِقَ لرؤيةِ صورةٍ ذات ألوانٍ باهرةٍ

coptic-books.blogspot.com

على الشاشة وأطلقَ بالهنديّة ما يعادلُ صرخةَ أرخميدس «أوريكا»، ثمّ تدافع بين الناس وتقدّمَ متعثّرًا إلى أحد المقاعد ليجلسَ مخلوبًا بقيّةَ الفيلم.

نادرًا ما ضحكنا بشدّةٍ كما حينها، وهو معنا أيضًا، لسلوكِه البدائي وبهجته الطفوليّة.

بطريقةٍ ما، أشعرُ أنَّ الله فعلَ معنا ذات الأمر بينما كشَفَ لنا عن شخصه. كانت كلُّ طريقةٍ تكلّمَ بها إلى الجنس البشريّ مثلَ تلك الحزمة الضّوئية، تحملُ جزيئات الصّورة فقط كشعاعٍ برّاقٍ – بقعًا صغيرةً لا تُعدّ تتلألأ وتتحركُ في ذات الاتجاه – إلى أن استقرَّ الضوءُ في صورةٍ واحدةٍ مركّبةٍ مليئةٍ بالبهاءِ في وجهِ ابنِه «وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ...» قالَ التّلاميذ «مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا» (يوحنا ١: ١٤)، وصرخوا أيضًا: «أُوصَنَّا! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ!» (يوحنا ١٢: ١٣).

إنَّ أيَّ شيءٍ يبتكرُه شخصٌ ما، يمكن بأفضل حالٍ أن يحمل شبَهًا لذلك الشخص، كمثلِ نحّاتٍ ينحتُ تمثالاً لنفسه أو رسّامٍ يرسمُ صورتَه الذاتيّة، يستطيع الإنسانُ أن يقدّمَ فقط شبَهًا لمبتكراته. أمّا ذلك الذي هو الابن فيحملُ جوهرَ أبيه، فكلّ خلائقِ الله يمكنُ أن تُظهرَ روعتَه وجمالَه إلى درجةٍ ما. وكلمةُ الله حملت التعاليمَ العظمى عن سيادته وقداسته وعلمه الكليّ وعدم تغيّره. لكن في ذروة تعبيره نرى «الابن الوحيد للآب» الذي يحملُ جوهرَ أبيه .

عندما طلبوا من يسوع «أَرِنَا الآبَ»، قال: «الَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ» (يوحنا ١٤: ٨ و٩). لهذا السبب ذكّرنا الله في الرّسالة إلى العبرانيين (١: ١ و٢) أنّه:

«اللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيمًا، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثًا لِكُلِّ

coptic-books.blogspot.com

شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضًا عَمِلَ الْعَالَمِينَ، الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ...»

ذروةُ الحقيقة

إنّ هذا التّعبير الأقصى ذو أهمّيةٍ رئيسيّةٍ، فعنده يفترقُ الإيمانُ المسيحيُّ عن كلِّ إيمانٍ آخر بشكلٍ جذريّ. ولقد عرفَ الرّسول بولس جيّدًا تشعبات هذه النقطة، فهو كان رجلَ ثقافاتٍ عدّة: عبرانيّ بالولادة، نشأ وتثقّفَ في مدينة يونانية، وكان مواطنًا رومانيًا. وكان لكلٍّ ثقافةٍ منها غايتها المثلى ولكلٍّ منها مَثَلَها المجازيّ عن الحقيقة القصوى. وأراد بولس أن يُظهر للنّاس في الثّقافات الثّلاث أنّهم كانوا ينظرون إلى الجدران الخلفيّة ذات الحزمة الضّوئية، وأنّهم بحاجة لأن يلتفتوا ويروا إلامَ تشير. فكيف فعل ذلك؟

قدّمَ العبرانيّون للعالم تصنيفاتنا الأخلاقيّة، وأعطانا اليونانيّون تصنيفاتِنا الفلسفيّة، وترك لنا الرومانيّون تصنيفاتنا القانونيّة.

بالنسبة للعبرانيين، يُرمَز لمسعى الحياة الأعظم بالنّور «اَلرَّبُّ نُورِي وَخَلاَصِي، مِمَّنْ أَخَافُ؟» (المزمور ٢٧: ١). «اَلشعب السَّالِكُ فِي الظُّلْمَةِ أَبْصَرَ نُورًا عَظِيمًا» (إشعياء ٩: ٢). «كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ اَلَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِيًا إِلَى الْعَالَمِ» (يوحنا ١: ٩).

وبالنسبة لليونانيين الهدفُ الأقصى هو المعرفة «وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ» (يوحنا ٨: ٣٢). «لأَنَّنِي عَالِمٌ بِمَنْ آمَنْتُ...» يقول الرسول بولس في ٢تيموثاوس ١: ١٢.

أمّا بالنسبة للرّومان فخلاصةُ الحياة تُمَثَّل بالمجد، فروما هي المدينة التي تقود إليها كلُّ الطرق، روما التي لم تُبنَ في يوم، وروما المدينة الأبديّة. إنّ مجدَ الامبراطورية الرومانيّة والقياصرة مضربٌ للمثل.

coptic-books.blogspot.com

النّور، المعرفة، المجد، كانت غايات الثّقافات العظيمة الثّلاث، كانت الحزمَ الضوئيّةَ التي حَدَّقوا بها. وفي كتاباته إلى المؤمنين في كورنثوس التي حَوَت التأثيرات الثلاثة، قال الرّسول بولس: «لأَنَّ الله الَّذِي قَالَ: أَنْ يُشْرِقَ نُورٌ مِنْ ظُلْمَةٍ، هُوَ الَّذِي أَشْرَقَ فِي قُلُوبِنَا، لإِنَارَةِ مَعْرِفَةِ مَجْدِ الله فِي وَجْهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (٢كورنثوس٤: ٦).

يا لها من آيةٍ لجذب كلِّ توقٍ وكلِّ غايةٍ وأكثر من ذلك، في هذا الوجه تتجاوزُ قداسةُ الله كلَّ أخلاقيّةٍ عبرانيّةٍ، ويتجاوزُ علمُ الله الكليُّ كلَّ مطلب اليونانيين للمعرفة، ويتجاوزُ سلطانُ الله كلَّ مجدٍ رومانيٍّ. كلُّها أُظهِرَت لنا على أقصاها في وجهٍ، وكأنّ ذلك لم يكن كافيًا. كلُّ تلك الثقافات كانت ستذوي يومًا وتندثر بينما سيكون الله غيرُ المتغيّر دائمًا موجودًا.

أتريد أن ترى الله؟ انظر إلى وجه المسيح، ففي ذلك الوجه يرتقي كلُّ وصفٍ إلى مستوى الكمال، ليس فقط خَبَريًّا، وإنّما تجسيديًا.

نرى في هذه الآية ذروةَ إعلانِ الله. لم يكن مقصورًا على فلسفة اليونان، ولا على الخبرة الرّوحيّة للعبرانيين، ولا على مجد مدينةٍ أرضيّة؛ لقد تمَّ التعامل مع كلِّ تلك المطالب في الحقِّ المطلق الذي في الكتاب المقدَّس. لكنّ التعبير المطلق عن الله أتانا في وجه «الابن الوحيد الذي للآب». لننظر إذًا إلى ذلك الوجه، خاصّةً إذ عبّرَ هو عن مَطلبِه القلبيّ لأجل تلاميذه، أن يعرفوا ملءَ الفرح الذي يمنحه الله؛ نقرأ في الأصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا مرةً تلو الأخرى في صلاة يسوع هذه الكلمات: «أيها الآب»، «أيها الآب القدّوس»، «أيها الآب»، «أيها الآب البار»، «أيها الآب».

مَن هو الله؟ دعونا نتذكّر أنّ الابن وحدَه يحملُ الجوهر، والابن دعاه «الآب القدّوس». وهكذا عندما نولد نحن من الرّوح ويوضعُ ختمُه علينا، فنحن أيضًا بنعمته وبفداء ابنه يمكننا بجرأةٍ أن ندعوه أبانا. هو أبونا القدوس، كم هذا فريدٌ وثمينٌ، ولستُ أعرفُ إيمانًا دينيًّا آخر يدعوه أبًا.

coptic-books.blogspot.com

إنّه أبونا القدّوس، لكن ماذا يعني لنا هذا؟ دعوني أشرح هذا بأفضل طريقةٍ أعرفُها.

هناك عائلة مميّزة جدًّا بارَكَت حياتَنا، لكن ما كان لنا أن نعرفَ كم هم مميّزون إلّا من خلال سماعنا بمأساةٍ رهيبةٍ حدثت سنة ١٩٨٩.

كان غريغ سيمنز Greg Simmons رجلَ أعمالٍ ناجحًا جدًا، وكان مليئًا بالطاقة التي كان أفضلُها مقدَّمًا للمسيح، ولدعوة المسيح له. عاش مع زوجته كريستين وأولادهما الخمسة في أتلانتا Atlanta، وكان في أوج مهنتِه يحقّقُ إنجازاتٍ عظيمةً في عالَم الشركات بأفكاره الإبداعيّة في مجال التأمين.

ذاتَ يومٍ أخذ غريغ أربعةً من أولاده، تتراوح أعمارُهم بين الثالثة والثانية عشرة، وصديقًا له ليرَوا ملكيّة اقتنوها حديثًا في هايلاندز – كارولينا الشمالية Highlands, North Carolina. تسلّقوا إلى أعلى شلّالٍ، وخطا غريغ خطوةً قاتلة قريبة إلى الحافّة غيرَ عالمٍ أنّه لا يوجد ما تستند عليه رجلُه، وهبطَ عموديًا مسافةَ ربع مِيلٍ إلى حتفه.

كيف يمكن لأحدٍ أن يستوعب الرّعبَ المباشر لأمرٍ كهذا؟ يمكننا فقط أن نتوسّل أن تمسك أذرعُ الله بالذين نحبّهم خلال تجربةٍ تسحَقُ القلبَ كهذه. لكن من هذا الحادث المفجع بزغ أمرٌ استثنائي.

كتب ماكتريك Mckittrick، ابن غريغ ذو الاثني عشر عامًا، هذه الأسطر المذهلة إلى إحدى صديقات العائلة المقرّبات جدًا:

السيّدة العزيزة ويلاند Wieland:

> أنتِ لا تعرفين كم ساعَدَت عائلتُك في تشكيل أبي؛ كان شديدَ الإعجاب بزوجِك وبكِ، ولطالما تكلّم عن إيمانكما الكبير بالله، وقد حاول أن يكون كريمًا كما كنتما أنتما

coptic-books.blogspot.com

مع الكنيسة، والأمور الأخرى الكثيرة. منذ موته توضّحَ الأصدقاء الحقيقيّون، وعائلتُكم على رأس القائمة. أنتم مصدرُ طاقةٍ عظيمٌ لأمّي ولي.

لقد أحبّكم أبي كثيرًا وحاول دائمًا أن يكون مثلكم. كان أبي مِثلَ الرّجال الثلاثة في الإنجيل الذين أعطاهم يسوع الوزنات. ذهبَ أحدُهم واستثمرها وضاعفها، والآخر أخذ أسهمًا فشلَت ولم تنتج شيئًا، والأخير طمَرَها ولم يفعل بها شيئًا. عاد الثلاثة بعد بضعة أيّام وسرَّ الرب بالاثنين اللذين عمِلا بالوزنات، لكنّه لم يسرّ بالأخير، مع أنَّه عاد بنفس المقدار، لأنّه لم يحاول أن يفعل شيئًا. لقد ضاعف أبي وخسر أمورًا كثيرة، لكنّه كان دائمًا مُسرًّا للرب. لقد أخذ الكثير من ذلك من عائلتكم. كان أبي مجازفًا بكلّ معنى الكلمة، يقول في سفر التكوين في ١:١ «في البدء كان الله...» وفي بداية حياة والدي كان مُمَيّزًا ومجازفًا، ولذلك كان لامعًا وناجحًا، لا أحد سيفهم كيف أو لماذا سقط أبي في الشلال، اعملوا معروفًا مع أنفسكم بألاّ تحاولوا أن تستنتجوا ذلك. لقد مات أبي من أجل أولاده. كان يتأكّد أنّه من الآمن لنا أن نصعد. قد تسمعون أمورًا مختلفة، لكن ستّةٌ فقط رأَوا ذلك وثلاثة فقط فهموا ما الذي حدث فعلاً، أنا واحدٌ منهم.

فقدت أمّي كنزَها – زوجَها، ومعظمُ البقيّة فقدوا غريغ، أنتم فقدتم صديقًا مخلصًا، جدّايَ فقدَا ابنَهما. فورست Forrest، جون John، وباربرا Barbra فقدوا أخاهم. لكنّ الأمرَ مختلفٌ بالنسبة لي، مختلفٌ كلّيًا، فهو كان صديقي المفضّل ومَثَلي الأعلى، لكن عندما لمحتُه لآخرِ مرّةٍ وهو يسقط في الشلال، فقدتُ رَجُلي الأثمن على الأرض. لقد كان أبي،

coptic-books.blogspot.com

أبي الأوحد والوحيد. لقد رأيت حلمًا، أبي بخير، لقد أخبرَني ذلك بنفسه.

شكرًا لكونِكِ صديقةً حقيقيةً، أحبُّكِ كثيرًا.

غريغوري م. سيمنز[٧].
Gregory M. Simmons

من غيرِ الممكنِ قراءة هذه الرّسالة دونَ دموع. ماكتريك الذي يُدعى عادةً باسمه الأوسط وقّع الرّسالة باسمه الأوّل لأنّه نفس اسم أبيه. لقد كتب «كان أبي الأوحد والوحيد.» يصبح هذا العالم مكانًا موحشًا جدًّا عندما يترعرعُ الأبناء بدون آبائهم، كم بالحري سيكون الوجودُ أكثرَ وحشةً إن كان العالمُ نفسُه بدون أب.

مَن هو الله؟ إنّه أبونا القدّوس.

كتب وليام بلايك William Blake:

تايغر! تايغر! تتّقدين متألّقةً
في غاباتِ الليل
أيّةُ يدٍ أو عينٍ خالدةٍ
استطاعت صوغَ تناسقَك الرّهيب[٨]؟

هناك تناسقٌ رهيبٌ للحياة، وتمامًا كما يمكنُ في أحلك ليالي النّفسِ أن يضيءَ أسطعُ نورٍ، هكذا أيضًا هناك تناسقٌ رهيبٌ في ملاصقة «القدّوس» مع «الآب».

عندما يكون الله أبانا القدّوس لا تعُد تُرعبنا السيادة، ولا القداسة، ولا العلم الكلّيّ، ولا عدم التغيّر، بل تملؤنا بالتهيّبِ والامتنان. تكون السيادةُ استبداديّةً فقط إن لم تكن مقترنةً بالصّلاح، والقداسةُ مرعبةً فقط إن لم

coptic-books.blogspot.com

تلطّفها النّعمةُ، والعلمُ الكليُّ ساخرًا فقط إن لم ترافقه الرّحمة، ويكون عدمُ التغيّرِ مُعذِّبًا فقط إن لم توجد ضمانةٌ بالإرادة الصّالحة. ما جمعه الله لا يفرّقه إنسان. شكرًا لله، نحن نعلم بيقينٍ أنّ نعمتَه وصلاحَه ورجاءَه ومحبّتَه تبطّنُ كلَّ تلك الخاصيّات. كيف نعلم؟ اتبعْ وجهَ المسيحِ إلى الصليب وسوف ترى ذلك.

نعودُ إذًا إلى الآية الافتتاحيّة في صلاة يهوشافاط الذي سألَ: «أمَا أنتَ هو الله في السماء؟» ودعونا عندما نقرأ في المرّة القادمة عن الله الذي في السماء، الذي اسمُه مقدّسٌ، نتذكّر أنّه هو أبونا القدّوس.

ذاكرةٌ مطلوبة

كان السؤال الثاني الذي سأله يهوشافاط في صلاته «ألستَ أنتَ (فعلتَ)...» (٢أخبار الأيام٢٠: ٧)، وعدَّدَ الأزمات الكثيرة التي أنقذَهم منها الله. لقد نظر إلى الماضي وعرِفَ أنّهم ما كانوا بلغوا مكانتهم الحاضرة لولا يدُ الله على حياتهم وعلى شعبهم. نرى في مناسباتٍ عديدة في كِلا العهدين القديم والجديد كيف قادهم الله خطوة خطوة. ففي بداية سفر التّثنية ذكّرَهم الله نفسُه بأمانته خلال أربعين سنة تيهانِهم في البريّة. وفي خطابه الوداعيّ للشعب في الأصحاح ٢٣ يسرُدُ يشوع ثانيةً محبةَ الله التي لا تنضب لهم. وفي أحد النّصوص الكلاسيكيّة في العهد القديم يصفُ الأصحاحُ التاسعُ من نحميا تدشينَ سور مدينة أورشليم المُعاد بناؤه حديثًا، وفيه تذكرةٌ مطوّلة للشعب عن قدرة الله الحافظة والمرشدة طوال سنوات السبي، وصولاً بهم إلى تلك النقطة في تاريخ أمّتهم، إذ سجِّلت لأجل منفعتنا. وفي العهد الجديد نجد النصّ الحاسم في الأصحاح السابع من سفرِ أعمال الرّسل حيث ذكّر استفانوسُ الحشود بكلِّ ما فعله الله لأجلهم، منذ دعوة ابراهيم، وطوال الطريق إلى الصليب.

coptic-books.blogspot.com

هذه الوقفة للتذكّر لا غنى عنها في ذاكرتنا التعبدية، إذ فقط بينما نتذكّرُ ونذكّرُ أنفسَنا بأمانة **الله**، نستطيع أن نرى الرسم الذي ينسُجُه **الله** في حياتنا ونتعلّم الثّقة بعمله. لأجل ذلك يطلب **الله** في مناسباتٍ متكرّرةٍ من الشعب أن يضعوا حجرًا أو علامةً لتُذكِّرَهم أن يخبِروا الجيل اللاحق بما فعل **الله**.

يروي إصدار آب ١٩٨٨ من ريدرز دايجست *Reader's Digest*، قصّة صبيٍّ عمره اثنتي عشرة سنة يعيش خارجَ مدينة ناپلس – فلوريدا Naples, Florida. كان بعد ظهر يومٍ يلعبُ في الغابة مع كلبه، وفجأةً مزّقت أسفلَ ساقه ضربةٌ خارقةٌ بحرارةٍ شديدة، فنظرَ للأسفل ورأى الرأسَ الضّخمَ للحيّة ذات الأجراس التي هاجمَته مخترقةً حذاءَه. وبعد بعض الوقت وجدَه أبوه مستلقيًا غائبًا عن الوعي في مطبخ منزلهم. وعندما أدرك الذي حصل، وضع الصبيّ في السيّارة وأسرع به عدّةَ أميالٍ إلى أقرب عيادة، لكن في الطريق تعطّلت السيارة ووقف الأبُ على الطريق السريع متوسّلاً لسائقي الآلات الزراعيّة أن يتوقّفوا. أخيرًا أوقفَ عاملُ مزرعةٍ هاييتيّ سيّارته، لكن حينها كان قد مضى وقتٌ طويلٌ والسمُّ في جسم الولد، وكانت كمّيتُه كبيرةً جدًّا بحيث أنّ الطبيب في العيادة قال أنّه لا يستطيع مساعدتَه، والأملُ الوحيدُ كان بأخذه إلى المستشفى. لكن حتى عندها ربّما يكون قد فات الأوان على الولد، فالمستشفى كانت بعيدة.

بطريقةٍ ما كان الولد لا يزال حيًّا عندما وصلوا به للمستشفى، لكن فقط ليخبرهم فريقُ الأطبّاء أنّه ليس لديه فرصة في النّجاة.

بعد عدّةِ أيّام، ولدهشة الجميع، فتح الولدُ عينيه. لكنّ الدّهشة الأكبر كانت بعد، إذ عندما أخبره الأطباء أنّه كان شابًّا محظوظًا إذ لم يسبق لهم أن رأوا أحدًا ينجو مع مقدارٍ كبيرٍ من السم فيه ولوقتٍ طويلٍ مثلَه، هزّ الولد رأسه وقال أنّه عرفَ طوال الوقت أنّ كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام. وأخبرهم أنّه عندما لسعته الأفعى حاول أن يتحرّر منها ولم

coptic-books.blogspot.com

يستطع، ونباحُ الكلبِ هو ما أبعَدَها أخيرًا. وتابع «لقد حاولتُ العودةَ إلى بيتي لكنّني بدأتُ أسقط، وعندها وقف بجانبي شخصٌ بلباسٍ أبيض، رفَعَني وحملني إلى البيت، وأخبرني أنني سأمرضُ لبعض الوقت، لكن عليّ ألّا أقلق فهو سيهتمّ بي وسأتعافى تمامًا ثانيةً.» وسادَ الصمتُ العائلة والدكتور.

ثمّ حاولَ الأبُ أن يقنعَ ابنَه بالعدول عن قصّته متذرّعًا: «نحن لسنا أناسًا متديّنين»، «نحن لا نذهب إلى الكنيسة.» لكن رغم محاولاته الجاهدة هزّ الولدُ رأسَه قائلاً إنّه يعرفُ تمامًا ما الذي حدث. وانتهت المقالةُ بالقول إنّه أيًّا يكن ما قاله أيُّ أحدٍ لإقناعه بتغيير قصّته «هناك شابٌّ صغيرٌ يترعرعُ في أمريكا يؤمنُ أنّه حُمِل بأذرع الله.»

من الهامّ جدًّا لهذا الولد أن يتذكّرَ هذا الاختبار خلال منعطفات وتقلّبات الحياة. معظمُنا لن يختبرَ معجزةً دراميّةً كهذه، لكنّ تداخلات الله في حياتنا دامغةٌ بشكلٍ مساوٍ. لذلك إنّ الدّعوة للمجيء إلى المسيح مميّزة جدًا، ومنَ الهامّ عندما تؤخذ تلك الخطوة، أن يُسجّل الوقت والمكان الذي تمّ به التعهّد. قد لا يكونُ من السهل بالنسبة للبعض ربطُ التفاصيل بلحظةٍ معيّنة، لكنّ حقيقة الخضوعِ للمسيح يجب أن تكون واضحةً في الذّاكرة، وعندها يمكنُنا أن نقول «ألست أنت...؟»

عندما زرنا سانت پيترسبورغ Saint Petersburg منذ بضعة سنوات رافقَنا شعورٌ حزينٌ. وقفنا بجانب بناءٍ كان كنيسةً سابقًا ويدعى الآن متحف العِلم والإلحاد، وهو المكان نفسه الذي أشرتُ إليه في مقدّمة الكتاب، حيث قبل ١٧٦ سنة سقطَ القيصرُ الروسيُّ على وجهه أمامَ الله متوسّلاً من أجل خلاص أمّته، لكنّه أصبح الآن مَعلمًا للإلحاد. هكذا هي تقلّباتُ العقل البشريّ.

coptic-books.blogspot.com

رجاءٌ واثقٌ

نأتي هنا إلى سؤال يهوشافاط الأخير: «أَمَا (سوف) تَقْضِي عَلَيْهِمْ، لأَنَّهُ لَيْسَ فِينَا قُوَّةٌ أَمَامَ هذَا الْجُمْهُورِ الْكَثِيرِ الآتِي عَلَيْنَا، وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ مَاذَا نَعْمَلُ وَلكِنْ نَحْوَكَ أَعْيُنُنَا» (٢ أخبار الأيام ٢٠: ١٢).

ثمّ يضيفُ كاتبُ أخبار الأيام هذا السطر: «وَكَانَ كُلُّ يَهُوذَا وَاقِفِينَ أَمَامَ الرَّبِّ مَعَ أَطْفَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَبَنِيهِمْ.» بدأت الصلاة مع يهوشافاط واقفًا أمام الرّب ثمّ نُخبَرُ كملحقٍ أنّ آلاف العائلات من قريبٍ وبعيدٍ وقفوا معه في هذه اللّحظة الاختباريّة من تاريخهم، عندما اعتقدوا أنّ الحربَ فوق استطاعتهم.

ماذا أعطاهم الرّب كجواب؟ قال: «لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَرْتَاعُوا بِسَبَبِ هذَا الْجُمْهُورِ الْكَثِيرِ، لأَنَّ الْحَرْبَ لَيْسَتْ لَكُمْ بَلْ لله» (آية ١٥). تقع هذه الآية في منتصف العهد القديم، وحسنًا هي كذلك، لأنّها تعطي التّأكيد أنّنا عندما نثق بالله هو يحارب عنّا، فالحربُ ليست لنا، هي له.

إنّ اللجوء إلى صلاةٍ كهذه أمرٌ حاسمٌ. أمَا أنتَ؟... ألستَ أنتَ؟... أمَا سوف؟ أولاً، وقبل كلّ شيء، إنّها تذكيرٌ لنا أنّ الله هو الذي كان والكائن وسيكون – الكائن الأبديّ. هو لا يتغيّر أبدًا، ونحن نأتي إليه كأولادٍ يأتون إلى أذرع والدهم المحبّ.

ثانيًا، إنّها تذكّرُنا أنّ الله هو أيضًا ربّ التاريخ. في كلّ مرّةٍ نضعُ عيونَنا على حجم الحرب سنتقاعس عن المأموريّة، وفي كلّ مرّة ننظر إليه نحصل على سلامٍ وتأكيدٍ أنّ الحربَ للرّب.

من السهل جدًّا أن نفقد شجاعتنا مع فشل وازدواجية السياسيّين وتجّار السلطة حول العالم. نحن نرى الملايين لا يزالون يعيشون تحت استبدادٍ وطغيانٍ تُجمَّلان بأسبابٍ عقائدية. نحن نشهد خطابةً ونثرًا في غاية القسوة ضدّ الأمور المقدّسة. نحن نضطربُ لتوجّهات الفنون،

coptic-books.blogspot.com

وعلى الأخصِّ الطريقة التي بها تَفَّهَ التلفزيون ما هو مقدّس ومَجّدَ ما هو دنس. أبطالُنا مهووسون بالشهرة والتملّق عوضًا عن الأمور ذات الشأن. الأممُ التي تحقّقت في الماضي أنَّ الله هو الله وأنّه يستحقُّ عبادتنا، تُعامِل الآن الدِّين كأثرٍ مُتبَقٍّ من تفكيرٍ بدائيٍّ. يبدو كأنّ جيشًا عظيمًا يُطبِقُ على الكنيسة.

أما يزالُ الله في السيطرة؟ الذي هو الكائن والذي كان وإلى الأبد سيكون الربّ السائد على الكون.

على مرِّ السنين، في كلِّ مرّةٍ رأيت هجماتٍ جديدةٍ على اسم المسيح، استقيتُ تعزيةً كبيرةً من مقالةٍ بقلم الكاتب الإنكليزي المشهور ف. و. بورهام F. W. Boreham، التي حسنًا جدًّا عُنونَت «الشمعة والعصفور» *The Candle and the Bird*[٩]. يعلّقُ فيها بورهام أنَّ حضورَ الله أشبهُ بعصفورٍ منه بشمعة. فالشمعةُ عندما تنطفئ يتوقّفُ النّور، أمّا العصفور عندما يُبعَد، فهو فقط يرحلُ ليغنّي أغنيتَه على غصنٍ آخر. وتابَع بورهام، وهو يفكّر بهذه الصّورة المَجازيّة، تحرّكات الله العظيمة على مدى التاريخ.

تأمّل، مثلاً، تأثير الطهوريين على عالمِهم، عندما كان هذا التأثير يتضاءلُ، تحسّرَ ميلتون Milton على إنكلترا التي تحتاجُ بشدّةٍ إلى قلب نهضةٍ روحيةٍ مرّةً ثانية. هل انطفأ النور؟ لا.

بعد ثماني سنواتٍ فقط من الوفاة المبكّرة لجوزيف أديسون Joseph Addison رجلِ الدّولة الإنكليزيّ المسيحيّ الجزيل الاحترام، كان حفنةٌ من الشبّان مجتمعين يصلّون في هيرنهوت – ألمانيا Herrnhut, Germany في صباح ١٣ آب ١٧٢٧، حين حدث أمرٌ بالغُ الأهمّية بقيادة الكونت زينزندورف Count Zinzendorf ذي السبعة والعشرين عامًا. وكلُّ ما يستطيع الناس تذكّره هو أنّهم بالكاد عرفوا إن كانوا لا يزالون في الأرض أم أنّهم فعليًا ذهبوا للسماء، وتلك كانت ولادة الحركة المواقيّة

coptic-books.blogspot.com

Moravian Movement. وهكذا بينما أقحَلَت إنكلترا من التأثير الإلهيّ نهض المورافيّون في ألمانيا، وأُرسِل منهم مرسَلون إلى أقاصي الأرض. لكن بعد ذلك بدأت المورافيّة تنحسر. هل انطفأ النور؟ لا. كان العصفور يغنّي على غصنٍ آخر.

لاحقًا في ذلك القرن وضعَ وليَم كاري William Carey قدمَه في الهند في نفس اليوم الذي حُرقَ فيه الصليبُ في فرنسا. فبينما عملَ ڤولتير Voltaire والفلاسفة العدائيّون عملَهم، وكانت أوروبا تهدّد بمجزرةٍ ضدّ الإنجيل، كان وليَم كاري، بإنجيلٍ في يدٍ والسجلّات السنَويّة للإرساليّات المورافيّة في اليد الأخرى، في طريقه ليلمسَ قلبَ الهند.

في لحظات احتضار الحركة المورافية، أُوقدَ قلبُ وسلي Wesley، لكن ومرّةً أخرى، بينما النّهضة الروحيّة الوسليّة تنقرض، هل انطفأ النور؟ لا. كان العصفور يغنّي على غصنٍ مختلف.

ملهَمين بالمُفكّر البيوريتانيّ شالمرز Chalmers، نهضَ قادةٌ أمثالُ و. سي. بيرنز W. C. Burns، الكسندر داف Alexander Duff، روبرت موراي ماكشين Robert Murray McCheyne، وأندرو Andrew وهوراتيوس بونار Horatius Bonar ليعملوا عملَ الله في اسكتلندا. وبينما رأت اسكتلندا أبطالَها يأفلون جَلجَلَ فجأةً صوتُ تشارلز هادون سپرجن Charles Haddon Spurgeon من لندن إلى آلافٍ في الوطن وخارجه.

لا، الضوء لم ينطفئ أبدًا، بل كعصفورٍ غنّى أغنيته على أغصانٍ مختلفة. أنا مقتنعٌ أنه رغم ما قد تبدو عليه الأمور من ظلمة، فهناك قطعٌ موسيقية تبدأ؛ دعونا لا ننظر للجانب المظلم.

...بينما الأمواج التّعبة تتكسّرُ عبثًا

ويبدو أن لا مجال هنا لكسب إنشٍ واحدٍ رغم الجهد

coptic-books.blogspot.com

في الخلفِ البعيد، بفعلِ الغدران والخلجان
يأتي بصمتٍ، فائضًا عرضُ البحر.

عندما يظهر ضوءُ النهار،
ليس فقط عبر النوافذ الشرقيّة يدخلُ النور،
ففي الأمام، تتسلّق الشمسُ ببطء، ما أبطأها،
لكن انظر، في الغرب، الأرض مُضيئة.[١٠]

إنّ العصفور يغنّي أغنيته، لكن ينبغي للّحن أن يغنّى أولاً في قلب كلٍّ منّا. يمكن للفيلسوف أن يناظر وللمتشكّك أن يسخر، ويمكن للتجربة أن تكون مُضَلِّلة، لكن كلمة الله تثبت إلى الأبد، وتلك الكلمة أشرقت على وجه ربّنا يسوع المسيح.

هناك حاجةٌ إلى اليقظة الدائمة، لأنّ جريانَ التاريخ سيتحوّل. وفي أيِّ مرّة نظنّ أننا نستطيع أن نغيِّر المجرى بالمساومة، نحن لا نخذلُ الله فقط، بل أنفسَنا أيضًا.

كانت صلاةُ يهوشافاط، بقدر ما هي صلاةٌ لله، تذكيرًا له أنّ الله يسمعنا في حاجتنا، وأنّه هو المسيطر على التاريخ. ونستطيع نحن أن نرتاح في اليقين أنّ المعركة ليست لنا، بل لله، أبينا القدوس، الذي كان والكائن والذي سيكون.[١١]

مَن أنت يا الله؟ أنت السائدُ، القدّوسُ، كلّيُّ العلم وغيرُ المتغيّر، أنت أبونا القدّوس نفسُه أمسًا واليوم وإلى الأبد، وقلوبُنا لن تهدأ حتى تجدَ راحتَها فيك.

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل الثاني

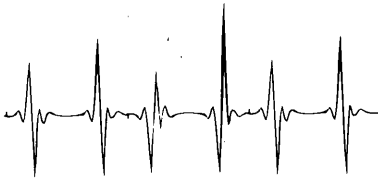

صرخةٌ لأشعرَ بإيماني

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

يبدأ الكتابُ الأخّاذُ «الذكاءُ العاطفيّ» *Emotional Intelligence* لدانيال غولمان Daniel Goleman، والذي حقّق أفضلَ المبيعات، بقصة تُدفِئ القلب وتُحزنُه في آنٍ معًا. إنّها قصّةُ اللّحظات الأخيرة لغاري Gary وماري جين شانس Mary Jean Chauncey، وهما يصارعان دوّامة النّهر حيث سقَطَ قطارُ «أمتراك» الذي كانا مسافرَين به. بكلِّ بقيّةِ طاقة لديهما جاهد كلاهما بيأسٍ لإنقاذ حياة ابنتهما أندريا Andrea ذات الأحد عشر ربيعًا، وأندريا مصابةٌ بشللٍ مخّيٍّ ومقيّدةٌ بكرسيٍّ متحرّك. بطريقةٍ ما، تدبَّرا دفعَها إلى أذرعِ المنقذين الممدودة، لكن وللأسف، هما هلكا.[1]

عليَّ أن أعترف أنّي كنتُ مرتابًا حيالَ محاولة الكاتب شرح هكذا بطولةٍ من قِبلِ والدَي أندريا، بأنّنا نحنُ البشر نتصرّفُ بهذه الطريقة بمقتضى التّصميم التطوريّ لأجل بقاء ذريّتنا، (يُضغطُ واحدُنا بشدّة كي لا يسألَ لماذا، إن كانت فقط الغرائزُ التناسليةُ الحافظةُ للنّوع هي وراء هذا التصرّف، يقومُ الأكثرُ صحّةً بحفظ الأضعف وليس أنفسهم؟ لكن لا بُدَّ لي أن أقاوم، إذ حتى غولمان نفسُه لم يستطع أن يُفلت من لا منطقيّة تصريفِ هذا الفعل بتعابير داروِنيّة Darwinistic). ثم مضى ليضيف أنّه «وحدها المحبّة» يمكنُها أن تشرحَ مجهودًا قد يكلّفُ الشخصَ حياتَه.

ويصارعُ باقي الكتاب، كما يُستدلّ من العنوانُ، مع موضوع المشاعر الإنسانيّة موضحًا بقوّة أنَّ الحصّة الشعوريّة في كلّ واحدٍ منّا قد تكونُ دليلاً أصدقَ على ذكائه منَ المقوّم الذكائيِّ الشائع، وأنَّ في مشاعرنا مخزنٌ من الدوافعِ وراءَ ردودنا العفويّة.

coptic-books.blogspot.com

نحنُ نقولُ «لا تقفز إلى الالتزامات»، لأنّنا نعرفُ كم نحنُ عرضةٌ لعمَى لحظيٍّ مرتكزٍ على ردود فعلٍ فوريّة، أو نقولُ أمورًا مثلَ «نَم عليها قبلَ أن تقولَ شيئًا»، والمقصودُ هنا أيضًا أنّه إن جُعِلَ الفكرُ يؤثّرُ في شعورنا الحاليّ، فقد يختلفُ ما سنقولُه أو نفعلُه. جميعُنا نعرفُ أنّ هذا صحيح.

إن كان من الهام جدًا أن نأخذَ بعين الاعتبار مشاعرَنا المتعلّقة بعافيتنا الجسديّة، فكم بالحري أهمُّ أن تُعلَمَ هذه المشاعر عند الصّراع مع القرب أو البعد عن الله، فالمشاعرُ حول شأنٍ كهذا تصبحُ مُحدّدةً للحياة. المطلبُ هنا واضحٌ، ينبغي أن نعرفَ ما هو حقيقيّ، بحيث ترتكزُ مشاعرُنا على ما هو صحيح.

كنتُ مرّةً في برنامجٍ إذاعيٍّ أتعاملُ مع موضوعٍ مختلفٍ تمامًا، عندما – ونحو نهاية البرنامج – اتّصلَت امرأةٌ لتقول: «جرّبتُ كلَّ شيءٍ لكنّني لا أشعرُ بالله.» وبعد بضعة أيام استلمتُ رسالةً من امرأةٍ شابّةٍ قالت أنّها كانت في سيّارتها تصغي للبرنامج عندما عبَّرَت السائلةُ عن هذا الصّراع الكبير في قلبها. قالت: «كنت متشوّقةً جدًّا لأسمع جوابك لها بحيث أنّني ركنتُ سيّارتي إلى جانب الطريق بأملٍ مستميتٍ لأسمعَ شيئًا يمكنُ أن يساعدَني أنا أيضًا، وأنهَت رسالتَها بملاحظةٍ حزينةٍ عن خيبة أملها في ما رجَته. لقد أجمَلَت في سطورٍ قليلةٍ تعقيدَ المسألة وسذاجَة اعتقادها بأنّه يمكننا في جواب دقيقتين أو ثلاثة أن نتعاملَ مع قضيّةٍ مُربكةٍ كهذه.

قضيّةٌ قديمةٌ بمنعطفاتٍ جديدةٍ

إنّ هذا التحرّقَ لمعرفة ماهيّة المشاعر، ولماذا نتوقُ لسَوق الدعم لما نشعر، ولماذا نشعرُ ما نشعرُ به، شغَلَ مجلّداتٍ من الأوراق وساعاتٍ من التأمّل، وشكّلَ بطريقةٍ غريبةٍ موضوعًا للهجاء، التراجيديا، والكوميديا.

coptic-books.blogspot.com

في إعلانٍ تلفزيونيٍّ حديثٍ يلعبُ رجلُ مبيعاتٍ دورَ عالمٍ نفسيٍّ ويسألُ «مريضه» شاغلِ الأريكة أن يفضفض عن أفكاره حول خسارة مرطّبهِ المفضّل. ومع كلِّ جُملة أكّدَت الإحساسَ العميق بالخسارة لدى الضّحية المسكين، ردَّ عليه المعالج: «وكيف شعَرتَ حيالَ ذلك؟»، قُصدَ بالدّعابة أن تستغلَّ الانشغالَ الكلّيَّ بالمشاعر في بعض أساليب المعالجة، لكنّ التهكّمَ واضحٌ هنا.

نحن لا نستطيعُ تجاهلَ مشاعرنا، فمن أدنى إعلان مرطّباتٍ إلى أقصى عبقريّة تكنولوجيّة، كثيرًا ما يُطرحُ، في مجلّات علم النّفس. بل مؤخّرًا حتى في العِلم والتكنولوجيا، السؤالُ عن المشاعر الإنسانية والفرق الذي تصنعه.

لقد أُثيرَ الرّابطُ التكنولوجيّ عندما فاز الكومپيوتر Deep Blue (١,٤ طنّ IBM) على بطل العالم في الشطرنج غاري كاسپاروف Gary Kasparov. فمنَ المُذهل فعلاً ملاحظةُ أنَّ أفضل المحلّلين في زمننا يحاولون الآنَ أن يبيّنوا ما هو الفرق حقًّا بين الكومپيوتر والكائن البشري، وفي كلِّ ما قرأتُه حتى الآن، لم يستطع أحد أن يتجاوز كلمة مشاعر أو روح أو الله. يبدو أنّه من المستحيل تجاوز هذه الكلمات، لأنّ هذا ما يشكّلُ جوهر الطموح البشريّ. لاحظ مثلاً كلماتِ دايڤ غيليرتنير David Gelertner – أستاذ علم الكومپيوتر في جامعة ييل Yale – معلّقًا على فوزِ Deep Blue؛ انتبه بشكل خاصّ إلى الإشارة المستمرّة للعواطف والمشاعر على أنّها بشريّة بشكلٍ مميّزٍ جدًا.

> «إنّها فكرةٌ عبثيّةٌ أن يكون لـ Deep Blue عقلٌ، إذ كيف يمكن لجسمٍ لا يريدُ شيئًا، لا يخافُ شيئًا، لا يستمتعُ بشيءٍ، لا يحتاجُ إلى شيءٍ، ولا يهتمُّ لشيءٍ أن يملك عقلاً؟ يمكنُه أن يفوز في الشطرنج، لكن ليس لأنه يريدُ ذلك، فهو لا يفرح عندما يفوز ولا يحزن عندما يخسر. ما هي مخطّطاته لما بعد المباراة إذا هزَمَ كاسپاروف؟ أهناك فكرة أن يؤخذ

coptic-books.blogspot.com

Deep Pink لقضاء أمسيةٍ في المدينة؟ إنه لا يأبه بالشطرنج أو بأيِّ شيءٍ آخر، بل يلعبُ اللّعبة لنفس السبب الذي لأجله تقومُ آلةٌ حاسبةٌ بالجمع، وآلةُ تحميصٍ بتحميصِ الخبز، أي أنّه آلةٌ مصمَّمةٌ لأجل ذلك الغرض.

وأيًّا كان مدهشًا ما تُنجزه هذه الآلةُ من أعمالٍ بطوليّة، فهي في الدّاخل ستكون دائمًا ذات الصفر المطلق. لا يستطيعُ كومپيوتر أن يحقّقَ فكرًا مصطنعًا دون تحقيق شعورٍ مصطنعٍ أيضًا.»

ثمّ أنهى مقالتَه بهذه الكلمات:

«أشكُّ أن يُوجدَ، على المدى البعيد، أيّ نوعٍ من التصرّف البشريّ يستحيلُ على الكومپيوترات أن تتصنّعه أو أيّ نوعٍ من الأداء لا يمكنها أن تتشبّه به. من الممكن التصوّر أن تكون الكومپيوترات يومًا ما أفضل من البشر في كلّ شيءٍ تقريبًا. ويمكنني أن أتخيّل أن يتّخذ الشخصُ من الكومپيوتر صديقًا مفضّلاً يومًا ما – وذلك سيكون مُحزنًا مثل اتّخاذ الكلب كصديقٍ مفضّلٍ، بل وحتّى أكثر حزنًا... لكنّ الفجوة بين الإنسان وبديله باقيةٌ ولن تُسَدّ أبدًا. ستستمرُّ الآلاتُ بجَعل الحياة أسهل، أفضل، أغنى وأكثر إذهالاً، وفي نهاية المطاف سيستمرُّ البشرُ بالاهتمام بنفس الأمور كما دائمًا: بأنفسهم، ببعضهم الآخر، والكثير منهم بالله.»[٢]

يا لها من مقدرة فريدة وضعها الله في داخلنا: المقدرة بأن نشعر. مَن منّا يرغبُ بمقايضة هذا الامتياز؟ مع ذلك إنّ تلك المشاعر نفسها تتركنا وحيدين في بعض تجارب الحياة الأكثر صعوبةً، وإحدى صرخات قلوبنا هي كيف نُسخّر هذه الملَكة الفريدة على أفضل نحوٍ، ونحمي تلك

coptic-books.blogspot.com

العطيّة من أن يُساء استخدامُها، لأنّ كلَّ مقدراتنا الشعوريّة تشيرُ إلى ما هو أبعد من الشعور. يقدّم الكاتب سكوت پيك Scott Peck تبصّرًا قيّمًا في كيفيّة تفاعل الجسم عندما يُجرح، وسأستعيرُ من تشبيهه لأوضح أنَّ لمشاعرنا أيضًا مؤشّراتٍ مُشابهةً. عندما يُجرح أيُّ جزءٍ من الجسم أو يُقطعُ بأداةٍ حادّةٍ يستجيبُ الجسم فورًا بعدّة طرق، فيحدث أولاً تمدّدٌ في الشعيرات الدّموية جوارَ مكان الأذيّة أو الخمج؛ هذا التمدّد، الناتج عن ازدياد الجريان الدموي، هو ما يسبّبُ احمرار المنطقة أو «التهابَها». كما أنّ توسّع الأوعية يزيد المساميّة، فيسمح بذلك لكريات الدم البيضاء بالتسلّل من خلال المسام لتذهب في مهمّة «بحثٍ وتدمير»، فهي حرفيًا تبتلع الخلايا الميّتة، والحطام، والجراثيم ثم تعود إلى الأوعية الدموية بعد إنجاز عملها. ليس هذا فقط ما يهيّئ له التوسّع، وإنّما كاملُ التورّم يجعلُ النهايات العصبيّة أكثر حساسيّةً ممّا يسبّب ألمًا في المنطقة ينبّهُ إلى حمايتها من أذيّةٍ أو مفاقمةٍ إضافيّة. كلّ هذا الشعور المتولّد في الجسم هو لخيرِه وصحّته.

ألَمَ يعمل الله عملاً باهرًا في جسم الإنسان ليحفظنا أصحّاء؟ أممكنٌ أن يفعل ما هو أقلّ في بنيتنا الشعوريّة بأن لا يعطينا علاماتٍ مُحذّرةً ومقدراتٍ شافيةً لأجل مشاعرنا أيضًا؟

ينبغي أن نكون شاكرين لله على الحماية والحساسيّة التي بناها داخلنا لتقي وتشفي، بحيث يمكننا أن نشعر ما هو صالح وما هو مدمّر.

مع هذه المقارنة كنقطة بداية، دعونا نرى ماذا تخبرُنا مشاعرُنا عن الحقيقة، وماذا تخبرُنا الحقيقةُ عن مشاعرنا. إنّ امتيازنا بأن نشعر ومسؤوليّتنا تجاه الشعور هي مؤشّرات عمّن نحن كبشرٍ ومن نحن كأفراد.

coptic-books.blogspot.com

نظرة خارجية

سنأخذ خطوتين قبل أن نصلَ إلى إجابات الله على هذا الموضوع الهامّ. ولا غنى عن هاتين الخطوتين كتمهيدٍ لنجد معونته على الصّراعات المحسوسة للقلب البشري.

نبدأ أولاً بإلقاء نظرةٍ خارجيةٍ وتمييز أنّه رغم اختلافنا واحدنا عن الآخر، نتشاركُ بعض المشاعر التي يُعبَّر عنها حول العالم.

كنتُ مرّةً أنتظرُ طائرتي، وبدا أنّ شاشات أخبار التلفزيون كانت محطّ الأنظار لدى كلّ بوابة انطلاق. وعندما جلستُ تساءلتُ ما تراها القصّة التي استقطبت مثل ذلك الانتباه الكلّي.

كانت الشاشاتُ تعرضُ محاكمةَ تيموثي ماكڤي Timothy McVeigh، وتعرض المشاهدَ المروّعَة لتفجير مبنى ألفرد ب. مورا الفيدرالي Alfred P. Murrah Federal في أوكلاهوما Oklahoma City، الجريمة التي اتّهمَ بها ماكڤي ولاحقًا أُدين. كان صديقُه على منصّة الشهود يجيب على الأسئلة الموجّهة إليه من قِبَل المدّعي العام، وهذا ما أبقى الكثيرين في انتباهٍ مستغرق.

سأل المدّعي: «ماذا قال عندما قلتَ له أنّه سيموتُ أطفالٌ أبرياءٌ في هذا التفجير المدبَّر للبناء؟» وانتظر كلُّ المشاهدين الجواب بأنفاسٍ محتبسةٍ، وكان الردّ بفحوى أنّ ماكڤي عبّرَ أنَّ الأطفال ليسوا أبرياءَ: «الجميع مذنبون بانتمائهم إلى هذه الحكومة الشرّيرة، وهم يحصلون على ما يستحقّون.»

ولم يكن ممكنًا إغفال ردّ الفعل في تلك اللحظة، فكلّ رجل وامرأة جالسين هناك هزّوا رؤوسهم باستنكار. ما الذي أثارَ ردَّ الفعل الشامل ذلك؟ ألم يكن تعبيرًا صامتًا عن الذّهول في ألاّ يملكَ إنسانٌ ما أيَّ وخزة ضميرٍ بينما ينسّقُ رعبًا كهذا يُوجّه حتى لأطفالٍ أبرياء؟ أهو إنسانٌ أم

coptic-books.blogspot.com

آلة؟ كيف يمكن اعتبارُه بشرًا مع هكذا نقصٍ في المشاعر؟ لا بدَّ أنّ هذا كان خوفهم غير المعلَن.

في قصّةٍ أحدث عهدًا، اعتذرَت مليسّا دركسلر Melissa Drexler ذات الثمانية عشرَ عامًا من وسط رقصةٍ في الحفلة الراقصة لمدرستها، وعادت بعد بضع دقائق وسألت الفرقة أن تعزف أغنيةً تحبّها، دون أن يدري أحدٌ في تلك القاعة أنّها ذهبت إلى الحمّام، لتلدَ طفلَها، وعلى ما يبدو وضعته في كيسٍ نايلون في القمامة خانقةً إيّاه حتى الموت. إنّها بالحقيقة قصّة محزنة. يصفُ الأخصائيّون النفسيّون تلك الشابة بأنّها امرأة بترَت مشاعرها عن الواقع، ويقولون أنّه بالنسبة لها كلُّ ما يعنيها هو أنّها أفرغت جسمًا غريبًا من جسدها، وكان المجتمع على اتّساعه مبهوتًا بفظاعة ذلك التصرّف عديم الضمير.

في أعقاب هذا الحادث كانت المقالة الأبرز في مجلة *People* تتكلّم عن كثرة الجرائم الوحشيّة على أيدي صغار السنّ، وكان السؤال على الغلاف: ما الخلل الذي أصابَ ضمير الإنسان، بحيث يفعلُ دونَ شعورٍ أفعالاً حاقدةً جدًّا؟

لكن ليس فقط ما هو شاذٌّ يجانسُ مشاعرَنا، فنحنُ نراقب برضًى جماعيّ عندما تُذرَفُ الدموعُ في مسعًى نبيلٍ. إنّ كيري سترَنغ Kerri Strug التي، برِجلٍ واحدة لتحملَ ثقلَ هبوطها المؤلم، وثبَت بشجاعة في أولمپياد ١٩٩٦ من أجل شرف وهدف مساعدة فريقها ليفوز بميداليةٍ لأجل بلدها، حازَت على الاستحسان العاطفيّ لعالَمٍ يشاهد، وكانت الدموعُ عصيّةً على الكبت.

باختصار، عندما نلقي نظرة خارجية على العالم، فإنّ مشاعرَنا جزءٌ حيويّ من صُنع الله لنا.

coptic-books.blogspot.com

نظرةٌ إلى الداخل

بعد أن ألقينا نظرةً على عالم المشاعر حولنا، نأخذ الآن لمحةً عن عالم المشاعر داخلنا. إنّ الحكمة السقراطية «اعرف نفسك» هي مشورة جيّدة.

في مناسباتٍ عدّة طلبَ يسوع من شخصٍ ما كان يتحاور معه أن ينظر إلى داخله ويبحث عن سبب مشاعره. عندما غضب يونان لأنّ شعب نينوى تاب سأله الله: «هل اغتظتَ بالصواب؟» من الواضح أنّ في داخل يونان ما حرّض ثورته أمام الله، وعندما لم يُجِب في المرّة الأولى كرّرَ الله سؤاله «هل اغتظت بالصواب؟»

عندما عاد الابن الضالّ إلى بيت أبيه، ثارَ الأخُ الأكبر من الاحتفال المُسرف الذي أعدّه أبوه، وتساءل الأب عن سبب مشاعره القاسية وغيرته البادية، في حين أنّ المناسبة تستحقّ هذا الاحتفال. أيضًا معظمنا يعرف النصّ في سفر ملوك الأوّل ١٩ الذي يصف اللحظة الأدنى في حياة إيليا، كان منهَكًا عاطفيًا من المعركة الكلامية الطويلة بينه وبين إيزابل. أتى الله إلى إيليا في قنوطه وقال له: «ماذا تفعل هنا؟» أو كما نقول بلغتنا الاصطلاحية: «ما الذي أوصلك إلى هذه النقطة؟» أو كما يقول الإيرلندي مُحقًّا وبالعامّية «أهذا أنت نفسك؟»

من الهامّ جدًّا أن نكون صادقين مع أنفسنا في محاولة شرح إحساسنا الخاصّ بقرب أو بُعد الله.

دعني أقدّم أربعة أسئلة ستساعد بشكل كبير في فهمٍ أفضل لذواتنا. أولاً، من المهمّ أن نسأل أنفسَنا ما الزّخارف العاطفيّة التي جلبناها إلى علاقتنا بالله. أكانت هناك مشكلةُ غضبٍ غير مُبَرّر قبل أن نعرف الله؟ هل هناك معركةٌ مع خوفٍ تفشّى في حياتنا؟ هل سيطرت علينا روحُ السلبيّة والانتقاد قبل لحظة تعهّدنا له؟ هل عشنا مع موقفٍ مندفعٍ وغير صبورٍ،

coptic-books.blogspot.com

نريد كلَّ شيءٍ في اللحظة التي نريده بها؟ هل قسَونا على أنفسنا ونخرَنا الذّنب في حال واجهَنا الفشل؟ أكان هناك تقلّبٌ في مزاجنا؟

كان أحدُ أعظم كُتّاب الترانيم على مرّ الزمن، وليام كوپر William Cowper، شخصًا تعرّض لتقلّبات المشاعرِ، فالذي كتبَ: «الله يتحرّكُ بطريقةٍ غامضة» هو الرجل نفسه الذي كتب:

أين البركة التي عرفتُها

حينَ أولاً رأيت الرب؟

أين الرؤية المنعشة للنفس

ليسوع وكلمته؟

أية ساعات هادئة استمتعت بها يومًا

لا تزال ذكراها حلوة جدًّا

لكنّها تَركَت فراغًا مؤلمًا

لا يستطيع العالم ملأه[٣]

وقعَ الفيلسوفُ الدّانمركي سورين كيركغارد Søren Kierkegaard في شرَكِ الكآبة زمنًا طويلاً من حياته. وكان النبيّ إيليّا معروفًا بتشاؤمه، لذلك لم يكن مفاجئًا أن يصبح مكتئبًا إلى درجة تمنّي الموت حين وقع في نزاعٍ مع إيزابل الشريرة.

لا أحدَ في العهد الجديد يمثّلُ شخصيّة قطار مدينة الملاهي Roller-coaster أفضلَ من الرسول بطرس. فمن تحدّي إعلان يسوع أنّ قسوة الصليب تنتظره، إلى قطع أذن عبد رئيس الكهنة، تقاذفَت بطرسَ أمواجُ المشاعر. خطوَتُه الجريئةُ في الماء بإيماءةٍ من سيّده وصرختُه المليئة بالذّعرِ عندما رأى حجمَ الأمواج تصلُحُ وصفًا مناسبًا لتبدّل مزاجه، وفي

coptic-books.blogspot.com

سياق شخصيّته هذه كان أول مَن أنكر الرّب، ومع ذلك أول مَن ركض إلى القبر عندما جاءت النسوة برسالةِ أنّ يسوع قد قام.

كم هو مهمٌ أن نفهمَ التركيبة التي يملكها كلّ واحدٍ منّا، لأننا غالبًا ما نحملُ الضّعفات نفسها إلى علاقتنا مع الله، ونتساءل لماذا لم يتغيّر مزاجُنا. نحن بالصواب نسأل: ألم يعِدنا المسيح بأن يجعلَ كلَّ الأشياء جديدةً؟

في الحقيقة لقد وعد الله بأن يغيّرنا إلى كائناتٍ جديدة لكنّنا غالبًا ما فشلنا في التعامل مع كيفيّة حدوث ذلك، وهو ما سنتكلّم عنه قبل إنهاء هذه الدراسة. لكن علينا أن ندرك أنّ مزاجَنا عنصرٌ حيويٌّ ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار، كما من الهامّ أن نذكر أنّ هناك فرقًا بين فشلٍ مؤقّتٍ وبين نمط حياةٍ مغموسٍ بضعفاتٍ كهذه.

ثانيًا، يجب أن نسأل ما الأحكام المسبقة وعدم الأمان التي أتينا بها إلى علاقتنا مع المسيح. بدا هذا الصراع عينُه في دواخل التلاميذ إذ حصلت بينهم مجادلة كبيرة عمّن منهم سيكون الأعظم في الملكوت.

أعرفُ رياضيًّا أولمبيًّا حلم بالفوز بالميدالية الذهبية، وتبيّن أنّ الحلم كان في متناول اليد. مع ذلك أخبرني أنّه قبل ثوانٍ تمامًا من إطلاق بندقيّة النهائيات «جاءت إلى ذهني فكرةٌ من العدم، تساءلتُ إن كان أبي يشاهد، لأنّه أخبرَني منذ سنواتٍ أنّ حياتي لن تساوي شيئًا.» كما هو واضحٌ إنّ الفكرة لم تأتِ من العدم، بل أتَت من ندبة روحٍ مجروحة.

كم هي عميقةٌ السماتُ التي نحملُها معنا خلال الحياة.

يُنفَق الكثيرُ من الكرب على مذبح قبول الذّات عندما نشعر بالرّفض أو عندما نقارن أنفسَنا بالآخرين. كثيرون يجلبون معهم شعورًا بعدم الأمان إلى علاقتهم مع الله ولا يعرفون كيف يكسرون أسرَه. يشلُّ الأسى المكتومُ الكثيرين منّا لأننا نخفقُ في رؤية الفروقات التي صنَعَنا عليها

coptic-books.blogspot.com

الله. نحن نسمح لأنفسنا أن نغضبَ من جَذَل أحدهم المستمرِّ ونتمنّى أن نحرمَه من تلك الخصوصيّة، بينما في الحقيقة إنّ الله شكّلَ كلَّ واحدٍ منّا بشخصيّة مختلفة. من ناحيةٍ أخرى أنا أنزعج تمامًا بنفس القدر من الشخص الذي، وهو يركَبُ أبدًا أعلى موجَة انشراحه العاطفيّ، يخفقُ في تمييز الطبع الأكثر تحفّظًا لشخصٍ آخر. إحدى أكثر لحظات الحياة تحريرًا هي عندما نتمكّن من قبول ذواتنا كما صنعَنا الله ونتحرّر من أصفاد محاولتنا أن نكونَ شخصًا آخر لم يُقصَد لنا أن نكونه أبدًا، حينئذٍ نحلّقُ لنكون الشخصيّةَ الفريدةَ التي أعطاها الله لكلٍّ منّا.

ثالثًا، يجب أن نسألَ ماذا جلبنا من عدم انضباطٍ إلى علاقتنا مع الله. فهذا على الأغلب هو لبّ معظم ما يتركنا قلقين وغير واثقين، حيث أنّ المسافةَ التي نشعرُ بها ليست بالأكثر أنّ الله بعيدٌ جدًّا عنّا، بقدر ما هي أنّنا نحن بعيدون جدًا عن حيث بإمكاننا أن نكون، فعدمُ الانضباط يولّد استسلامًا للأقلّ وانهزامًا أمام الفرصة.

إحدى أكثر الحقائق إيلامًا التي وجدتُها في ترحالي حول العالم هي المعدّل الوبائيّ لعدم الانضباط، ويبدو أنّنا، سواءً في دراساتنا أو في عاداتنا، نجدُ دائمًا مستوى المقاومة الأدنى ثمّ نلومُ الله عندما نفشل في التزامنا بالمجيء إليه حسب شروطه. إن أعوزَنا الانضباط في الدّراسة، كيف نتوقّع أن ننجح خلف المنبر؟ إن أعوزتنا الحكمة في الإنفاق، لماذا نُدهَش من المشقّة الماليّة المستمرّة؟ إن أعوزنا الالتزامُ بتدريب أولادنا على اللياقات المَرعيّة، لماذا نُدهَش إن ألفيناهم فظّين ومتغطرسين؟ إن فشلنا في تمرين الثّقة في الأوقات الصعبة، لماذا نتوقّع مكافأةَ الإيمان؟

يخبرنا غولمان Goleman عن امتحانٍ قُدّمَ في الستّينيّات إلى أطفال مدرسةٍ تحضيريّة بعمر أربع سنواتٍ في حرم جامعة ستانفورد Stanford University، وشملَ الامتحانُ بشكلٍ رئيسيٍّ أطفال أعضاء الهيئة التدريسية. أُعطيَت لكلّ ولدٍ قطعةٌ من المارشميلو Marshmallow (حلوى

coptic-books.blogspot.com

اسفنجية) وطُلبَ منهم ألاّ يأكلوها إلّا بعد انقضاء خمسَ عشرَ أو عشرين ثانية وسيُعطَون كمكافأة قطعةً أخرى إذا انتظروا. ثم تمّت مراقبتهم دون علم منهم؛ البعضُ قرعَ رأسه لاستجماع الصّمود، آخرون فعلوا كلّ ما يمكنهم لإلهاء أنفسهم، البعض ابتلعوها دون لحظة تفكيرٍ، والبعض انتظروا بصبرٍ.

بعد ثلاثين عامًا دُرسَت نفسُ مجموعة الأطفال لكن حينها كبالغين، وأظهرَت النتائجُ المذهلة فروقاتٍ دراماتيكية بين الذين امتلكوا ضبط النفس لينتظروا والذين لم يمتلكوا قوّة الإرادة. ظهرت الفروقات عمليًّا في كلِّ نواحي حياتهم وإنجازاتهم.[٤]

أخيرًا، وربّما الأكثر أهمّيةً في فحص الذّات، ينبغي أن نسأل ما الأفكار المغلوطة عن **الله** التي جلبناها إلى علاقتنا معه. لقد اعتقد يونان أنّ على **الله** أن يدمّر كليًّا الوثنيين الذين عاشوا بانحرافٍ شديد. لكن عندما تاب أهل نينوى عرف أنّ رحمة **الله** ستسود، وتمنّى يونان لو كان **الله** مختلفًا عمّن هو، فيدينُ النّاس بالطريقة التي كان يونان سيدينُهم بها.

يقدّمُ أوز غينّيس Os Guinness تحذيرًا واعيًا لأولئك الذين يأتون إلى **الله** ومشاعرُهم على أشدِّها ومعرفتُهم على أدناها:

> يولّد التعليمُ الخاطئُ نظرةً عن الإيمان غير كتابيةٍ، ضعيفةً، وغير فعّالة في مجابهة الشكوك التي تأتي من مصدرٍ شعوريٍّ. والمعركة هنا خاسرةٌ قبل أن تبدأ، فحيث أنّ الإدراك لم يكن مسيطرًا وقت الإيمان، لذا ليس هو المسيطر في زمن الشكّ. كانت المشاعر هي كلّ شيء حين وُجِدَ الإيمان، والآن بوجود الشكّ لا تزالُ هي كلّ شيء، والفرق فقط أنّها غيّرت جهتها. لكن إن كانت المشاعر هي فعلاً كلّ ما يهمّ، فعندها لا الإيمان ولا الشكّ لهما أيّة علاقة بالحقيقة، وإنّما هما ببساطةٍ الأسماء التي نُطلِقُها على مزاجَيهما المتغيّرَين.[٥]

coptic-books.blogspot.com

من الواضح أنّ غينّيس قد لمسَ عصَبَ المشاعر الحسّاس، وأتى في اعتقادي بالعزاء الأكثر إراحةً، إذ حالما نفهم أنّ المشاعر حيويّةٌ لكن ليست أساسيّة، عندها نتلذّذ بسرمديّة حقٍّ الله ونستطيع تحمّل آنيّة الشعور بالبُعد. لكن إن عكسنا هذا التسلسل جاعلين مشاعرنا أساسيّةً، يكون عندها الدنوّ والبعدُ مجرّد وصفٍ لأمزجتِنا من الممكن أنّه لا يقول شيئًا مطلقًا عن عالم الواقع.

هنا كما أعتقد، قَصُرت وسائلُنا الإيضاحيّة على مرِّ السنين بينما حاولنا عبثًا أن نستوعب غموض الشخصيّة البشريّة. فكّرنا في الماضي بالحياة كقطارٍ يقومُ فيه محرّكُ المنطق بجرِّ مقصورة المشاعر، ولا يبدو لي أنّ هذا يطابق الواقع تمامًا. لقد أخفقَت كلّ التشبيهات، لكنّ بعضها يعبِّر عن ماهيّة الأمر بشكلٍ أفضل بعض الشيء. أنا أرى أنّ المشاعر أكثر ما تكون كشخصٍ يمشي جانبك دائمًا ممسوكًا بقبضة معرفتك، إن عكَسَ ذلك الشخصُ القبضة وأصبح هو ممسكًا بمعرفتك، تبدأ المشاكل. لا أعتقد أنّ هذا التشبيه بعيدٌ عمّا يريدُنا الله أن نفهمه، والآن سأدعمُ ذلك بينما نلتمسُ إجابات الله.

سدّ الثَّغرة

بيَّنّا فيما سبق أنّ المشاعر ليست فريدةً بالنسبة لنا كأفراد، فهناك أرضيّة مشتركة نتشاركها مع بعضنا الآخر، لكن في الوقت نفسه إنّ كلَّ واحدٍ منّا يجلبُ شخصيّةً مختلفةً إلى مسيرته مع المسيح.

كيف يمكننا أن نمزج معرفة الحقيقة مع نسبةٍ ملائمةٍ من المشاعر، بحيث نقودُ نحن مشاعرنا بدل أن تقودنا هي؟ دعوني أوضح هذا، مع امتنانٍ عميقٍ لله، بتجربةٍ مرّت فيها عائلتنا وتعلّمنا منها جميعنا درسًا نتمنى ألاّ ننساه.

coptic-books.blogspot.com

أودّ من خلال هذه التجربة أن أشكّل جسرًا يساعدنا على عبور الهوّة بين هشاشيّتنا وسلام الله الذي يفوق كلّ عقل.

منذ ثلاث سنوات، رنّ جرس هاتفنا حوالى الساعة الواحدة والنّصف صباحًا، كانت باربرا، أخت زوجتي تتّصلُ مرعوبةً من أن يكون مكروهٌ ما قد أصاب زوجَها. كان زوجُها مدرّب طيران، وكان في رحلةٍ فوق جبالِ كولورادو Colorado مع تلميذَين يدرّبهما على طيران الجبال. لكن بدا أن خطأً رهيبًا قد حدث إذ أنّ كلّ نقاط المراقبة الأرضيّة على طول طريقه فقدَت الاتصال معه. وقد دام ذلك الصّمت خمسَ عشرة ساعة، لم يُسمع منه شيءٌ على الإطلاق وأظهرَ مخططُ الرحلة الذي سبق، فدوّنَه أنّه متأخّر جدًّا على موعد هبوطه، ولاحت أمامنا أرهب المآسي.

كيف تتجاوب مع أخبارٍ كهذه في أيّ وقت، ناهيك في منتصف الليل حيث تُعاقُ فِرَقُ البحثِ، والعالمُ حولك نائم؟ كان باستطاعتنا أن نفعل الشيء الوحيد الذي نعرف أن نفعله في وقتٍ كهذا ألا وهو أن نصلّي، ومرّت ساعاتٍ عدّة دون أيّ خبر.

أُبلغَت باربرا صباحًا أنّه تمَّ التقاطُ إشارةٍ من طائرةٍ يبدو أنّها سقطت في وادٍ بين الجبال على مسار رحلة زوجها، تلك كانت بالفعل طائرةُ غوردون Gordon.

وقصّةُ الإنقاذ لم تكن أقلّ من معجزة. كان الرجالُ الثلاثة أحياءً عندما وُجدوا، لكن مُكسّرين بشدّة وقريبين من الموت. لقد وقعوا في مشكلة منذ ساعات، فبينما كانوا ينعطفون ليخرجوا من وادٍ مسدود أُمسكوا بتيّارٍ هوائيٍّ نازل، وهبطوا فاقدين السيطرة ليتحطّموا بين الأشجار على شفيرِ جرفٍ. وعندها بدأت ساعاتُ الصّمت. كان الكابوسُ بالنسبة لباربرا هو العيش عبر نفقٍ من الزمن غير معروفٍ متألّمةً من إمكانية الأسوأ، تلوحُ لها أسئلةٌ عن خسارة حبِّ حياتِها وتنشئةِ ولدٍ صغير بمفردها.

coptic-books.blogspot.com

أما بالنسبة لغوردون، فبينما جلس وحيدًا بجسدٍ محطّم مسحوق، كان تحدّيه الأكبر أن يبقى حيًّا، إنّما ما بطّن كسورَه لم يكن الحزن من إمكانيّة الموت، بل الأُمنية الملحّة بأن يستطيع إخبارَ زوجته أنّه يحبّها وأنّه سينجو.

الشعوران المختبران المتعاكسان تمامًا: أحدهما مولودٌ من الانتظار مع جهل الحقيقة، والآخر مجروحٌ أكثر من أن يشعر فعلاً بألمه، لكن متنبّهٌ كليًّا لما يتوق إليه.

كان هناك حلٌ واحدٌ لوضع حياة باربرا وغوردون ومشاعرِهما يدًا بيدٍ مرّةً ثانية: شخصٌ يستطيع أن يقدّم لباربرا المعرفةَ بأنّ غوردون حيّ ويتمّ إنقاذه، وشخصٌ يستطيع أن يضمّد جروح غوردون ويصحّح جسده، بحيث يملكُ ثانيةً القدرةَ على الشعور بشكلٍ متناسبٍ مع ما يعرفُه ويتوقُ إليه.

هكذا هو التركيبُ الذي وضعَه المبدعُ العظيمُ داخل قلوبنا وعقولنا، الرغبةُ في أن نعرف، والإثارةُ في أن نشعر، وهذا التركيبُ لا يمكنُ لكومپيوترٍ أن يتوق إليه، ولا أن يوبَّخَ كومپيوترٌ لافتقاره إليه.

كيف مكّننا الله أن نصِلَ إلى مزيجٍ مثاليٍّ كهذا؟ هذا ما سنحوّل انتباهَنا إليه الآن.

نظرةٌ إلى الأعلى

لطالما وجدتُه أمرًا آسرًا أنّه من بين كلِّ الأوصاف التي يمكن أن يعرّف بها الله عن نفسه عند الإشارة إلى طبيعته الأبديّة اختارَ مجازًا لغويًّا.

لا بدَّ أنّ هناك إمكانيّات عديدة أخرى كالمحبّة أو القداسة، فلماذا استخدام المجاز اللغوي؟ ألعلّ الأمر الوحيد الذي به يستطيع حقيقةً أن

coptic-books.blogspot.com

يتواصل معنا، عدا عن شخصه، هو كلمته؟ إنّ الحياة لا توصَف بدون الكلمات، فحتّى أفضلُ المشاعر تتوسّلُ تعبيرًا لفظيًّا، لهذا يلجأ الموسيقيّ ليس فقط إلى اللّحنِ بل أيضًا إلى رومانسيّة اللّغة ليخلقَ تناغمًا.

يختلفُ التأويلُ في أصول المعاني بين العبريّة واليونانيّة عند الحديث عن الكلمة، لكن ما يبرز بوضوحٍ هو مفاهيمُ التّواصل والمنطق.

عندما يبدأ يوحنّا إنجيله بالكلمات «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ **الله**، وَكَانَ الْكَلِمَةُ **الله**»، فهو دون شكٍّ ردّدَ صدى الكلمات الأولى في سفر التكوين «فِي الْبَدْءِ، **الله**...» وباكرًا جدًّا في تكوين ١: ٣ نقرأ أيضًا: «وَقَالَ **اللهُ**...»، فمنذ البدء تمامًا كشف **الله** عن نفسه أنّه إلهٌ يتكلّم، إلهٌ يتواصل، إلهُ منطقٍ، إلهُ حكمةٍ، إلهٌ يكشفُ عن أفكاره.

إنّ عطيّة وامتياز اللغة خاصّان بالبشر. يمكنُ الوصولُ بعالم الحيوان إلى مستوًى معيّنٍ من فهم التصرّفات والعلاقات، لكنّ الحيوانات مختلفةٌ كليًّا في النوع. فبالإمكان تدريبُ قردٍ ليرقصَ على الموسيقى، لكنّه لن يستطيع أبدًا أن يتعلّم ما يلزمُ المرء ليكون باخ Bach أو هاندل Handel. اللغةُ والمنطقُ هي المَلَكات الخاصّة بالبشرية، ذروة خليقة **الله**. وعندما نتوقّف عن فهم دور اللغة نسيءُ استخدام ذلك الامتياز، وقد نغيّرُ شكل الحقيقة بمجرّد تغيير استخدامنا للكلمات. وكلّ ما نحتاجُ أن نفعلَه اليوم لنرى التوجّه العنيدَ الخاطئ لثقافتنا، هو أن نرى ماذا فعلنا بالكلمات. فكلمات مثل الحرّية، المحبّة، المتعة، والزّواج، كلُّها فقدَت معانيها.

«فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ.» **الله** تكلّم. اللغةُ يجبُ أن تعكسَ الحقيقة.

نحن نبدأ منذ لحظة استيقاظنا بالتكلّم إلى أنفسنا، ويصبح الدماغُ ميدانًا للفكر يقطرُ طاقةً وعاطفة. مع هذا كمفتاحِ دعونا نأخذ مفهوم الحديث واللّغة لنجدَ جوابًا عن مكان الشعور.

coptic-books.blogspot.com

لغةُ الله

عالمين أنّ أبانا السماوي تكلّم إلينا، واجبٌ علينا أن نفهم ماذا لديه ليقوله لنا عن مشاعر الفرح والحزن لدينا.

أول ما نلاحظه هو أنّ الله يصفُ نفسَه كإلهٍ يشعر، هذا الغموض الكليّ السموّ، والذي لا يمكننا فهمُه بالكامل، مكرّرٌ مرّةً ومرّاتٍ في كلمته.

في أول شاهدٍ نصادفُ فيه أقوى المشاعر المنسوبة إلى الله، نقرأ الكلمات التالية: «فَحَزِنَ الرَّبُّ... وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ» (تكوين ٦: ٦). تبدو شدّة كهذه في المشاعر وكأنها تأنيسٌ لله، أليس كذلك؟ ينبغي أن نكون حذرين جدًّا جدًّا ألّا نأخذ التعابير بحدودها البشريّة وتضميناتها بالمحدوديّة. لكن سنكون مخطئين بنفس القدر إن اعتبرنا هذه الكلمات صرفَ مجازيّة دون شعورٍ حقيقيٍّ وراءها. نحن مُعَدُّون لكي نحزن للشرّ ونفرح للخير، لكنّنا قد تعلّمنا أن نعتقد أنَّ الله بعيدٌ جدًّا، بحيث ليس في مشاعره أيّ شبهٍ بمشاعرنا. عندما يخبرنا الكتاب المقدّس أنّه: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ» يمضي ليقول: «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا» (يوحنا ١: ١٤). عندما نثقُ بشخصٍ نقول بإمكاننا أن نأخذ هذا الشخص حسب كلمته، وهنا في إنجيل يوحنا نرى أنّ كلمةَ الله وكيانَه متطابقان. إنّ ابن الله المتجسّد شَعَر، بكى، ضحك، وأملَ، وفي البدء كان إلهٌ يفكّرُ ويشعر.

كنت مرّةً في محادثةٍ مع دينيس كينلو Dennis Kinlaw، رئيس كلّية أسبوري Asbury College سابقًا، بعد فترة قصيرة من صيرورته جَدًّا. أخبرني أنّه عندما حمل حفيده الصغير بين ذراعيه للمرّة الأولى، تساءل بينما فاضت عيناه بالدموع: «هل هناك أيّ أحدٍ يشعر نحوي بالطريقة التي أشعر بها نحو هذا الصغير؟» وكان الجواب مدوِّيًا: «نعم، بل وحتى أكثر – إنّه الله نفسُه.»

coptic-books.blogspot.com

لكن هنا يأتي الدرس الأول البالغ الصعوبة. فرغم كون المشاعر إلهيّةً في مصدرها، يجب أن نتعلّم كيف نضعَها في المنظور الصحيح ونحمي أنفسَنا من تمجيد المشاعر على أنّها الإثبات الدّامغ للحقيقة.

إنّ الله يشعرُ مع معرفةٍ كاملة، ومشاعرُه هي في مجاراةٍ مع ما هو حقّ، وهو لا يتصرّف لأنّه يشعر بقدر ما يتصرّف لأنّه يعلم.

لا شيءَ مهمٌّ لطبيعة كلمة بقدر أهمّية الحقيقة، والحقيقةُ هي خاصّيةُ المقترحات وليس المشاعر. فالمشاعرُ لا توصفُ أبدًا بصحيحةٍ أو خاطئة. يمكنُ للمشاعر أن تكون مبرّرةً أو غير مبرّرة، مفهومةً أو غير مفهومة، إنّما ليس صحيحةً أو خاطئةً. هنا حيث نعلَقُ غالبًا، فنتوقُ للمشاعر بينما في الحقيقة يمكن لهذه المشاعر أن تكون القوّة الأكثر إغواءً لإبعادنا عن الحقيقة. تعلّم الرسول بطرس هذا بالطريقة الصعبة إذ تنعّم بالشعور المجيد لمشاهدة ما لم يحظَ به أحدٌ سواه مع يوحنا ويعقوب. أنا أشير إلى تجلّي ربّنا. لا بدّ أنّ تهيّبَ ما رأوه وما اختبروه كان بديعًا ولا يعبَّر عنه.

أبيض بياضٍ يمكن للعين أن تتحمّله.
أنقى نعيمٍ يمكن للذّهن أن يتخيّله.
أعظم تجلٍّ يمكن لشخصٍ أن يصفه.

الشخصيات الأكثر تبجيلاً التي يمكن لأحدهم أن يرغب برؤيتها – موسى وإيليا.

أقصى نشوةٍ للرّوح يمكن للقلب أن يتوقَ إليها.
أنبلُ صوتٍ يمكن للأذن أن ترغب به عندما أتى صوت من السماء: «هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا.»

مع كلّ هذا نجد بطرس في سياق كلامه عن هذا الاختبار يقول ما قاله عن تفوّق الكلمة:

coptic-books.blogspot.com

«لأَنَّنَا لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً، إِذْ عَرَّفْنَاكُمْ بِقُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَجِيئِهِ، بَلْ قَدْ كُنَّا مُعَايِنِينَ عَظَمَتَهُ. لأَنَّهُ أَخَذَ مِنَ اللهِ الآبِ كَرَامَةً وَمَجْدًا، إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ صَوْتٌ كَهذَا مِنَ الْمَجْدِ الأَسْنَى: هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي أَنَا سُرِرْتُ بِهِ. وَنَحْنُ سَمِعْنَا هذَا الصَّوْتَ مُقْبِلاً مِنَ السَّمَاءِ، إِذْ كُنَّا مَعَهُ فِي الْجَبَلِ الْمُقَدَّسِ. وَعِنْدَنَا الْكَلِمَةُ النَّبَوِيَّةُ، وَهِيَ أَثْبَتُ، الَّتِي تَفْعَلُونَ حَسَنًا إِنِ انْتَبَهْتُمْ إِلَيْهَا، كَمَا إِلَى سِرَاجٍ مُنِيرٍ فِي مَوْضِعٍ مُظْلِمٍ، إِلَى أَنْ يَنْفَجِرَ النَّهَارُ، وَيَطْلُعَ كَوْكَبُ الصُّبْحِ فِي قُلُوبِكُمْ، عَالِمِينَ هذَا أَوَّلاً: أَنَّ كُلَّ نُبُوَّةِ الْكِتَابِ لَيْسَتْ مِنْ تَفْسِيرٍ خَاصٍّ. لأَنَّهُ لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (٢بطرس ١: ١٦-٢١).

لاحظ أين يكمنُ يقينُه «وعندنا الكلمة النبويّة وهي أثبَت.»

كان بإمكان بطرس أن يحصر ثقتَه بامتيازِ في التألّق المؤقّت للتجلّي، وهو بالفعل سأل يسوع إن كان بالإمكان أن يبنوا لهم مظالاً هناك ولا ينزلوا عن الجبل أبدًا. أمَا هكذا أيضًا إغراءُ قلوبنا؟ لماذا لا يستمرّ شعورُنا بالبهجة؟ لماذا علينا أن ننشغل في معركةٍ لأجل النّجاة في الوادي؟ بعدما يكون الله قريبًا جدًّا، لماذا يبتعد وتطغى الرّتابة؟

كرجلٍ أكبر سنًّا وأكثر حكمةً، رأى بطرس الاختبار ثانويًّا بالنسبة إلى يقين كلمة الله والتي قال عنها يسوع: «اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ» (متّى ٢٤: ٣٥).

إذًا، عالمين أنّ كلمتَه ثابتةٌ وأبديةٌ وهو واضعُها شخصيًّا، دعونا ندرّب مشيئاتنا وعقولنا لتسمع منه كلّ يوم، إذ لا يوجد تعبيرٌ للإرادة أعظم من اختيار سماع كلمة الله بشكلٍ منتظم.

coptic-books.blogspot.com

قال كاتب المزمور: «إِلَيْكَ أُبَكِّر» (المزمور ٦٣: ١)، «اخْتَبِرْنِي يَا اللهُ... وَاعْرِفْ أَفْكَارِي» (المزمور ١٣٩: ٢٣). وقال صموئيل لله: «تَكَلَّمْ يَا رَبُّ لأَنَّ عَبْدَكَ سَامِعٌ» (١صموئيل ٣: ٩)، وصرخ إليه بولس عند توبته: «مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟» (أعمال ٩: ٦).

إنّ حياتنا مستغرقةٌ جدًّا في الكلام بحيث أننا قليلاً ما نصغي. إنّ إنفاقَ الكلمات دون مدخولٍ من الحقيقة يؤدّي إلى إفلاسٍ روحي.

من الآسر فعلاً أن نرى كيف استجاب الله هذه الصلوات. أُخبِرَ بولس بخدمةٍ سوف تأخذه أمام ملوك وحكّام، كما حُذِّر أنه سيتألّم كثيرًا لخاطر المسيح. وأمام رسالةٍ كهذه يمكن شرعًا أن يُسأل بولس: «وكيف جعلك ذلك تشعر؟» نحن نعلم جيدًا ماذا قال بولس نحو انتهاء حياته: «لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ» (فيلبّي ٣: ١٠). من الواضح أنّ ما قاد بولس ليس الشعور، وإنّما معرفةُ المسيح. أمّا بالنسبة لصموئيل فكانت الرسالة أمرًا كسر قلبه، فقد تلقّى رسالة دينونةٍ لسلَفِه ومعلّمه، عالي.

للإصغاء كلفةٌ، لكن له الجائزة الأعظم على الإطلاق، مشيئة الله.

وبينما نحن مسترخين بأسباب الراحة وبالفكرة الخاطئة أنّ خدمة الله أمرٌ سهلٌ ومبهج، نتساءلُ لماذا الله بعيدٌ عنّا، بينما في الحقيقة ربّما نحن الذين تركنا قربَه. لقد أصبحنا معتادين جدًا على سماع الوعّاظ والمبشّرين، مع أهمّية ذلك، بحيث تخلّى الكثيرون، في السياق، عن الامتياز العظيم في السماع شخصيًّا من كلمة الله يوميًّا.

ما يستطيع الرب فعلّه

أحبُّ أن أرى يومًا سلسلةً من الكتب تصفُ النصوص الكتابية التي غيّرت التاريخ، والتي أمثلتُها وافرة. فمثلاً يعرف الكثيرون عن حياة

coptic-books.blogspot.com

جون ويسلي John Wesley الورعة والفعّالة؛ يُقالُ إنّه وعظ أكثر من أربعين ألف عظة في حياته، وكان كاتبًا خصيبًا، كتبَ مجلّدات ملأت آلاف الصفحات. ارتحل حوالى ربع مليون ميل، كانت نسبةٌ كبيرةٌ منها على ظهر حصانه، وفي ثمانينياته كان لا يزال يعظُ مرّتين في اليوم. وفي مدخل يوميّاته في عمر السادسة والثمانين كتَبَ: «إنّ الكسل يتسلّل ببطء، وهناك مَيلٌ متزايد للبقاء في الفراش بعد الخامسة والنّصف صباحًا.»

يا لها من حياةٍ مذهلة عيشت بشكل استثنائي جدًا. أين بدأ كلُّ هذا؟ بدأ في خدمة بسيطة كان الواعظ فيها يقرأ من تمهيد شرح لرسالة رومية بقلم مارتن لوثر Martin Luther. مَن كان ليحلم في ذلك الوقت أنّ تاريخ إنكلترا سيتغيّر شكلُه بواعظٍ شابٍّ دَفِئ قلبُه بشكلٍ عجيبٍ بفعل نار كلمة الله؟

إنّ مارتن لوثر، الذي غيَّر مجرى تاريخ أوروبا، إن لم يكن تاريخ العالم، تغيّرَ هو نفسُه بلا رجوع وأُسِرَ عقلُه بالآية الصغيرة البسيطة من سفر حبقوق «الْبَارُّ بِالإِيمَانِ يَحْيَا» (٢: ٤).

تتردّد هذه الآية نفسُها ثلاث مرّات في العهد الجديد، كتبها بولس إلى أكبر الكنائس الأوروبيّة – روما، وخطَّها ثانيةً إلى أكبر الكنائس الآسيويّة – غلاطية، ونجدها أيضًا في الرسالة إلى المهتدين اليهود – الرسالة إلى العبرانيين. إذًا وُجّهَت هذه الآية إلى العقل الأوروبيّ، العقل الآسيويّ، العقل العبرانيّ، وفي كلّ مرّة يُكرّر أمرٌ ما إلى هذه الدرجة وهذا الاتّساع يمكننا أن نثقَ أنّ عالمًا من الحقيقة يكمُن فيه.

لقد وقع لوثر تحت تأثير هذه الكلمات في المناسبات المتميّزة الثلاث. وأتت اللحظة الأخيرة لتصفية حساباته بينما كان حَرفيًّا يزحفُ على ركبتيه صاعدًا درجَ لاتيران Lateran في روما، رازحًا تحت عبء التماسِ الصّفح عن إثمه. وفجأةً باغَتَه معنى الآية بقوّةٍ مغيّرةٍ للحياة

coptic-books.blogspot.com

«الْبَارُّ بِالإِيمَانِ يَحْيَا»، وأعطاه هذا الإعلانُ الشجاعة ليقف أمام السلطات في زمنه ويصمد أمام تهديداتهم، وكان موضع ثقته واضحًا فيما وقف أمام اتهاماتِهم، فقال: «هنا أقف.»

في هذا السياق، قليلةٌ هي القصص المؤثّرة مثل قصّة الروائيّ الروسيّ الشهير فيودور دوستويڤسكي Fyodor Dostoevsky. عندما توفّي في شباط ١٨٨١، قالت ابنته أنّ آخر شيء طلبه منها كان أن تقرأ له في الكتاب المقدَّس، وطلب تحديدًا قصّة الابن الضال. فهذه القصّة هي التي غيّرت حياتَه في فترة عشر سنوات سجنه في سيبيريا Siberia. إنّها القصّة التي تظهر بشكلٍ ما في معظم كتبه – اهتداء المنبوذ. لذا، ليس عجيبًا أن يتحدّى أربعون ألف شابًا العوامل الجوّية ليتبعوا نعشَه في موكبٍ بينما حُمِلَ في شوارع سانت پيترسبورغ Saint Petersburg في أكبر جنازة في روسيا حتى ذلك الوقت، وأن يتحسّر ليو تولستوي Leo Tolstoy على إحدى أعظم شخصيّات التاريخ. لقد تحوّلت حياتُه بالكلمة.

اصغِ بينما يتكلّم الله، فمن أعماق الحقِّ سوف يروّضُ عواطفَك. كان وسلي، لوثر، ودوستويڤسكي رجالاً قادتهم عاطفةٌ شديدة، كانوا رجالاً شعروا بالقضايا بعمقٍ واحتاجوا، أكثر من أي شيء آخر، أن يسمعوا من الله ليقودهم في الحقّ.

وحسنًا جدًّا يقول كاتبُ الترنيمة :

يا ربّ، لقد أغلقتُ الباب،
تكلّم الآن الكلمة
التي في الصّخب والازدحام
لا يمكن أن تُسمع؛
وإذ قلبي داخلي الآن مُسَكَّت،
اهمس بمشيئتك،

coptic-books.blogspot.com

بينما أنا منفرد،
بينما كلّ شيء هادئ.

يا ربّ، لقد أغلقتُ الباب،
قوِّ قلبي؛
هنالك عمل ينتظر – أنا أشارك بجزء.
فقط بالنعمة المعطاة
بإمكاني أن أكون أمينًا؛
هنا بينما أنا وحدي معك،
تتجدّد قوّتي.[٦]

لغةُ الذات

مثلما تتكلّم إلينا كلمة **الله**، لا بدّ من وجود كلمةٍ نكلّم بها أنفسنا أيضًا. وبقدر ما يبدو هذا غريبًا، فإنّه ارتباطٌ حيويٌّ لقهر جذب المشاعر. يصوغ أوزوالد تشامبرز Oswald Chambers ذلك ببعض القسوة في كتابه الكلاسيكي «أقصى ما عندي لمجده» *My Utmost for His Highest*:

> «هناك أمورٌ معيّنة لا ينبغي أن نصلّي لأجلها – كالأمزجة مثلاً. فالمزاج لا يبرحُ بالصّلاة بل بالرّكل. يستقرّ المزاجُ دائمًا تقريبًا في الحالة البدنيّة وليس الأخلاقيّة، ولا بدَّ من مجهودٍ مستمرٍّ كيلا نصغي إلى المزاج عندما ينشأ من حالة بدنيّة، ولئلا نخضع له حتى ولو لثانية واحدة، علينا بأخذ أنفسنا من قفا العنق وهزّها، وسوف نجد أنّنا نستطيع أن نفعل ما قلنا أنّنا لا نستطيعه، وما ينقم حياةَ معظمنا هو أنّنا لا نفعل ذلك. إنّ الحياة المسيحية هي حياةُ شجاعةٍ روحيّة مجسّمة.»[٧]

coptic-books.blogspot.com

ويمضي تشامبرز ليضيف:

«ما لم ندرّب مشاعرَنا فسوف تسيطر علينا كلِّيًّا، ونصبح أسرى كلِّ تفاعلٍ أو دافعٍ عابر. لكن حالما يُدرَّب الإيمانُ ليسيطر على المشاعر ويعرف كيف يضغط بحزم على ضعفات الشخصيّة، يُغلَقُ مدخلٌ للشكِّ بإحكامٍ إلىَ الأبد. معظم إحباطنا كمسيحيّين لا يتأتّى بسبب الخطيّة، وإنّما بسبب جهلنا بنواميس طبيعتنا.»

اسمع كيف يعبّر مارتن لويد جونز Martin Lloyd Jones عن هذا. للوهلة الأولى سوف نقاوم ما يقوله ونتساءل إن لم يكن مجرّد إيحاءٍ ذاتيّ، ولربّما كان قريبًا من ذلك بشكلٍ خطير لو لم يكن مدعومًا بما يعلّمه الكتاب في زيٍّ مشابه.

يقول لويد جونز:

«الإبداعُ الرئيسيُّ في موضوع العيش الروحيّ هو أن تعرف كيف تتعامل مع نفسك. يجب أن تأخذ نفسك باليد، يجب أن تخاطب نفسك وتعظ نفسك. جوهرُ هذه المسألة هو أن نفهم أنّ هذه النّفس خاصّتَنا، هذا الإنسان الآخر داخلنا يجب أن يُساس. لا تصغِ إليه، قاومه، تكلّم إليه، دِنه، وبّخه، عظه، شجّعه، ذكّره بما تعرفه عوض أن تسمع له بهدوء وتسمحَ له بأن يجرّك للأسفل ويحبطك.»[٨]

أيبدو هذا غريبًا بل وإلى حدٍّ ما فصاميًا؟ ألم يمارس الرسول بولس نفس هذا التدريب؟ «إِذًا، أَنَا أَرْكُضُ هكَذَا كَأَنَّهُ لَيْسَ عَنْ غَيْرِ يَقِينٍ. هكَذَا أُضَارِبُ كَأَنِّي لاَ أَضْرِبُ الْهَوَاءَ. بَلْ أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ (أَجعلُه يعرف سيّده)» (١كورنثوس ٩: ٢٦ و٢٧)، وفي المزمور ٤٢: ٥ يسأل داود، «لِمَاذَا أَنْتِ مُنْحَنِيَةٌ يَا نَفْسِي؟» وفي المزمور ١١٦: ٧ يقول، «ارْجِعِي يَا نَفْسِي إِلَى رَاحَتِكِ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكِ.»

coptic-books.blogspot.com

إن كانت وصيّةُ الرسول بولس بأن نُكلّم بعضُنا بعضًا بمزامير وتسابيح وأغاني روحيّة هي للتشجيع والحثّ، فبالتأكيد يجب أن يُطبَّق ذات الأمر على ذواتنا، فوَضعُ لحنٍ في قلوبنا للربّ يشكّلُ كلمةَ تشجيعٍ لذواتنا.

لغة الطاعة

هناك مصدرٌ ثالثٌ للتّواصل، وهو لغة الطاعة، التي تبني وتشدّد الإيمان. جميعنا نعلم أنّ إيماننا يُنتج أعمالاً، لكنّنا غالبًا ما ننسى أنّ العكس أيضًا صحيح. أحدُ الفروقات الأساسيّة بين طريقة التّفكير اليونانيّة وطريقة التّفكير العبرانيّة كان أنّه بالنسبة لليونانيين الحقيقةُ تأتي بواسطة المنطق، وبالنسبة للعبرانيين الحقيقةُ تأتي بواسطة الطاعة. نرى هذا مرّاتٍ عدّة في الكتاب المقدّس. فموسى، وحزقيال، وهوشع، ويونان لم يشعروا بالرّغبة لفعل ما طلبه **الله** منهم، بل في الواقع كانت كلّ نبضة قلبٍ فيهم تحضّهم لفعل أمرٍ آخر. ومع ذلك قال **الله** أنّ عليهم أن يطيعوا. لم يكن العلاج بأن يفعلوا إرادة **الله** لأنّهم شعروا بالرّغبة في فعلها، بل أن يفعلوها فيتقوّى إيمانُهم.

يُرى الإيضاح الكلاسيكيّ لهذا المبدأ في المقابلة بين **الله** وموسى، عندما طلب موسى إثباتًا على أنّ **الله** بالحقيقة دعاه، قال **الله**: «إِنِّي أَكُونُ مَعَكَ، وَهذِهِ تَكُونُ لَكَ الْعَلاَمَةُ أَنِّي أَرْسَلْتُكَ: حِينَمَا تُخْرِجُ الشعب مِنْ مِصْرَ، تَعْبُدُونَ **اللهَ** عَلَى هذَا الْجَبَلِ» (خروج ٣: ١٢). كان الإثباتُ على دعوة **الله** بعد الطاعة وليس قبلَها.

ربّما تكون لغةُ الطاعة هذه اللغة الأصعب بين كلِّ اللّغات التي نتكلّمها. إنّها لغةٌ تتعالى عن مشاعرنا لكن تنطق مجلداتٍ من الإيمان.

من بين كلِّ المفاجآت التي تنتظر الإنسان في العلاقة الزوجيّة، هذه اللّغة التي هي إحدى أكبرها وأصعبها للقبول والاتباع. هنا أقدّمُ المديح لزوجتي بطريقةٍ من الصّعب أن تُقدّم بعدلٍ كامل، لكنّ أيّ شخصٍ في

coptic-books.blogspot.com

الوضع ذاته سيعرفُ عمّا أتكلّم. ينشأ بيننا أحيانًا اختلافٌ يعودُ للكبرياء أو لمجرّد إرادة متشبّثة لا تريد أن تبدو ضعيفةً فتقفُ في طريق تصحيح الأمور. وكلّ ما يمكنني قوله أنّه حتى بينما صارعتُ أنا في تلك الأوقات، راقبتُها تسمو ورأيتُ انتصار محبّتها يهزمُ نزعتي المظلمة والضيّقة الأفق. إنّها لا تخشى أبدًا أن تمدَّ يدَ المبادرة وأن تقاوم فخّ العناد البشع. هكذا هي الدّروس المجيدة عن الإيمان نفسه. نحن نفعل، نطيع، نسلّم ونخضع لله، حتى حينما يريد ميلُنا الطبيعي أن يجرّنا بالاتّجاه المعاكس.

ألم يكن هذا هو انتصار الإيمان في حياة شدرخ، وميشخ، وعبدنغو؟ ثبَتوا تحت التّهديد بالموت ووثقوا أنّ الله سينجّيهم «وحتّى إن لم يفعل» قالوا: «فَلْيَكُنْ مَعْلُومًا لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَنَّنَا لاَ نَعْبُدُ آلِهَتَكَ وَلاَ نَسْجُدُ لِتِمْثَالِ الذَّهَبِ الَّذِي نَصَبْتَهُ» (دانيال٣ :١٨).

أعتقدُ أنّ مجتمعَنا العالميّ قد فقَدَ قدرته على الشعور بالله، لأنه فقَدَ قدرته على طاعة الله.

لغة الأصدقاء

رابعًا، هناك لغةٌ تأتينا من خلال الأصدقاء. إحدى عطايا الله الثمينة في الحياة هي عطيّة الصّداقة. تأتي هذه العطيّة كنعمة من الله لأنّي رأيتها باديةً حتى لدى متلقّين غير مستحقّين. لقد سافرتُ على مرّ السنين وجلستُ إلى وجبات مع أناس حول العالم، وقد حملتُ معي هذه العطيّة الجميلة. لديّ ذكريات غنيّة جدًّا في كلّ قارّة، لصديق ما، في وقت ما، شاركني عطيّة حُسن الضيافة. عندما تكون المشاعر كئيبةً ويبدو الطريق موحشًا، وحدُه الصديق يتحمّلنا.

إحدى اللحظات الأكثر جديّة في تاريخ الشعب القديم كانت عندما خان أبشالوم أباه داود وسعى للإطاحة به، لكنّ الجزء الأقتم في هذا الفصل كان أنَّ المشورة التي كمَنَت وراء المشهد جاءت من

coptic-books.blogspot.com

أخيتوفل الذي كان يومًا صديقَ داود المؤتمن. لقد لبثت هذه المأساة طويلاً في قلب داود ولا بدّ أن ألمَها راوده مرارًا. ويشير داود لذلك في المزمور الخامس والخمسين: «لأَنَّهُ لَيْسَ عَدُوٌّ يُعَيِّرُنِي فَأَحْتَمِلَ. لَيْسَ مُبْغِضِي تَعَظَّمَ عَلَيَّ فَأَخْتَبِئَ مِنْهُ. بَلْ أَنْتَ إِنْسَانٌ عَدِيلِي، إِلْفِي وَصَدِيقِي، الَّذِي مَعَهُ كَانَتْ تَحْلُو لَنَا الْعِشْرَةُ. إِلَى بَيْتِ اللهِ كُنَّا نَذْهَبُ فِي الْجُمْهُورِ» (المزمور ٥٥ :١٢– ١٤). ويذكر ذلك ثانيةً في المزمور الواحد والأربعين: «أَيْضًا رَجُلُ سَلاَمَتِي، الَّذِي وَثِقْتُ بِهِ، آكِلُ خُبْزِي، رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ!» (٤١: ٩).

عندما كنتُ طالبًا في الكليّة، وضعَ حفنةٌ منّا عهدًا مع بعضنا البعض بأن نصلّي لأحدنا الآخر بشكل منتظم، وعبر السنين باعدَت طرقُنا المسافات بيننا. كان أحد هؤلاء الأصدقاء، كوز فيتجي Koos Fietje، شابًّا ذا شجاعة استثنائية، وكان قد ذهب مُرسَلاً إلى التايلاند Thailand مع إحدى الإرساليات التي تُدعى «Overseas Missionary Fellowship». وفي عام ١٩٧١ كنت مارًّا بمدينة بانكوك Bangkok في طريقي لأتكلّم في كمبوديا Cambodia، ومع أنّني رغبتُ كثيرًا في رؤية كوز، لم أشأ أن أثقّل عليه بالطلب منه أن يسافر إلى بانكوك من داخل البلاد. وبطبيعة الحال كنت سأُمضي ليلة واحدة فقط هناك، وهكذا لم أتّصل به مسبقًا. لكن حين حملتُ حقائبي من عرض الأمتعة في المطار وعبرتُ الباب الزجاجي، مَن كان واقفًا هناك سوى كوز؟ مدَّ يده وأمسك يدي وقال: «فكّرتَ بأن تفوتني، أليس كذلك؟» إلى هذا اليوم، لا أستطيع تذكّر كيف عرف بمروري بالمدينة.

أمضينا ليلةً كاملة في غرفة الفندق نتحدّث عن كيف كان الله يقودنا في حياتنا وعن دعوته لنا لنكون أمناء، وحثّني لأبقى على الدّرب. لكنّي علمتُ أنّ كوز كان بالحقيقة مشغول البال، وبينما افترقنا كرّر ما كان قد ذكره بضعة مرات أنّه قد يدفع حياتَه ثمنًا لجرأته في الشهادة للمسيح. لم أرَ كوز ثانيةً، فبعدَ سنواتٍ قليلة وبينما كان خارجًا من اجتماع

coptic-books.blogspot.com

صلاةٍ في المدينة التي يخدم فيها، أرداه أحدهم قتيلاً برميه بالرّصاص بتصويبٍ مباشر.

أعطاني الله امتياز صديق تقيّ، ولطالما حثّني استشهادُ كوز في مرّات كثيرة عندما صارعتُ مع المشاعر والمتاعب التي ترافق حياة التجوّل. يمكن للصّديق خلال الحياة أو بالموت أن يساعد على الانتصار على كثيرٍ من المشاعر الخاطئة والتافهة.

قال بولس في رسالته إلى أهل فيلبّي: «كَمَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَفْتَكِرَ هذَا مِنْ جِهَةِ جَمِيعِكُمْ، لأَنِّي حَافِظُكُمْ فِي قَلْبِي، فِي وُثُقِي، وَفِي الْمُحَامَاةِ عَنِ الإِنْجِيلِ وَتَثْبِيتِهِ، أَنْتُمُ الَّذِينَ جَمِيعُكُمْ شُرَكَائِي فِي النِّعْمَةِ. فَإِنَّ الله شَاهِدٌ لِي كَيْفَ أَشْتَاقُ إِلَى جَمِيعِكُمْ فِي أَحْشَاءِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (١: ٧ و٨). هذه شهادةٌ عن صداقة شعب الله لخادم المسيح في سجنه.

لغة الكنيسة

نأتي أخيرًا إلى مكانة الكنيسة في رعاية شعبها ودعم المحتاجين. ينبغي للكنيسة أن تكون مكانًا للشفاء الداخلي واستعادة النفس التائهة، وهنا الحاجة إلى حبّ المسيح وحكمة الحياة المنضبطة لأجل التّعليم والإرشاد. عندما يتعثّر أحدهم أو يؤخذ في خطيّة، إنّها الدعوة المتميّزة لكنيسة المسيح أن تمدّ يدَها وتساعد على الإصلاح. عندما يصارعُ أحدُهم مع مشاعر أنّ الله بعيدٌ جدًا، فإنّ أذرعَ مَن هم جزءٌ من الكنيسة هي الأذرع الوحيدة التي يملكها الله ليقرّب مثل ذلك الشخص. عندما يشعرُ أحدُهم بأنّه منبوذ، قد تكون قلوبُ شعب الله هي القلوب الوحيدة التي يختارها الله لتشعرَ مع ذلك الشخص.

لا شيء يعطي شعورًا بالرّعاية قدرَ الانضمام إلى جماعة تشعر. هناك درجةٌ مستفحلةٌ من الشعور بالوحدة والجرح في أيّامنا هذه، ولا شيء سيتكلّم إلى مجتمعنا بقدر جماعةٍ تمدّ يدها بمحبّة المسيح.

coptic-books.blogspot.com

هناك أمرٌ آخر تلعب فيه الكنيسة دورًا لا يمكننا استيعابه بشكل كامل، هو دور الموسيقى. قلّة من السُّبل لها نفس الفعاليّة والحساسيّة معًا في السيطرة على المشاعر.

اصغِ بينما ثقافةُ الشباب تَخفِقُ وتدوّمُ بتأثير الصّوت النّابض – لئلا نقول الضَّجيج – لبعض أنماط الموسيقى. لا يتمالك أحدُنا إلا أن يسأل بعض الأسئلة الصعبة حول هذه الظاهرة. ماذا تفعل موسيقى كهذه في مشاعر المستمعين، وماذا عساها تكشفُ عن حالتهم الداخلية؟ أنا أعرف من أصدقاء صالحين هم موسيقيّون محترفون أنّ لديهم بعض الهموم الجدّية أيضًا.

لكن بدلاً من أن نُقدِم على كلّ ما تجرّه أسئلة كهذه، دعونا ببساطة نلاحظ أمرًا واحدًا. تلعبُ الموسيقى مع انقضاء السنين دورًا في السلوان والإلهام أكبرَ منه في الاهتزاز والنشوة. وبمرور الزمن يفسحُ القلبُ طريقًا لصرخاتٍ معيّنة: الصرخة للسلام والسكينة، البحث عن العزاء والملجأ، الصرخة التي ليس فقط تحملُ رجاءً للمستقبل، بل أيضًا تتأمّل في الماضي. أنا مقتنعٌ أكثر من أيّ وقتٍ مضى أنّ الموسيقى تملك الإمكانيّة لتؤثّر في صميم كياننا بطريقةٍ صمّمَ اللهُ كيانَنا ليتجاوب بها. تجلب الموسيقى إمّا انسجامًا أو تنافرًا، وبالأكثر، إنّها تكشف الانسجام أو التنافر في حياة أحدهم.

أحدُ الأدوار القيّمة التي تلعبها الموسيقى هو بناءُ مستودعٍ لذكرياتنا، فتخدم كزرّ إرجاعٍ يعيدُ الماضي في ذكرى محبّبة، وفي هذا المفهوم هي تساعد على ربط أحلام الحياة مع ما تحقّق في الحياة. لذا يجب على الكنيسة أن تتأمّل مليًّا البركة والحذَر اللذين يأتيان من تكاثر الجوقات والترانيم الجديدة علينا. نحن نتركُ الكثيرين من ذوي الأعمار المتوسّطة مفصولين عن ماضيهم الموسيقيّ، فالتّرانيم التي أحبّوا ترنيمها لم تعُد جزءًا من عبادة كنيستهم، وعندما يكون التغيير مستمرًّا فليس هناك

coptic-books.blogspot.com

وقتٌ حتى للشبّان ليبنوا مستودعات الذاكرة لديهم. إنّ للموسيقى دورًا استثنائيًا تلعبه في الكنيسة، وهي وسيلة ممتازة لتحريك مشاعرنا للخير.

بينما نأتي إلى نهاية رحلتنا في الحديث إلى مشاعرنا دعوني ألخّص الحقائق: ينبغي أن نسمع صوت الله يتكلّم إلينا من خلال كلمته، نتوقّف لنكلّم أنفسَنا عمّا نعرف أنّه حقّ، نتكلّم لغة الطاعة إلى مشاعرنا، نبني صداقاتٍ تَثبُتُ وتشدّدُنا عندما نضعف، نأخذ من قوّة الكنيسة لمؤازرتنا ونتمتّع بصوت وإلهام الموسيقى التي أعطاها الله لشعبه. لا شيء وضَّحَ هذه القوة الخماسيةَ لي بقدر خدمة صباح أحدٍ منذ بضعة أشهرٍ مضت. كان حماي قد عانى من أزمة قلبية وتمَّ تشخيصُ حاجته لجراحةِ تبديل شرايين في القلب، لكن لكثرة الطلب على الجهاز الطبيّ قيل لحمايَ أنّه قد تمرّ سبعة إلى تسعة أشهر قبل أن يأتي دوره، وهو كان متأكّدًا أنّه لن يجتاز فترة الانتظار هذه، فتعايش مع فكرة الموت. وبينما ارتاح في البيت في ذلك الأحد، كانت زوجته في الكنيسة، أمينةً في كونِها جزءًا من عائلة الله كما كانا دائمًا خلال حياتهما. راقبتُها من بعيد أثناء الخدمة بأكملها، أصدقاؤها حولَها سألوها عن حالته، العظةُ، الصلواتُ، الكلماتُ منَ المنبر، كلُّها حملت بعض التطبيقات لوضعها. لقد تمالكَت نفسها خلال ذلك كلِّه، ثمّ جاءت التسبيحة الختاميّة ولم تعُد تستطع منعَ دموعِها إذ ربّما لم يكن أحدٌ على صلةٍ بحقائق تلك الترنيمة مثلها هي:

اهدئي، يا نفسي، الربّ بجانبك؛
احملي بصبرٍ صليبَ الحزن والألم؛
دَعي لربّكِ أن يُرتّب ويزوّد؛
في كلّ تغيّرٍ هو يبقى أمينًا.
اهدئي، يا نفسي، فصديقك الأفضل – السماويّ
يقودُ عبر الطرق الشائكة إلى نهايةِ فرحةٍ.

coptic-books.blogspot.com

اهدئي يا نفسي، فإلهُك يتكفّل
بأن يهدي المستقبل كما الماضي.
لا تدعي رجاءك وثقتك يهتزّان؛
كلّ ما هو غامضٌ اليوم سيكون مشرقًا في النهاية.
اهدئي يا نفسي، فالأمواج والرياح لا تزال تعرف
صوتَ ذاك الذي أمَرَها عندما سكَنَ الأرض.

اهدئي يا نفسي، فالساعة تدنو مسرعةً
حين سنكون للأبد مع الربّ،
عندها تمضي خيبة الأمل والأسى والخوفُ،
يُنسى الحزن، وتُستردُّ أنقى أفراح المحبّة.
اهدئي يا نفسي، فحين يمضي التغيُّر والدموع،
سنلتقي كلّنا أخيرًا آمنين مباركين.[٩]

كم كان الله كريمًا بأن يلاقيها في حاجتها، تجمّعت كلّ اللغات لتجلب سكونًا للنفس، ويبقى هناك سؤال واحدٌ فقط: كيف يصِلُ أحدُنا إلى يقين هذه الحقائق والسلام الذي تجلبه؟ أو بصياغةٍ أخرى، كيف يمكننا أن نُقاد بالحقيقة وليس بمشاعرنا؟

خاتمة

فكّرتُ بهذا مليًّا وطويلاً وأنا أتأمّل في الصراع الداخليّ لأحدهم عندما يقول: «لقد جرّبتُ كلَّ شيء، لكن لا أستطيع أن أشعر بالله.» هناك أغنيةٌ للفرقة المعروفة U2 عنوانُها «مع ذلك لم أجد ما أبحثُ عنه» وتأخذك كلماتُ الأغنية عبرَ كلِّ ما يمكن للحياة أن تقدّمه وحتى أنها تشير للإنجيل لكن تنتهي بلازمة «كنت هناك– فعلت ذلك... ومع ذلك لم أجد ما أبحث عنه». وعلى قاعدة كلّ ما افتكرت به أثناء هذه الورطة المنطقيّة، استخلصتُ نتيجتين:

coptic-books.blogspot.com

الأولى هي أنّنا بطريقةٍ أو بأخرى خلال حياتنا سوف ننكسر، لا بدّ أن ننكسر، إمّا ننكسر بسبب كذبة أو بسبب الحقيقة. وقد جسّدَ يسوع وأظهر هذه الحتميّة بشكلٍ دراماتيكي في خَيارٍ هامٍّ جدًّا، وهذا الخيار هو لبُّ موضوع قُرب أو بُعد الله، لكنّنا لا نوليه التّفكير الواجب.

عندما أصبح يسوع وجهًا لوجهٍ مع الصّليب، كان يعرف ما ينتظره، وكان يعرف أنّ أيَّ طريقٍ يختارُه سيجرحه بعمق، وخرجت منه صرخةٌ متألّمةٌ تبيّنُ كيف تحاشى تلك اللحظة. لقد سأل تلاميذه أن يبقوا قريبين منه، فهو احتاج قُربَهم: «أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِي سَاعَةً وَاحِدَةً؟» (متّى ٢٦: ٤٠)، قال لهم ذلك إذ ناموا بينما صرخَت نفسُه الحزينة في جثسيماني. إنّ صلاته «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذه الْكَأْسُ...» (متّى ٢٦: ٣٩) تباغتنا جميعًا إلى أن يضيف: «وَلكِنْ لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ» (لوقا ٢٢: ٤٢).

ما الذي كان مروّعًا هكذا؟ حتمًا ليس الألم الجسدي، فهو يستطيع مواجهته. إنّه المعرفة والشعور بكونه متروكًا حتى من الله الآب، وهو في الوقت نفسه كائنٌ في صميم مشيئة الله، فالله لن يكون قريبًا خلال تلك الصّفقة الأبديّة بل سيترك ابنه، وهكذا صرخ على الصليب «إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟» (متّى ٢٧: ٤٦).

هنا تكمن الفكرة: في مسعًى لتفادي الانفصال عن الآب، كان بإمكان يسوع أن ينجو من تلك التضحية، لكن بفعله ذلك سيكون انتهى في الواقع بعيدًا عن إرادة أبيه وقلبه. في حين أنّه في اختياره أن يموت ويتحمّل ذلك الانفصال المؤقّت اجتُذبَ كلّيًا إلى حضن الآب. وبصياغةٍ أخرى، كان لديه خيارٌ أن يقاومَ الصليب ويترك العالم مكانًا مكسورًا، أو أن يُكسرَ هو نفسُه بحيث يدنو العالمُ من الله ويحيا. في ذلك الموت والانفصال عن عزاء أبيه، استطاع إحضارنا نحن البعيدين إلى حضن الله.

coptic-books.blogspot.com

ذلك الصليب الذي عليه كُسِر ربُّنا حيث أخذ آثامنا وأوجاعنا، حيث أخذ عزلتَنا، حيث تُرِك من الجميع، ذلك الصليبُ هو قلبُ الإنجيل. إن تمّ فهمُه والتّسليمُ له جيّدًا لا يمكن أن ينطبقَ عليه نوعُ المشاعرِ في «كنتُ هناك، فعلتُ ذلك، لم ينجح الأمر.»

يتساءلُ من لا يتبعُ يسوع المسيح: أين الله في هذا العالم المتألّم، لماذا يبدو بعيدًا جدًا؟ نحن غالبًا ما نعتقد أنّ مَن لا يعرف المسيح لا يفهم ماذا يعني الصليب فعليًّا. وهذا صحيح بالحقيقة، لكنّي أتجرّأ أن أقترح، وهنا أصِلُ إلى النتيجة الثانية، أنّه رغم كون الصليب غريبًا جدًّا بالنسبة للشكوكيّين وبالنسبة لطريقة التفكير البشريّة العادية، ففي مكانٍ ما عميقًا في قلوبهم يقرّون دون علمهم برسالته الضمنيّة أنّه حتى في أشرِّ مظاهر الحياة لا بدّ أنّ الله موجودٌ في مكانٍ ما في المتناول. هناك إيضاحان يدعمان هذا ويأتيان بنا إلى نقطة قرارٍ حيويّة.

كتبَ إيلي ويزل Elie Wiesel، فائزٌ بجائزة نوبل وناجٍ يهوديّ من المحرقة Holocaust، عن حين كان في معسكر الاعتقال وأُجبِر مع قليلين آخرين على مشاهدة شنق رجلين يهوديَّين وصبيٍّ يهوديّ. مات الرجُلان مباشرةً، لكن لسببٍ ما تأخّرَ موتُ الصبيّ الشاب بينما صارع لنصف ساعةٍ على المشنقة. ودمدمَ أحدُهم من وراء ويزل: «أين الله؟ أين هو؟»، ثمّ تكرّر الصوت صارًّا أسنانَه ملتاعًا «أين هو؟» فأحسّ ويزل بالسؤال ينبثق من داخله بشكلٍ يتعذّر كبتُه «أين الله؟ أين هو؟»، ثمّ سمعَ صوتًا ناعمًا داخلَه يقول: «إنّه معلّقٌ هناك على المشنقة.»

في مقالته «الله الذي يتألّم» *The God who suffers* أضافَ الكاتبُ دينيس ناين Dennis Ngien ملاحظةً إلى تلك القصّة مقتبسًا قولَ اللاهوتي يورغين مولتمان Jürgen Moltmann أنّ أيّ جوابٍ آخر كان ليكون تجديفًا.[١٠]

coptic-books.blogspot.com

سؤالي هو: أيمكنُ لأيّ إيمانٍ آخر غير المسيحيّة أن يجيب على ذلك السؤال بمعناه الأكمل؟ إذ نتطلّعُ إلى الفظاعات عديمة الشعور، نتساءل أين الله؟ ويأتي الجواب: هو في الوسط تمامًا لدى الطرَف المتلقي لفظاعاتنا. إنّ هذه التصرّفات البائسة وعديمة الضمير كتفجير مبنًى، وبذلك قتل رجال ونساء وأطفال، وخنق وليدٍ صغيرٍ هي أفعالٌ ضدّ الله؛ نحن نُلحِقُ الألَمَ بالآخرين لأنّنا رفضنا الله أولاً.

أنا أجدُ قصة ويزل مذهلةً كليًّا. أين الله؟ هو هناك تمامًا في ذلك البناء، هو تمامًا في ذلك الكيس البلاستيكيّ، وبشكلٍ ما، يجتاحُنا الصليب كنقطة التّعريف المنطقيّة الوحيدة لعالمٍ مجروح. الله نفسُه على المشنقة بحيث يمكنُنا أن نقترب، وأيّ جوابٍ آخرَ يكون تجديفيًّا.

يتأتّى من هذه الحقيقة تحدٍّ شخصيٌّ هامٌّ جدًّا. عندما نتواجه مع الصليب لدينا اختيار نقوم به: إمّا نميّز مضامينَه ونأتي بذواتنا، أهوائنا، وكلّ ما نحن عليه ليُصلبَ مع المسيح، بحيث نحيا ضمن مسمع صوته وخلجات قلبه، أو نبتعد عن الصليب ونحيا شاعرين بالانفصال عن الله.

لكن هنا تتدخّل الكذبة – الاعتقاد بأنّنا نستطيع أن نكون قريبين من الآب دون أن نموت عن أنفسنا، وهذا كان مستحيلاً في خدمة يسوع ذاته.

نحن نسمعُ كثيرًا عن «المجيء إلى المسيح» ونسمعُ قليلاً جدًّا عن أن نُصلَبَ معه. وعندما نأتي إليه مع كلّ حمولتنا الماضية لن يتغيّر شيء إن لم نَدَع تلك الذّات القديمة تُصلب.

لا بدَّ أن يموت شيءٌ ما، إمّا الكذبة التي تعملُ في المشاعر، أو الحقيقة التي على المشاعر أن تُشاكلها. هذا هو لبّ ما يجبُ أن يحصل في كوننا نُصلب مع المسيح. أنا أؤكد أنّ العالم يرى، بشكلٍ موارب، هذه الحقيقة عن الصليب أيضًا، وها هنا إيضاحٌ معاصرٌ يقول الكثير تأييدًا لزعمي هذا:

coptic-books.blogspot.com

في مقالةٍ في مجلّةٍ للسيدات *Ladies' Home Journal* منذ بضعة سنوات، تحسّرت الكاتبة على ضياع الأخلاق في زمننا، لكن أشارت إلى وجود لمحاتٍ مضيئة متفرّقة تخبرُنا عن وجود أملٍ، وكإثبات لذلك التفاؤل سرَدَت قصة دايڤيد كازينسكي David Kaczynski. لعدّة سنواتٍ نشَرَ رجلٌ ملقبٌ بـ Unabomber الخراب والرّعب من خلال عمليّات القتل الوحشيّة التي كان يقوم بها، وأخيرًا حين تمّ تقفّي أثرهُ، كُشِفَ عن تصرّفٍ يتطلّبُ شجاعةً مذهلةً كان وراء اجتهاد الشرطة في إيجاده.

بينما تابع دايڤيد كازينسكي، وهو مجرّد شخص عاديّ، وسائلَ الإعلام في وصفها لِمَن يمكن أن يكون القاتل، صدَمَته فكرةٌ مرعبة، إذ كانت كلُّ الأدلة المُقَدَّمة تشيرُ إلى أخيه تيد. أخيرًا، وبخوفٍ شديد، ذهب دايڤيد إلى الشرطة ليخبرهم ما يدعوه للاعتقاد بأنّ تيد كازينسكي قد يكون الشخص الذي يبحثون عنه. تابعت الشرطة ذلك، والآن تأخذُ العدالةُ مجراها في إنهاء رعب تلك الجرائم الكثيرة المتّهَمُ بها تيد كازينسكي[١١]. لا بدّ أن نتساءل عمَّ دار في ذهن دايڤيد كازينسكي عندما اشتبه بدايةً بأنّ أخاه قد يكون هو المجرم. نحن نعرف أنّه حين أصبحت الإدانةُ أكيدةً في ذهنِه، لا بدَّ أنّه صارَ مستعدًّا لتسليم أخيه رغم أنّ ذلك قد يؤدّي إلى موته. لكن دعونا نتوقّف هنا، لم يكن موت الأخ هو المعركة، وإنّما المعركة الحقيقية كانت داخل دايڤيد كازينسكي. هل كان مستعدًّا للموت عن رغبته الشخصيّة وحتّى حبّه لأخيه بحيث تفوز الحقيقة وتسود الاستقامة؟ بعد صراع مصيريّ مات عن رغباته بحيث يتوقّف القتل.

هذا ما اختاره بنُبلٍ، وبفعلِه هذا أمسَكَت الحقيقةُ بيد الشعور وقادَتهُ للنصر. من حيث المبدأ إنّ موت ماري جين Mary Jane وغاري تشانسي Mary Chauncey لكي تحيا ابنتُهم أودري Audrey ينمّ عن نفس الأمر – الموت عن الذّات.

coptic-books.blogspot.com

أيمكنُ أن نفعلَ أقلّ من ذلك في التزامنا مع المسيح؟ يقدِّم الرسول بولس هذه الحقيقة إلى تيموثاوس بعبارة بسيطة جدًا: «لأَنَّنِي عَالِمٌ بِمَنْ آمَنْتُ، وَمُوقِنٌ أَنَّهُ قَادِرٌ أَنْ يَحْفَظَ وَدِيعَتِي (ما أودعتُه له) إِلَى ذلِكَ الْيَوْمِ» (٢تيموثاوس ١: ١٢). هناك إيضاحٌ بسيطٌ آخر نختم به هذه الدراسة.

إذا كنتَ تجلسُ في المطار وحقيبتك بجانبك وتركتَها للحظة لتكلّمَ أحدَهم، ماذا ستفعل إن سُرقت حقيبتك أثناء غيابك؟ قد تذهب إلى المكتب وتسأل عميل خطوط الطيران إن كان بإمكانه تعقّبها لأجلك، وعلى الأرجح سيكون الجواب بالنفي. فحين تكون الحقيبة في عهدتك وتفقدُها، ليس لك حقٌّ بمراجعة خطوط الطيران. أمّا من جهة أخرى، إن سلّمت حقيبتك مسجّلاً إيّاها لدى خطوط الطيران ولم تجدها عند الوصول إلى المكان المقصود، فلديك كلّ الحقّ لتسأل عميل الخطوط عنها، وسيبدأ بالبحث عنها فورًا.

أترى، إنّ خطوطَ الطيران مسؤولةٌ فقط عمّا تَعهَد به إليها، وهم ليسوا مسؤولين عمّا لم يُعهَد به إليهم.

هذا بالضّبط ما قصده الرسول بولس، كان واثقًا أنّ **الله** سيحفظ ما أُودِع إليه. اجلب مشاعرَك إلى الصليب، أودِعها إلى عناية **الله**، وهو سيحفظها لك.

coptic-books.blogspot.com

الفصل الثالث

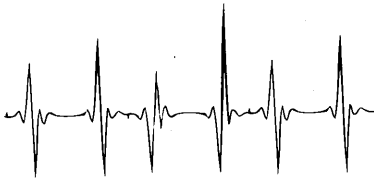

صرخةٌ لأجلِ منطقٍ في المعاناة

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

لخّص الاسكوتلنديُّ دايڤيد هيوم David Hume، أحد شكوكيّي القرن الثامن عشر، العقبة الأعظم أمام الإيمان بوجود الله بهذه الكلمات:

«لو أنّ غريبًا حلَّ فجأةً في عالمنا لَأريتُه كعيّنةٍ من عِلَله مستشفى مليئًا بالأمراض، سجنًا مليئًا بفاعلي الشرِّ والمديونين، حقلاً مكسوًّا بالجثث، أسطولاً يتخبّط في المحيط، أمّةً يُضنيها طغيانٌ، مجاعةٌ أو وباءٌ. بصراحة، أنا لا أرى كيف بإمكانِك أن تقبلَ بوجود غايةٍ مطلقةٍ للمحبّة.»[1]

ويقول آخرٌ:

«ليس العلمُ ما قادني للشكّ في غاية الله، إنّها حالةُ العالم، إنّه الصّراعُ المؤسفُ اللامنتهي على الوجود بين الأمم، إنّه انهيارُ مثاليّاتنا أمام الوقائع الغاشمة للعنف والفوضى، إنّه الشعورُ بوجود شيء شيطانيّ في قلب الأمور يعملُ ضدَّنا، وأنّ هناك تحوّلاً جذريًّا في ذات دستور الكون سيهزمُ دائمًا آمالَ الإنسان، يدمّرُ أحلامَه، ويجعلُ تفاؤلَه المثيرَ للشّفقة يتحطّمُ في كارثة.

الغاية؟ انظر إلى العالم... ذلك يحسمُ المسألة.»[2]

في رائعةِ فيودور دوستويڤسكي Fyodor Dostoevsky «الأخوين كارامازوف» *The Brothers Karamazov* يقولُ إيڤان كارامازوف Ivan Karamazov:

coptic-books.blogspot.com

«أخبِرني أنتَ، أتحدّاك: دعنا نفترضُ أنّك دُعيتَ لتبني صرحَ المصير البشريّ، بحيث يصبحُ البشرُ أخيرًا سعداءَ ويجدوا السلامَ والسكون. إن عرفتَ أنّك حتى تحقّق ذلك لا بدّ لك من تعذيب مخلوقٍ واحدٍ فقط، لنَقُل تلك الفتاة الصغيرة التي تضربُ على صدرها بيأسٍ في الفناء الخارجيّ، وأنّه على دموعها غير المنتقَم لها يمكنك بناءُ ذلك الصّرحِ، هل ستوافق على فعلِ ذلك؟ أخبرني ولا تكذب.»[٣]

من الصّعب ألّا تتعاطفَ مع السؤال المطروح والشكِّ المعبَّر عنه هنا (إنّ النظرة الخاصة في سؤال إيڤان كارامازوڤ أكثر تعقيدًا، لذلك أضفتُ ملحقًا في آخر الكتاب للردّ عليها بعمقٍ أكبر). إنّ كثرة الشرّ، ومعظمُه، كما يبدو واضحًا، لا مبرّرَ له، تدفعُ المفكّرَ للتساؤل عن إمكان وجود إلهٍ صالحٍ مع عالمٍ من الشرّ في آنٍ معًا. مَن منّا لم يحصل أن نظرَ إلى ولدٍ مشوّهٍ فغصَّ بالأسى وتساءل عن الهدف وراء ذلك؟ مَن منّا رأى أمًّا فقدَت ابنها ولم يتحيّر لماذا؟ لا بدّ عاجلاً أم آجلاً خلال حياتك أن تختبر أو تشهد الألم والمعاناة، وإن حاولتَ أن تجد منطقًا في ذلك لا مفرَّ من أن تتساءلَ «لماذا؟»

لا أعرفُ سؤالاً يُسأل أكثر، ولا عقبةً أمام الإيمان أكثر إلحاحًا؛ لقد أثار نخبةُ الأنبياء نفس القضيّة بملاحظاتٍ مختلفة. سألَ حبقوق: «لِمَ تُرِينِي إِثْمًا وَتُبْصِرُ جَوْرًا؟» (حبقوق ١: ٣)، وصرخ داود: «حَتَّى مَتَى يَا اللهُ يُعَيِّرُ الْمُقَاوِمُ؟» (المزمور ٧٤: ١٠).

سخطَ يونان بسبب عنف أهل نينوى وأرادهم أن يُبادوا، واحتجّ إرميا لدى الرّب قائلاً: « أُكَلِّمُكَ مِنْ جِهَةِ أَحْكَامِكَ: لِمَاذَا تَنْجَحُ طَرِيقُ الأَشْرَارِ؟» (إرميا ١٢: ١).

لم أكن يومًا في مسابقةٍ مع شكوكيٍّ أخفَقَ في طرح هذا السبب الرئيسيّ لشكّه. إنّ عدد الذين توقّفوا عن الإيمان بالله بسبب موتِ محبوبٍ

coptic-books.blogspot.com

أو إقعاد صديقٍ يشكّلُ جمعًا غفيرًا. دون شكّ إنّ هذا السؤال هو من الأسئلة الأكثر إخلاصًا وأصالةً، التي تُطرَح على الإيمان المسيحيّ الذي يتكلّم عن إلهٍ محبٍّ له السُّلطان على كلّ الأمور.

لسوء الحظّ لقد تسبّبت الأجوبةُ السطحيّة والمشوَّشة على صرخات القلب هذه بتعطّل التواصل بين الشكوكيّين المُخلصين الباحثين عن الحقّ، وبين أولئك الذين يَدَّعون معرفتَه. نحن غالبًا ما نتعامل مع السائل كشخصٍ لا يريدُ أن يؤمنَ، وهكذا يجدُ الأسباب لعدم إيمانه. نعم، قد يوجد الكثيرون ممّن هم مصمّمون على عدم الايمان، لكن هناك أيضًا مَن يتصارعُ لديهم العقلُ والقلبُ بإخلاصٍ مع المشكلة، وقد عبَّر أحدُهم عن ذلك بشكلٍ بليغ: فضيلةٌ في محنةٍ ورذيلةٌ في نصرةٍ تصنعُ ملحدي الجنسِ البشري.

لكن إن كان المسيحيُّ متّهمًا بتجاهل عبقرية السائل، فعلى السائل أن يواجهَ إمكانيّةَ اتّهامه بأنّه على الأغلب لم يولِ السؤالَ التفكير المستحَقّ.

غالبًا ما يصاحبُ هذا التحدّي إلى الذّهن سهوٌ شديدُ الوضوح، وهو أنّ الشكوكيّين الذين طرحوا السؤال عليهم أن يعطوا جوابًا على السؤال عينه. كيف يشرحون مشكلة الألم؟ ليس فقط عليهم أن يقدّموا جوابًا بل عليهم مبدئيًا أن يبرِّروا السؤال بحدِّ ذاته، وذلك كلّه بينما يدَعُون الله خارجَ الصورة. هنا تصمُتُ أصواتُهم وتتاخِمُ أجوبتُهم اللامنطق.

لخّصَ ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton هذه النقطة الجدليّة حسنًا عندما قال: «عندما يغدو الإيمانُ بالله صعبًا يكون الميلُ للابتعاد عنه، لكن بحقِّ السماء إلى أين؟» لا يُنكرُ المسيحيُّ وجوب وجود جوابٍ ذي مغزى، لكن هل وَجَدَ مَن يُنكرُ الله جوابًا أفضل لمشكلة الشرّ؟ بقليلٍ من الدّعابة ومع إدراك أنّ معظمَ الأجوبة تدنو من الإجابة لكن ليس كفايةً، يتابع تشسترتون ليقول: «مشكلتي مع الحياة ليست أنّها منطقيّة، ولا أنّها غير منطقيّة لكن أنّها تقريبًا منطقية.» حالما نتمكّنُ من تشكيل إطارٍ متماسكٍ، يثقبُ أحدٌ ما أو شيءٌ ما ثغرةً فيه، ونتراجعُ خطوةً للخلف.

coptic-books.blogspot.com

لا يتجاهلُ الكتابُ المقدَّسُ هذا السؤال في صمتٍ بل يتوجّه إليه بجدّيةٍ كبيرة. وسفر أيّوب الذي يتعاملُ مع سؤال الألم والمعاناة البشريّة ربّما هو أكثرُ سفرٍ يُساء فهمُه، ومع ذلك أكثر ما يُقتبَس منه، وأصبح اسمُ أيّوب رديفًا للمعاناة، لكن قلّةٌ قليلة اختارت أن تدرس مرافعاته بشكلٍ منهجيّ. عندما نأخذُ بعين الاعتبار قِدَمَ هذا السِّفر، لا بدَّ أن نُذهَلَ بعمق معالجته للموضوع. رجائي أن نتمكّن من التّعمّق والتنقيب في مناقشاته التي تقدِّمُ الجواب الوحيد المقبول على هذا الغموض الذي يزعجُنا جميعًا. لكن قبل أن ندخل في ذلك البحث دعُونا على الأقلّ نواجهُ السؤال في تشعباته الفلسفيّة؛ سيكون هذا بشكلٍ مختصرٍ وسيتطلّب تركيزًا كبيرًا، لكن لا بدَّ من وضع السؤال في سياقه، ومتى تخطّينا هذه العقبة الفلسفيّة ستتركُ أجوبتُنا أثرًا أعظم.

❺ التّحقيقُ في السؤال

كنتُ منذ بضعة سنواتٍ أتكلّم في جامعة نوتينغهام – إنكلترا Nottingham England، وإذ بشخصٍ من المستمعين، غاضبٍ نوعًا ما، يشنُّ هجومَه على **الله** بذلك السؤال عينه. يذكّرُنا سي. إس. لويس C. S. Lewis أنّه لا شيء مبطلٌ لذاته بقدر سؤالٍ غير مفهومٍ بكامله عندما يُطرَح بكامله، وهذا السائلُ صُرِعَ بذات سؤاله.

قال: «لا يمكنُ أن يوجَد إلهٌ مع كلّ الشرِّ والألم الموجودَين في العالم.» فسألتُه إن كان بإمكاننا أن نتحاور حول هذه القضيّة لبضع دقائق، فوافق. سألتُه: «عندما تقولُ بوجود ما هو شرٌّ، ألستَ تفترضُ وجود ما هو خيرٌ؟» ردَّ: «طبعًا.»

«لكن عندما تفترضُ وجود ما هو خيرٌ، ألست أيضًا تفترضُ أنَّ هناك قانونًا أخلاقيًّا يتمُّ على أساسه التمييزُ بين الخير والشرّ؟»، «أظنُّ ذلك.» جاء الردُّ متردّدًا وبصوتٍ أخفضَ كثيرًا.

coptic-books.blogspot.com

كان من الهامّ جدًّا ذكرُ هذه النّقطة أثناء المناقشة إذ أنّ معظم الشكوكيّين لم يلقوا بالاً إليها قطّ. ومن ثمّ ذكّرتُ هذا السائل، في تردّده الأوليّ، بالمناظرة بين اللاأدريّ برتراند راسل Bertrand Russell والفيلسوف المسيحيّ فريدريك كوپلستون Frederick Copleston. فأثناء المناظرة سأل كوپلستون راسل إن كانَ يؤمنُ بالخير والشرّ، وأقرَّ راسل بالإيجاب، فردّ كوپلستون بسؤاله كيف يميّزُ بين الاثنين، فقال راسل أنّه يفرّق بين الخير والشرّ بنفس الطريقة التي يميّز بها الألوان، فذكّرَ كوپلستون راسل: «أنت تميّزُ بين الألوان بالبصر، أليس كذلك؟ فكيف إذًا تحكمُ بين الخير والشرّ؟»

فأتى جوابُ راسل الحادّ: «بناءً على الشعور، ماذا غير ذلك؟»[٤] كان على أحدهم أن يقاطع راسل ويخبرَه أنّه في بعض الثقافات يحبّون جيرانَهم، بينما في ثقافاتٍ أخرى يأكلونهم، وكلاهما على أساس الشعور، هل لدى السيد راسل أيّ تفضيلٍ شخصيّ؟ كيف بحقٍّ المنطق يمكنُ أن نبرِّرَ التفريق بين الخير والشرِّ على أساس الشعور؟ شعور مَن؟ هتلر أم الأمّ تريزا؟ بكلماتٍ أخرى، لا بدّ من وجود قانونٍ أخلاقيٍّ، معيارٍ به نحدّدُ الجيّد والسيّء، وإلاّ فكيف يمكنُ البَتّ؟

أخيرًا أقرَّ سائلي بهذا الافتراض دون تردّد؛ إذًا دعني أسترجعُ للحظةٍ إلى أيِّ مدًى وصل: سألتُه إن كان يؤمنُ بالخير فردّ بالإيجاب. لكن إن آمن بالخير، عليه أن يسلِّمَ بوجود قانونٍ أخلاقيٍّ به نميّزُ بين الخير والشرّ، فوافق. فقلتُ: «إذًا، إن كان هناك قانونٌ أخلاقيٌّ، لا بدَّ لك أن تفترض وجود واضعٍ لهذا القانون، لكن هذا ما تحاولُ أنتَ إبطاله وليس إثباته. إن لم يوجد واضعٌ لقانونٍ أخلاقيٍّ فليس هناك قانونٌ أخلاقيٌّ. وبدون قانونٍ أخلاقيٍّ ليس هناك خيرٌ. وإن لم يوجد خيرٌ فليس هناك شرّ. أنا لستُ متأكدًا ما هو سؤالك؟» فساد الصّمتُ ثمّ قالَ سائلي: «إذًا، ما هو سؤالي؟» وكان لا مفرّ من الضّحك لبعض الوقت.

coptic-books.blogspot.com

لقد هزّه أنّه في قلب سؤاله يكمنُ افتراضٌ يناقضُ استنتاجه. هذا تمامًا ما قصدتُه عندما قلتُ أنَّ على الشكوكيّ ليس فقط أن يعطي جوابًا على سؤاله، بل أيضًا أن يبرّرَ السؤال. بينما هدأ الضّحك ذكّرتُه بأنّني قبلتُ السؤال، لكنَّ سؤاله يبرّرُ افتراضاتي بأنّ هذا الكون أخلاقيٌّ، وليس افتراضاتِه هو، لأنّه إن لم يكن الله واضع الحياة، فلا الخير ولا الشرّ بتعبيرٍ ذي معنى.

لا ينفكّ هذا الأمرُ يفوتُ الشكوكيَّ الذي كما يبدو يظنّ أنّه بطرح سؤال الشرّ يُنصَبُ شركٌ لتدمير الإيمان بالله، بينما في الحقيقة إنّ طرحَ السؤال يوقعُ مَن طرحَه في الشرك، ويَبرزُ افتراضٌ مخفيٌّ إلى العلن. بكلماتٍ أخرى، أنستطيع فعلاً أن نطرحَ مشكلةَ ذاتِ مضامين أخلاقيّة إن لم يكن هذا الكونُ أخلاقيًّا؟

يقول سي. إس. لويس C. S. Lewis أنّه في اللحظة التي نستخدمُ كلمةَ «أفضل» نحن نفترضُ نقطةً مرجعيّةً. وفي نفس السياق، أهي مقولةٌ منطقيةٌ أن نسألَ لماذا يبدو الكونُ لا أخلاقيًّا، إن كان الكونُ ذاتُه لا يملك أساسًا أخلاقيًّا أو سببًا لوجودِه؟

الحقيقةُ المُربكةُ لِمَن يطرحون مشكلةَ الشرّ هي أنّ المسيحيّ يستطيعُ أن يكون مترابطًا في كلامه، بينما يُحرَجُ الشكوكيّ بأن يجيب على التساؤل عن الخير في كونٍ لا أخلاقيّ. وباختصار، إنّ مشكلة الشرّ لا تُحَلّ بالتخلّص من وجود الله نظرًا لوجود الشرّ، بل يجب أن تُحَلّ مشكلةُ الشرّ والألم مع إبقاء الله في الصورة.

هذا تمامًا ما استنتجه أيوب، هو لم يفقد أبدًا رؤيته لحقيقة أنّ الله هو المسيطر، لكنّه لم يستطع أن يوفّقَ بين هذا وبين الإطار اللاهوتيّ لديه. فهو لطالما افترضَ أنّه إن كان الإنسانُ صالحًا، سيكون مباركًا، وإن كان سيّئًا سيكونُ ملعونًا، فلماذا لُعِنَ هو في حين أنّه صالح؟

coptic-books.blogspot.com

كانت نظريّتُه اللاهوتيّةُ تتداعى وليس إيمانُه بالله. إنّ أداءَ أيّوب خلال المشكلة يشكّلُ دراسةً رائعةً، وهذا ما سنوليه انتباهنا.

بدايةٌ غريبة

في الأصحاح الأول من السفر، نجدُ أيّوب يواجهُ فاجعةً تلو الأخرى. لقد فقدَ صحّته، ثروته، وأيضًا عائلته، وبينما جلس على كومة الرّماد مغطًّى من رأسه إلى قدمه بالبثور، قالت له زوجتُه: «أَنْتَ مُتَمَسِّكٌ بَعْدُ بِكَمَالِكَ؟ بَارِكِ (جدّف على) اللهَ وَمُتْ.» لكنّ أيّوب أجاب: «تَتَكَلَّمِينَ كَلاَمًا كَإِحْدَى الْجَاهِلاَتِ! أَالْخَيْرَ نَقْبَلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَالشَّرَّ لاَ نَقْبَلُ؟» ويضيفُ الكتابُ: «فِي كُلِّ هذَا لَمْ يُخْطِئْ أَيُّوبُ بِشَفَتَيْهِ» (أيّوب ٢: ٩ و١٠).

لا بدّ لواحدنا أن يفهم وفي نفس الوقت يتساءلَ ماذا قصدَت فعلاً زوجةُ أيّوب بقولِها «جدّف على الله ومُت»، إن كان اللهُ موجودًا هل يحقّقُ شتمُهُ شيئًا؟ يستطيع المرءُ أيضًا أن ينتعل حذاءً خفيفًا ويرفسَ برميلاً! وإن لم يكن الله موجودًا، فمَن يكون أيّوبُ يلعنُ فعليًّا؟

لكن دَعنا نلتمس لها العُذر ونقول أنّ ردَّ فعلِها كان بالطريقة التي يُجرَّبُ كلُّ إنسانٍ أن يتجاوب بها، عندما يبدو كلُّ ما يؤمن به كأنّه لا معنىً له إطلاقًا في وجهِ ما يظهرُ معاكسًا له.

من جهةٍ أخرى، إنّ أيّوب أيضًا قد افترضَ أنّ الله هو مصدر الألم تمامًا مثلما هو مصدر الرّاحة، وهكذا ما عليه هو إلّا أن يستسلِم.

أكان أيّوب مُحقًّا؟ دعونا نُبقي في ذهننا أنّنا أُعطينا لمحةً عمّا سبَقَ هذا الاختبار، الأمر الذي لم يكن لأيّوب علمٌ به. لكن في الخاتمة نرى أيّوب يفهمُ الصورة الكبيرة وجلَبَ الرّسمُ الذي ظهَرَ الكثير من العزاء والعبادة إلى قلبه. خلالَ المسار الطويل لمحادثاته العديدة، أصبحت أسئلتُه أوضحَ واكتسبَت تركيزًا يقظًا جدًّا، وربّما

coptic-books.blogspot.com

كان ذلك أحدَ أعظم اكتشافات أيّوب – الأهمّية الكبيرة في أن يسأل الأسئلة الصّحيحة.

إذ نتابع القراءة، نُخبَرُ أنَّ أصدقاء أيّوب الثلاثة، أليفاز، بِلدد، وصوفر ارتحلوا إليه ليساعدوه ليفهم أين كان الله في كلّ الدّمار الذي أصابه. (أنا أُصرُّ أنّ أسماءهم لا يمكن أن تكون اختيرت من كتاب للأطفال، واعتدتُ أيضًا أن أقول أنّني لم أصادف أحدًا قطّ يحملُ أحدَ هذه الأسماء، لكنّ هذا تغيّرَ عندما قابلتُ شخصًا يُدعى بِلدد في مكانٍ ما من أرجاء المعمورة).

نستطيع أن نتخيّل محادثاتهم بينما سافروا ليروا أيّوب، ووضعوا خططَهم مقرّرين أيَّ دورٍ سيلعبُ كلٌّ منهم في مسعاهم ليجلبوا له الرّاحة. لكنّ نظرةً وجيزةً واحدةً على حالته المرثية تركتهم عاجزين عن الكلام. لقد بقوا في صمتٍ مطبقٍ لسبعة أيّامٍ وسبع ليالٍ، ودون شكٍّ، لقد كانوا بأحكم وأفضل حالاتهم وهم صامتون. فرغم تقديرنا لهؤلاء الرجال لاهتمامهم بالمجيء إلى أيّوب، يُحيّرُنا عدمُ إحساسهم مع صديقهم في ساعته الأكثر إيلامًا. لقد قدّموا فقط ما نسمّيه «أجوبة معلّبة» وبياناتٍ لاهوتيّة غير مدروسة تبدو ظاهريًّا حصيفةً، لكنّها جوفاءَ أمام عذاب أيّوب.

أوّل مَن فتح فمَه كان أليفاز، أكبرهم وألطفهم، ومن بين كلٍّ المنطق الذي في متناوله ليقدّمَ مشورتَه روى الحدثَ الأغرب:

«ثُمَّ إِلَيَّ تَسَلَّلَتْ كَلِمَةٌ،
فَقَبِلَتْ أُذُنِي مِنْهَا رِكْزًا.
فِي الْهَوَاجِسِ مِنْ رُؤَى اللَّيْلِ،
عِنْدَ وُقُوعِ سَبَاتٍ عَلَى النَّاسِ،
أَصَابَنِي رُعْبٌ وَرَعْدَةٌ،
فَرَجَفَتْ كُلَّ عِظَامِي.

coptic-books.blogspot.com

...وَقَفَتْ وَلكِنِّي لَمْ أَعْرِفْ مَنْظَرَهَا،
شِبْهٌ قُدَّامَ عَيْنَيَّ.
سَمِعْتُ صَوْتًا مُنْخَفِضًا:
أَالإِنْسَانُ أَبَرُّ مِنَ اللهِ؟
أَمِ الرَّجُلُ أَطْهَرُ مِنْ خَالِقِهِ؟
...هَا إِنَّ ذَا قَدْ بَحَثْنَا عَنْهُ. كَذَا هُوَ.
فَاسْمَعْهُ وَاعْلَمْ أَنْتَ لِنَفْسِكَ»
(أيّوب ٤: ١٢-١٧؛ ٥: ٢٧).

نستطيع أن نتخيّل ماذا شعَرَ أيّوب بينما ازداد أليفاز فصاحةً حول تجربته الحالمة، لكنّ أيّوب حَبَاه لباقة الإصغاء إلى كلامه قبل أن يثورَ في فزعٍ، ويتوسّل متألّمًا لكي يُفهَمَ في عُمق خسارته:

«لَيْتَ كَرْبِي وُزِنَ، وَمَصِيبَتِي رُفِعَتْ فِي الْمَوَازِينِ جَمِيعَهَا،
أَنَّهَا الآنَ أَثْقَلُ مِنْ رَمْلِ الْبَحْرِ...
لأَنَّ سِهَامَ الْقَدِيرِ فِيَّ وَحُمَتَهَا شَارِبَةٌ رُوحِي.
أَهْوَالُ اللهِ مُصْطَفَّةٌ ضِدِّي.
حَقُّ الْمَحْزُونِ مَعْرُوفٌ مِنْ صَاحِبِهِ، وَإِنْ تَرَكَ خَشْيَةَ الْقَدِيرِ»
(أيوب ٦: ٢- ٤، ١٤).

لا يوجدُ خللٌ واضحٌ في أفكار أليفاز عدا عن الأساس الجدليّ الذي بناها عليه. هو يستحضرُ للذّهن كونَ أيّوب مخلوقًا وبالتالي خاطئًا، وقد ترافع لأجل عدالة الله والإنصاف الذي به يتعامل مع الناس. لا يوجدُ عيبٌ واضحٌ في أفكار أليفاز سوى الأساس الغريب الذي بناها عليه، وسوى قساوته الواضحة إذ بدا أكثرَ اهتمامًا بفصاحة المناقشة ممّا هو بشقاء صديقه.

coptic-books.blogspot.com

أذكُرُ في السنوات الأولى من خدمتي عندما سُئلتُ من قِبَل زوجين لماذا يسمح الله بالمعاناة في حياتنا. جلستُ مواجهًا لهما بينما بقيا في المقعد الأخير من الكنيسة بعدما غادر الجميع. وحين انحنيت للأمام لأجيب عن سؤالهما لاحظتُ فجأةً طفلَهما الصغير مستلقيًا بجانبهما وكان واضحًا أنّه وُلِدَ بمتلازمة داون (المنغولية)، فتراجعتُ ذهنيًّا خطوةً للخلف إذ عرفتُ حينها أنّ سؤالَهما نابعٌ من عمق القلب وليس سؤالاً أكاديميًّا. كانت مشاعرُهما حقيقيّةً ومثلها ينبغي أن يكون جوابي. ضع نفسَك مكان أيّوب، مع خسارة كلِّ ما هو عزيزٌ عليك، ماذا ستفكّرُ في صديقٍ يتكلّمُ عن حلمٍ رآه، فيه تقفُ روحٌ أمامَ وجهه، فيقفُ شعرُه من الصّدمة وبعدها تتكلّمُ إليه الرّوحُ بجوابٍ على ألَمكَ: «أيمكنُ للإنسان أن يكون طاهرًا أمام خالقه؟» نستطيعُ أن نسامح أيّوب لو انفجر بخَيبةٍ صرفةٍ وقال: «أيّ كلامٍ هذا الذي تتحدّث عنه؟» أودّ أن أشير إلى أنّه من غير المهمّ إن كان حلمُ أليفاز قد وقع فعلاً، فالسؤال الفعليّ هو كيف يستطيع شخصٌ آخر أن يقرّرَ إن كان الحدَث برُمّته صحيحًا، وحتّى إن كان كذلك فهو بأفضل حالٍ أمرٌ شخصيٌّ واجهَه أليفاز.

أمنَ الحكمة إذًا أن يبني نظامًا لاهوتيًّا كاملاً على تجربةٍ شاذّةٍ لا يمكن التحقّق منها من قِبَل أيّ شخصٍ آخر؟ كان حَريًّا به أن يطأ برفقٍ حول كربِ أيوب، ومن الواضح أنّ أليفاز لم يفعل.

أتذكّر من أيّام دراساتي العليا عندما كان لي شرف الدّراسة على يد أستاذٍ لامعٍ جدًّا. كان قليل الصبر وكثير الثَّوَران إذا تجرّأ أيُّ طالبٍ على تقديم مادّةٍ واعتُبِرَت غير جديرة. في امتحانٍ رئيسيٍّ كان صعبًا على وجه التحديد بحيث أنَّ كلًّا منّا نحن الطلاب صلّى لأجل مجرّد علامة نجاح، تجرّأ أحدُ الطلاب، إذ لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا يعنيه أحد الأسئلة، فحشا أجوبَته بإسهابٍ ثقيلٍ آملاً أنّه في مكانٍ ما من كومة الكلمات تلك لا بدّ أن يُلمِح في اتجاه الجواب المناسب. وعندما أرجع الأستاذُ الأوراقَ كان مكتوبًا عبر ورقته ما أظنّه أحدَ أطرف التّعليقات التي قرأت. كتبَ الأستاذُ

coptic-books.blogspot.com

ببساطة: «هذا ليس صحيحًا... هذا ليس حتى خاطئًا»، وبعد لحظةٍ طويلةٍ أدركَ الطالبُ ما قصدَه الأستاذ.

هناك على الأقلّ ثلاثةُ أمورٍ يمكن قولُها عن جوابٍ مُقدَّمٍ لسؤالٍ ما:

الأول هو أن تقول أنّه صحيحٌ، والثاني أن تقول أنّه خاطئ، والثالث أن تقول أنّه لم يرقَ حتى إلى منزلةِ الخطأ، فالقولُ عن شيءٍ ما أنّه خاطئٌ يعني أنّك على الأقلّ تُقرّ بأنّ شيئًا ذي معنًى قد قيل.

كيفَ يردّ المرءُ على حلمٍ أو رؤيا حين لا يوجد ما يُثبت الزّعم المقدّم؟

وإن جازفنا بإبداء فظاظةٍ، كيف نعرف أنّ أليفاز لم يكن يهلوس فقط أو يظنّ نفسه مخلّصَ البشر؟

لَكَم عانى الإيمانُ المسيحيُّ على أيدي أولئك الذين تُشكِّلُ لديهم تجربةٌ شعوريّةٌ عاليةُ الشحنة من الوجود الخارجيِّ، المترجمَ الأوحدَ للسّيناريو الرئيسيِّ لوجود كلِّ شخصٍ آخر. يبدو أنّه لم تعد توجد طريقةٌ لـ«امتحان الأرواح» وكلّ ما هو مطلوبٌ لتشكيل كنيسةٍ أو جماعةٍ هو القبولُ أو السماح بأيّ نوعٍ من التجلّي، والعنصرُ الوحيدُ المرفوضُ هو الارتياب.

هذه طريقةٌ خطرة في ادّعاء التكريس لله، حيث لا سبيل للتفريق بين عبادة الله ولَعبِ دور الله.

على قدر ما يمكن لخبرة أليفاز أن تكون أصيلةً، فإنّ لأيّوب كلّ الحقِّ أن ينبذها: «حَقُّ الْمَحْزُونِ مَعْرُوفٌ مِنْ صَاحِبِهِ... أَمَّا إِخْوَانِي فَقَدْ غَدَرُوا مِثْلَ الْغَدِيرِ. مِثْلَ سَاقِيَةِ الْوُدْيَانِ يَعْبُرُونَ، الَّتِي هِيَ عَكِرَةٌ مِنَ الْبَرَدِ، وَيَخْتَفِي فِيهَا الْجَلِيدُ. إِذَا جَرَتِ انْقَطَعَتْ. إِذَا حَمِيَتْ جَفَّتْ مِنْ مَكَانِهَا» (أيوب ٦: ١٤– ١٧). لقد قدّموا شرابًا لمن لا يحتاجه ومنعوه عمّن كان يموتُ عطشًا. لقد أغفلَ خطابُ أليفاز كربَ أيّوب، فمضى أيّوب ليسأل:

coptic-books.blogspot.com

«عَلِّمُونِي فَأَنَا أَسْكُتُ،
وَفَهِّمُونِي فِي أَيِّ شَيْءٍ ضَلَلْتُ.
مَا أَشَدَّ الْكَلاَمَ الْمُسْتَقِيمَ،
وَأَمَّا التَّوْبِيخُ مِنْكُمْ فَعَلَى مَاذَا يُبَرْهِنُ؟
هَلْ تَحْسِبُونَ أَنْ تُوَبِّخُوا كَلِمَاتٍ،
وَكَلاَمُ الْيَائِسِ لِلرِّيحِ؟
بَلْ تُلْقُونَ عَلَى الْيَتِيمِ، وَتَحْفُرُونَ حُفْرَةً لِصَاحِبِكُمْ.
وَالآنَ تَفَرَّسُوا فِيَّ» (أيوب ٦: ٢٤ – ٢٨).

بمجاهرةٍ لا اعتذاريّة يناقشُ أيّوب تحجّرَ قلب أليفاز. في الواقع هو يدعوه مستودعًا جامدًا من الكلمات، دون شعورٍ، دون منطقٍ، بل مجرّد دفقٍ غير ودّيٍّ من التّفاهة.

نبيُّ الرّيح

مهّدت أزمتُهما الطريق لصديق أيّوب التالي، بِلدد، الذي لم يُضِع وقتًا، ومباشرةً قال لأيّوب:

«إِلَى مَتَى تَقُولُ هذَا، وَتَكُونُ أَقْوَالُ فِيكَ رِيحًا شَدِيدَةً؟
اسْأَلِ الْقُرُونَ الأُولَى وَتَأَكَّدْ مَبَاحِثَ آبَائِهِمْ،
لأَنَّنَا نَحْنُ مِنْ أَمْسٍ وَلاَ نَعْلَمُ...
فَهَلاَّ يُعْلِمُونَكَ؟ يَقُولُونَ لَكَ، وَمِنْ قُلُوبِهِمْ
يُخْرِجُونَ أَقْوَالاً» (أيّوب ٨: ٢، ٨ – ١٠).

لا أحدَ يقرأ ردّ بِلدد ويرتاب في شيءٍ ممّا قاله، لكن يبدو أنّ هناك خطأً ما لا يمكنُ تمييزه بسهولة. فالأفكارُ بحدِّ ذاتها تبدو صحيحةً، فما الخطأ في القول أنّ علينا أن نصغي لحكمةِ القدماء؟ إنّ لدى الأجيال

coptic-books.blogspot.com

السابقة الكثير لتعلّمَنا إيّاه فيما يتعلّق بالمعاناة والألم. إنّ غنى الشِّعر والنّثر الذي كُتِبَ على مرّ القرون في لحظات الحياة العاصفة أفاض الضوء على الكثيرين ممّن اضطرّوا أن يعبروا وديانًا مظلمةً مشابهة.

أفكّرُ، على سبيل المثال، في الشهادة المؤثّرة لامرأة تدعى آني جونستون فلينت Annie Johnston Flint، عاشَت معظم حياتها في الألم. تيتّمَت باكرًا من حياتها، أُحرِجَ جسدُها بالسلَس البوليّ، أُضعِفَ بالسرطان، حُنِيَ وشُوّه بداء المفاصل الرّثياني. لقد أُعيقَت لوقتٍ طويلٍ بحيث، حسب شاهد عيانٍ، كانت تحتاج لسبع أو ثماني وسائد حول جسدها لتخفّف عن القرحات المتسلّخة التي أصابتها كونها طريحة الفراش. مع هذا فإنَّ سيرتها الذاتية سُمّيَت بحقٍّ «صُنعُ الجمال» *The Making of the Beautiful*، ومثل شاعرةٍ من السماء خطَّت كلماتٍ تلمسُ القلبَ في لحظات يأسِه.

إحدى قصائدها الأكثر شهرة، وقد لُحِّنت، تقول:

هو يعطي نعمةً أوفرَ عندما تعظمُ الأعباء
هو يرسلُ قوّةً أكبرَ عندما تزدادُ الأتعاب
للبلاء الإضافيّ، يضيفُ رحمتَه
وللمِحَن المضاعفة، يضاعفُ سلامَه

عندما نستنفذ مخازنَ التّحَمُّل لدينا
عندما تُخفقُ قوانا والنّهارُ لا يزال في منتصفه
عندما نصلُ إلى نهاية مواردِنا المُدّخَرة
يكونُ عطاءُ أبينا الكامل قد بدأ للتوّ

لمحبّته لا حدود، لنعمته لا قياس
لقدرته لا حدود معروفةٌ للإنسان
ومن غناه اللامحدود في يسوع
هو يعطي، يعطي، ويعطي أيضًا![٥]

coptic-books.blogspot.com

يميلُ المرءُ لإسباغ صفة الوحي الإلهيّ على هكذا كلماتٍ مؤثّرةٍ في النفس وعواطف عميقةٍ مثل هذه، نُطقت من حياةٍ مكسورةٍ مثل حياتها. لا شكّ لديّ أنّ الكثيرين على مرّ السنين لجأوا إلى هذه الترنيمة مرّةً بعد مرّة واستمدّوا عزاءً من كلماتها.

على أيّة حالٍ، السؤال هنا هو: هل قدّمت هذه الكلمات جوابًا للسؤال لماذا يحدثُ الألم في حياتنا، أم أنّها مجرّد صدًى لمشاعر القبول والنّصر في تلك الحالة؟

لقد أجالَ أيّوب الرّأي في سبب معاناته أكثر ممّا في كيفيّة تحمّلها.

إضافةً إلى شعر النّصرة، نستطيع أن نلقي نظرةً على عظات مَن درسوا هذه المشكلة، ومرّةً ثانية نخرجُ بِرَدٍّ مختلطٍ. لقد قُدِّمت الحكمةُ حول هذا الموضوع المُضني على مرّ العصور من صوت أغسطينوس في القديم إلى الصوت الأكثر حداثةً لـ سي. إس. لويس، وها كلمات مالكوم ماغريدج Malcolm Muggeridge تدعمُ شعورَ الأخبار السيئة/ الجيدة إذ يقول:

> «على نقيضِ ما هو متوقّع، أنا أنظرُ للوراء برضًى خاصٍّ إلى تجارب بدَت في وقتها مغمّةً ومؤلمةً. في الحقيقة، أستطيع القول بصدقٍ تامٍّ أنّ كلَّ ما تعلّمتُه في سنواتي الخمس والسبعين في هذا العالم، كلّ ما عزّزَ بحقٍّ وأنار وجودي كان من خلال المِحَنِ وليس السعادة سواءً منشودة أم محقّقة. وبكلماتٍ أخرى لو كان ممكنًا إزالةُ المحن من وجودنا الأرضيّ بواسطة دواءٍ ما أو طقسٍ طبّي آخر... لن تكون النتيجةُ جَعلَ الحياة مبهجةً بل جعلَها تافهةً ومبتذلةً أكثر من أن تُحتَمل. هذا ما يعبّرُ عنه الصليب، والصليبُ أكثر من أيّ شيءٍ آخر هو الذي دعاني بما لا يقبل العذر إلى المسيح.»[٦]

coptic-books.blogspot.com

هناك منجمُ ذهبٍ من الحقّ في هذه الأفكار التي عبّر عنها ماغريدج، لكن بالنسبة للإنسان اليائس يبدو هذا أيضًا جوابًا بعيدًا للألم الأكثر قُربًا.

لذا نجدُ أنّ ردَّ أيّوب على بلدد كشفَ غيظَه، سألَ: «كَيْفَ يَتَبَرَّرُ الإِنْسَانُ عِنْدَ الله؟» (أيّوب ٩: ٢). وبَدَت له قدرةُ الله جائرةً جدًّا وحَمِل عليه: يصنعُ الجبالَ ويزعزعُها حسب إرادته. ومرّةً جديدةً، إنّ أيّوب لم يشكّ بوجود الله، بل فقط أرادَ أن يعرف هدفَه، ثمّ نطَقَ بتوقٍ عظيمٍ صرخةً بدأت تفتحُ الباب جزئيًا: «لَيْسَ بَيْنَنَا مُصَالِحٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى كِلَيْنَا (الله وأنا)» (أيّوب ٩: ٣٣).

صوتٌ غضبٍ

في هذه النقطة، تبدأ رحلةُ أيّوب في التبلور؛ لقد سأل في المرحلة الأولى إرشادًا، وهو الآن يسألُ تحكيمًا أو نقطة وصلٍ، وإلى عالمه المحطّم خارجيًّا تأتي إعادةُ بناءٍ تدريجيّةٌ من الداخل.

ثمَّ يأتي الصوت الثالث – صوتُ صوفر، الأصغر سنًّا والأكثر فظاظةً بين الثلاثة. فهو مبدئيًا دعا أيّوب أحمقًا ومدّعيًا، «أَمَّا الرَّجُلُ فَفَارِغٌ عَدِيمُ الْفَهْمِ، وَكَجَحْشِ الْفَرَا يُولَدُ الإِنْسَانُ» (أيّوب ١١: ١٢).

من الطريف أن نلاحظ كيف عبّرت الطبيعة البشريّة عن نفسها في وضعٍ كهذا منذ قرونٍ مضت، ومن المريح أن نتبيّن أنّ تلك الشخصيّات لم تكن تختلف عنّا. فنفاذُ الصّبر والغضب متوقّعان عندما تعتقدُ أنّك تملك الجواب ويخفقُ الشخصُ الآخر في أن يرى فكرتَك.

لقد رأى أليفاز، بلدد وصوفر أنفسَهم كمبعوثين مرسلين من الله مع شذراتٍ وافرة من الحكمة، بينما تحيّر أيّوب من عدم مراعاتهم إطلاقًا لمشاعره.

coptic-books.blogspot.com

كان فحوى جواب صوفر أنّ طرق الله ليست كطرق أيّوب، وأنّ على أيّوب أن يفهمَ ذلك. لكن هل كان ذلك جوابًا فعلاً؟ في الواقع إنّ طرقَ الشيطان ليست كطرق أيّوب أيضًا، وهذا كان واضحًا له. لكنّ أسئلة أيّوب كانت حول ماذا، ولماذا الاختلاف بين فِكرِ الله وفكرِه، وليس فقط حقيقة ذلك الاختلاف.

الآن تبدأ نقطة الوضوح، ففي البداية التمسَ أيّوب أحدًا يعلّمه، ثمَّ سألَ إن كان هناك وسيط يسوّي نزاعَه مع الله، ولاحقًا صرخ في يأسٍ سائلاً: «إن ماتَ رجُلٌ أفيحيا (ثانيةً)؟» إن لم يُفِد الألمُ في شيءٍ فهو على الأقلّ يساعدُ على إيضاح السؤال، فمن جوعِه لمعرفة السبب، إلى سؤاله عن الحياة ما بعد القبر، لقد تقدّمَ أيّوب دربًا طويلاً.

وَهمُ العِلمِ الكلّيّ

بدأ الله بالإجابة على سؤال أيّوب. في الواقع لقد أصغى الله بصمتٍ منتظرًا أن تتكشّفَ المحادثةُ بين أيّوب وأصحابه، ومُعطيًا أفضلَ العقول فرصةً لتحاول أن تحلّ الغموض. لكن بدا أنّ لا أحد منهم شَعَرَ ما شعرَ به أيّوب، وعلى مدى أيّامٍ كانت أفكارُهم تغرسُ إسفينًا أعمقَ بينهم وبينه.وإذ بدأ الله كلامَه تحدّى أيّوبَ أن يواجه لبَّ المسألة، الأمر الذي انتظره أيّوب طويلاً.

«مَنْ هذَا الَّذِي يُظْلِمُ الْقَضَاءَ
بِكَلاَمٍ بِلاَ مَعْرِفَةٍ؟
أُشْدُدِ الآنَ حَقْوَيْكَ كَرَجُل،
فَإِنِّي أَسْأَلُكَ فَتُعَلِّمُنِي»

(أيّوب ٣٨: ٢ و٣).

coptic-books.blogspot.com

لا بدّ أنّ هذا الرّدّ الصاعق كان آخر ما توقّعه أيّوب من الله، إذ حين يُسألُ أيٌّ كان عن مشكلة الألم يبدأُ يفلسفُ جوابه الخاصّ. فنحن جميعًا لدينا مَيلٌ مُزمنٌ لتقديم حلولنا الخاصّة. بدأ الله بخطوةٍ مدهشة جدًّا يسألُ أيّوب، وفي الحقيقة لقد طرح عليه حوالى أربعة وستّين سؤالاً، واحدًا تلو الآخر، واضطّره أن يكشف مخزونه المتواضع من اليقينيّات.

«أَيْنَ كُنْتَ حِينَ أَسَّسْتُ الأَرْضَ؟
أَخْبِرْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ فَهْمٌ.
مَنْ وَضَعَ قِيَاسَهَا؟ لأَنَّكَ تَعْلَمُ!...
هَلِ انْتَهَيْتَ إِلَى يَنَابِيعِ الْبَحْرِ،
أَوْ فِي مَقْصُورَةِ الْغَمْرِ تَمَشَّيْتَ؟
هَلِ انْكَشَفَتْ لَكَ أَبْوَابُ الْمَوْتِ؟...
أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَيْثُ يَسْكُنُ النُّورُ؟
وَالظُّلْمَةُ أَيْنَ مَقَامُهَا؟...
أَتُخْرِجُ الْمَنَازِلَ (الكواكبَ) فِي أَوْقَاتِهَا...؟
مَنْ وَضَعَ فِي الطَّخَاءِ (القلبِ) حِكْمَةً،
أَوْ مَنْ أَظْهَرَ فِي الشُّهُبِ (العقل) فِطْنَةً؟
أَتَعْرِفُ وَقْتَ وَلاَدَةِ وُعُولِ الصُّخُورِ،
أَوْ تُلاَحِظُ مَخَاضَ الأَيَائِلِ؟»

(أيّوب ٣٨: ٤ و٥، ١٦ و١٧، ١٩، ٣٢، ٣٦؛ ٣٩: ١)

هكذا توالت الأسئلة العديدة تاركةً أيّوب عاجزًا عن الكلام. لقد بنى أيّوب كلّ مناقشته على حقيقة حاجته لمعرفة ما الذي كان يجري، إذ فقط على أساس تلك المعرفة يمكنُ لحيرته أن تتبدّد. وذكّره الله كخطوةٍ أولى أنّ هناك ألفَ أمرٍ وأمرٍ ممّا لا يفهمه بالكامل بل يسلّم به جدلاً.

coptic-books.blogspot.com

يتعلّم الأطفال هذه الخطوة الأولى الحيويّة باكرًا من حياتهم. هل لاحظتَ أنّه في كلّ قصّة خرافيّة هناك شرط؟ «إن لم ترجعي قبل كذا وكذا، ستصبحين كذا وكذا.» لكن لاحظ بعد ذلك أنّ الشخص لا يسألُ مطلقًا العرّابة الجنّية «كيف جرى؟» إذ عندها يمكن للعرّابة الجنّية منطقيًّا أن تجيب: «إن كان ذلك ما تريده، إذًا أخبرني كيف جرى أن توجَدَ أرضُ الجنّ؟»[٧]

ينبغي أنّ ضخامةَ ودقّة الكون تجعلنا متواضعين بأفضلِ معنًى للكلمة. وكلّما علِمَ المرء أكثر، وَجَبَ أن يكون أكثر تواضعًا لأنّ مستتبعاتِ المعرفة تذكّرنا باستمرار باتّساع وتعقيد الحقيقة المطلقة: ولادة الطفل، إرضاعه من ثدي أمّه، لا محدوديّة محبّة الأم، عجب النموّ إلى النضج، تعقيد الدماغ المذهل، سحر الجنس.

روى ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton قصّةً مؤثّرة اسمها «الساحر» *The Magician*، وهي أمثولةٌ عن ساحرٍ زارَ مدينةً وكان يؤدّي عددًا من الخدع ليسلّي الجمهور. وبينما كان الجميع مستمتعين كلّيًا بأدائه، أصرّ باحثٌ شابٌّ جالسٌ في مقدّمة القاعة على إيجاد تفسيره الخاصّ لكلّ خدعة. وابتدأ الساحرُ يغتاظُ، وتوصّل أخيرًا إلى خدعة سيجدها هذا المفكّرُ لا تُفسَّر، فدعا إليه المحلّلَ الشاب وسأله: «ماذا كانَ لونُ الضوء خارج بيتك عندما غادرتَ؟» فأجاب أنّه كان ضوءًا أحمر، فقال له الساحر: «اركض إلى بيتك الآن، وفيما أنت تركض سأحوّلُه إلى أخضر.» فردَّ الشاب: «لن تستطيعَ فعلَ ذلك»، وجاء الجواب: «نعم، أستطيع، وسأفعل.» بدأ الشاب يركض باتّجاه منزله وحين أصبح على مسافة بضعة أقدام منه رأى الضوء يغيّر لونه، فاستدار، مشدوهًا كلّيًّا، وركض راجعًا إلى الساحر، «حسنًا، كيف فعلتها؟» نظرَ إليه الساحر وقال: «أنا فقط أرسلتُ ملاكَين ليغيّرا المصباح.» وجاء الجواب: «هذا هراء، أخبرني كيف فعلتَها.» ورغم احتجاج الباحث بضراوة، تلقّى الجواب عينه: «أرسلتُ ملاكَين ليغيّرا المصباح.» انسحبَ الشاب إلى مختبره العلميّ محاولاً أن

coptic-books.blogspot.com

يصلَ إلى كيفيّة تحويل الضوء الأحمر إلى أخضر، وأصبح مهووسًا بهذا المطلب حتى جُنَّ أخيرًا. فجاءت شقيقاتُه إلى الساحر وناشدنَه أن يكشف خدعتَه هذه المرّة فقط عسى أخوهم يستردّ سلامةَ عقله، فقال: «لكنني سبَقَ وأخبرتُه الحقيقة.» «حسنًا إذًا، لماذا لا تخبره شيئًا غير حقيقيٍّ لكنّه يبدو منطقيًّا؟ ذلك على الأقلّ سيُرجع له عقله.» وافقَ الساحرُ على مضضٍ واختلق تفسيرًا لخدعته، الذي قبِلَه الشابُّ بطيب خاطرٍ، واستردَّ سلامةَ عقله في الحال.

كان التعليق اللاذع لتشسترتون أنّ ذلك النّاقد كان في الواقع أكثر عقلاً عندما لم يكن يملك تفسيرًا لتحوّل اللون الأحمر إلى أخضر، وحين قبلَ من الكذب ما اعتقدَه تفسيرًا مناسبًا، كان في حقيقة الأمر مجنونًا فعلاً.[٨]

عندما كنتُ أتكلّم في قريةٍ في ڤيتنام Vietnam منذ عدّة سنوات كان معظمُ الحضور من الفقراء، والكثير منهم أميّون. شاركتُهم قصةً تُروى كثيرًا في الهند، تتحدّث عن رجلٍ كان جالسًا تحت شجرةٍ مليئةٍ بالجوز فتطلّع إلى الشجرة وكلّمَ الله ساخرًا: «لا أظنّك ذكيًّا كفاية، فقد جعلتَ شجرةً كبيرةً تحملُ جوزًا صغيرًا، ونباتًا صغيرًا يحملُ بطّيخًا كبيرًا، يبدو أنّ ليس لديك تقييمٌ جيّد للنِّسب.» وفي تلك اللحظة سقطت جوزة صغيرة من الشجرة وأصابته في رأسه، فتوقّف وغمغمَ «الحمد لله أنّها ليست بطّيخة!»

كان مبهجًا حقًّا سماعُ دويّ الضحك الذي انفجر، ورؤيتُهم يلكزون واحدُهم الآخر بحماسٍ كأنّهم يهنّئون أنفسَهم لكونهم على صوابٍ تامٍّ في بساطتهم.

لم أقصد بهذا أن أزدري أو بأيّ شكلٍ أهزأ بالثقافة وأُمجّدَ الجهل، بل فقط أن أصدّع الفخرَ المغالى فيه الذي ينتحلُ ثقةً عاليةً بالنّفس بناءً على وهم العلم الكليّ. هل يعني هذا كلُّه أن ليس على العقل أن يسعى في فَهم عظَمة الكون؟ طبعًا لا، بل فقط ينبّهنا لنُبقي على الاندهاش ونتذكّر محدوديّتنا.

coptic-books.blogspot.com

لقد قال الله ما فحواه: «لا تفترض أنّك تقبل فقط الأمور التي تفهمها بشكلٍ كامل»، وأشار بوضوح إلى أنّه قدّمَ دليلاً كافيًا عن قدرته وإبداعه في الخليقة. ليس منطقيًّا أنْ نلتمسَ المعرفة الشاملة على أنّها الأرضيّة الوحيدة للإيمان، فهناك عالمٌ من الفرق بين الكلمتين «كافٍ» و«شامل»، وما لم نعرف ذلك الفرق سنبقى نتخبّط في أرضٍ غامضةٍ نعرجُ بين الألوهيّة والمحدوديّة.

اعتاد فرانسيس تشافر Francis Schaeffer أن يقدّم إيضاحًا مناسبًا جدًّا حول هذا الموضوع:

افترض أنّك غادرتَ منزلك صباحًا تاركًا على طاولتك كأسين، الكأس «أ» وفيه ٦٠ ملليلتر من الماء، والكأس «ب» فارغ. وعندما عدتَ إلى المنزل مساءً لاحظتَ أنّ الماء موجودٌ في الكأس «ب» بينما الكأس «أ» فارغ، وأكثر من ذلك، عندما قستَ الماء في الكأس «ب» لاحظتَ وجودَ ما يُقارب ١٢٠ ملليلتر من الماء وليس ٦٠. قد تستنتج أنّ أحدَهم نقلَ الماء من «أ» إلى «ب»، لكن بإمكانك أيضًا أن تكون متأكّدًا أنّ الماء في «ب» لم يأتِ كلّه من «أ» إذ لم يكن فيه سوى ٦٠ ملليلترًا، ويحتاجُ الماء الإضافيّ إلى تفسيرٍ آخر.

ربّما يفسّر العلمُ «٦٠ ملليلترًا» من هذا الكون، لكن يبقى الكثير ممّا هو خارج نطاق العلم.

قامَ باحثون بارزون، مثل ميشيل پولاني Michael Polanyi، أحدُ ألمع فلاسفةِ العلمِ في هذا القرن، بتنبيه مَن يشتغلون في العلوم ألّا يتعامَوا عن مسلّماتهم الخاصّة اللّاعلمية[٩]. لقد طالبَ الله أيّوب أن يقرَّ بمحدوديّته ويترك لله أن يكون الله، ويُصرّ الله على أنّ تلك الحدود موجودة وينبغي أن توجد.

coptic-books.blogspot.com

لكنَّ الله مضى بأيّوب أبعد من مجرّد جَعله يفكّر بأنّ كلّ ذلك كان واسعًا جدًّا بالنسبة له، فقد أراده أن يدرك أنّ الله نفسه الذي أوجَدَ تناسقًا وجمالاً في عالمٍ أبدَعَه من العدَم، يستطيع أن يُخرجَ تناسقًا وجمالاً من انكسار أيّوب.

تمّ تذكير أيّوب بأنّ الكون معقّدٌ ومفهومٌ معًا[١]؛ توجدُ فطنةٌ في التّصميم، كما توجد أيضًا فطنةٌ في مساعدتنا على اجتياز الألم.

فكِّر للحظةٍ في السيناريو المعاكس في عالم لا إلهَ لَهُ. إنّ تجريد الكون من مسبّبٍ أول ذكيّ يتركنا مع قدرةٍ غاشمة وراءَ كلّ شيء؛ وأنا لا أستطيع التفكير في خبرٍ أسوأ من هذا للبشريّة. تذهلني سذاجةُ من يظنّون أنّ إثباتَ وصول الحياة بالصّدفة إلى هذا الكون سيشكّلُ نصرًا للشكوكيّين، فذلك يشبهُ القولَ لشابٍّ: «أنت لست فعلاً الولد الذي نوَينا الحصولَ عليه، لكن بما أنّك هنا، دعنا نحقّق الأفضل في ذلك.» أنا لن أرغب أن أكون على الطرف المتلقّي لهذا الكلام، لذا كان أول ما تناوله الله مع أيّوب هو تذكيره بأنّه ليس يتكلّم في الفراغ، بل يُصغي إليه فكرٌ وقدرةٌ أعظم منه بلا قياس.

الكشف عن الرّاحة

بعدَ ترك أيّوب ليتأمّلَ مليًّا حقيقة أنّ الله هو الخالق والمصمّم، أتى الله إلى أيّوب كمُعلنٍ ومعزٍّ. وكان جوابُ أيّوب المتواضع قوله: «بسمع الأذن قد سمعتُ عنك والآن رأتك عيني، لذلك أرفض وأندم في التّراب والرّماد» (أيّوب٤٢: ٥ و٦).

إنّ المعرفة والاستماع والقراءة لها مكانها، لكن لا بدَّ أن تأتي لحظة استسلامٍ شخصيّ. إنّ التزامَنا بالله يملكُ ما يكفي من الحقيقة الموضوعيّة بحيث يمكننا التحقّق من ادعاءات هذه الحقيقة. فالكتاب المقدّس ليس كتابًا وهميًّا عن تبصّراتٍ روحيّة مستحضرةٍ من قِبَل حالمين، إذ هناك توكيدات تاريخيّة، جغرافيّة، وفلسفيّة يمكن قياسها والتأكّد منها من قبل

coptic-books.blogspot.com

المؤرّخ وعالم الآثار والفيلسوف على التّوالي، لكنّ نقطةَ التّواصل الحقيقيّ هي عندما تتحوّل معرفةُ الشخص «الثالث» – أي المعرفة عن الله – إلى ثقة الشخص «الأول» بالله والالتزام بمشيئته، وفقط حينها يؤدّي الفهمُ الشخصيُّ إلى تحوّلٍ في الموقف.

لقد ارتكب الشعب العبريّ في القديم خطأً فادحًا إذ بدلاً من قبول المسؤوليّة الروحيّة والمجيء إلى الله مباشرةً، أرادوا أن يمثّلهم موسى أمام الله. وبعدها طلبوا مَلِكًا يحرّرهم من المسؤوليّة السياسيّة، في حين قال الله أنّه هو يرغب أن يكون ملِكًا لهم. باختصار، هم لم يريدوا تماسًا مباشرًا مع الله.

إنّ تاريخ الكنيسة مفروشٌ بأطلال الوسطاء المدّعين الذين سلبوا الإنسان العاديّ امتياز المجيء إلى الله مباشرةً. والضّررُ الذي لحِقَ البشريّة والمسيحيّة جراء ذلك لا يُقدّر، لكنّ الأمر لا يتعلّق فقط بالمدّ والجزر في التاريخ، بل أيضًا بما يفترضه الكثيرون في أنّ الله لا يُعرَف أو بعيدٌ جدًّا.

يذكّرنا الكتاب المقدّس أنّ الله بنعمته يدعونا أن نأتي إليه على مستوًى شخصيّ، وهو يمدّ يده لكلّ رجلٍ، امرأة، وطفل، ويقول: «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» (متّى ١١: ٢٨).

نادرًا جدًّا ما أحبّذ أن أذكرَ نقطة التحوّل في حياتي الخاصّة، لأنّها مسألةٌ خصوصيّة جدًّا ولا يزالُ التفكيرُ بها يؤلم أحيانًا، هذا إن لم نقُل شيئًا عن الإحراج الذي تسبّبه لعائلتي. لكن لا يمكنني مقاومة التفكير في تلك اللحظة الأكثر حدّة من ماضيّ. كنتُ في السابعة عشرة من عمري عندما، دون شدّةٍ عظيمةٍ ولا كربٍ عظيم، وصلتُ إلى إدراك أن ليس للحياة معنىً يُذكَر، وكلّما تأمّلتُ أكثر في مضامينها القاسية كلّما دنوتُ من قرارٍ، وذلك القرارُ كان اختيار طريق الانتحار. وجدتُ نفسي بعد تلك المحاولة مستلقيًا في سرير مستشفى، كنتُ قد لفظتُ كلَّ السم الذي تناولتُه لكن من غير المؤكّد إن كنتُ سأتعافى. وهناك على ذاك الفراش، بجسمٍ متجفّفٍ،

coptic-books.blogspot.com

قُرئ لي الكتابُ المقدَّس، وفيضانُ قلبي بأخبار أنّ يسوع المسيح يمكن أن يأتي إلى حياتي وأنّ بإمكاني أن أعرفَ الله شخصيًّا، جابَهَ الأعماقَ التي إليها غمرتني الحقيقة؛ في تلك اللحظة أصبحَ التغيّرُ من قلبٍ يائسٍ إلى قلبٍ وجدَ مِلءَ المعنى واقعًا بالنسبة لي.

لقد تعاملَ الله مع شابٍّ في سرير مستشفى في مدينةِ نيودلهي New Delhi، مدينة ضخمة تعجّ بالملايين. تخيّل! إنّ الله اهتمّ كفايةً ليسمعَ صرختي. كم مذهلٌ أنّ لديه اهتمامًا شخصيًّا بصراعات حياتنا، ولا يمكنني التعبيرُ عن ذلك بأفضل من القول أنّ اكتفاءه الذاتيّ وعظمتَه لا تأبى علينا الفرحَ الرائع بأن نكون محقَّقين في فرديّتنا وعالمين أنّنا ذوي قيمةٍ فريدةٍ بالنسبة له. هذا هو مغزى المَثل الذي رواه يسوع عن الراعي الذي ترك التسعة والتسعين خروفًا في الحظيرة وذهب يبحث عن الواحد.

إنّ اتّساع الكتاب المقدَّس في مضامينه للتاريخ ولكلّ البشريّة لا ينبغي أن يُنقِصَ أبدًا من تطبيقه الشخصيّ.

كان لا بدّ أن يأتي بمثابة إعلانٍ لأيّوب أنّ معظمَ معرفته عن الله كانت من خلال أفكار الآخرين – أفكارٍ لم تُتابَع شخصيًّا – وهكذا كان حال أصدقائه أيضًا، أغنياء في التلميحاتِ عمّا قالَه الآخرون، لكن فقراء في معرفتهم الشخصيّة بالله.

هذا كان نفسَ الضّعف السافر في حياة بطرس الرسول والذي لفتَ يسوع انتباهَه إليه. لقد اقتبس بطرس بسرورٍ ما قاله الآخرون عن يسوع، لكنّ يسوع سأله: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟»(مرقس ٨: ٢٩). لهذا لا أحدَ يتكلّم عن دمار الخطيّة بذات نفوذ مَن اختبرها، ولا أحدَ يعرف القدرة المُحيية لله قدرَ من مَشى طريقَها: «بِسَمْعِ الأُذُنِ قَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ، وَالآنَ رَأَتْكَ عَيْنِي.» ليس الله إلهَ القدرةِ في الخلقِ فقط، بل هو الإله الحاضر في محنتِنا، هو لم يتخلّ عن أيّوب، بل كان معه شخصيًّا.

coptic-books.blogspot.com

إلى أن يُرى الألمُ في سياقٍ شخصيّ ويُشعَرَ بالجواب عليه شخصيًّا، سيظلّ كلُّ حلٍّ آخر مهما كان جيّدًا يبدو أكاديميًّا، وستقعُ كلُّ الأجوبة التي تُقدَّم إلى شخصٍ متألّم على أذنٍ صمّاء ما لم يصل ذلك الشخصُ إلى إدراكٍ شخصيٍّ أنّ الله تكلّمَ وأعلن ذاته في كلمته أولاً ثمّ في خبرة ذلك الشخص الخاصّة.

منظورٌ معاكسٌ

مع وصوله إلى تلك النقطة، انتقلَ تركيزُ أيّوب إلى اكتشافٍ جديد، فهو كان قد سأل سابقًا: «إِنْ مَاتَ رَجُلٌ أَفَيَحْيَا (ثانيةً)؟» والآن أصبح قادرًا على الإجابة على سؤاله بثقةٍ وطيدة (أيّوب ١٩: ٢٥ – ٢٧):

«أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ وَلِيِّي (فاديّ) حَيٌّ،
وَالآخِرَ عَلَى الأَرْضِ يَقُومُ،
وَبَعْدَ أَنْ يُفْنَى جِلْدِي هذَا، وَبِدُونِ جَسَدِي أَرَى الله.
الَّذِي أَرَاهُ أَنَا لِنَفْسِي، وَعَيْنَايَ تَنْظُرَانِ وَلَيْسَ آخَرُ.
إِلَى ذلِكَ تَتُوقُ كُلْيَتَايَ (قلبي) فِي جَوْفِي.»

كلُّ معاناةٍ يجب التّعامل معها شخصيًّا، لكن مع فهمٍ حقيقيٍّ أنّ هناك حياة ما بعد القبر؛ فكِّر فقط في ثقة أيّوب «بعد أن يفنى جلدي بدون جسدي أرى الله.» هناك منظورٌ من جانب الله لا يستطيع رؤيته مَن هُم محبوسون في إطارٍ مرجعيّ زائل، فالموت لم يكن سيقطع شركة أيّوب مع الله. قال أحد كتّاب الترانيم: «يا ربّ، اجعلني أرى هذا العالم كما لو كنت أنظر من خلال عينيك.»[١١]

عندما كان النّبي حبقوق يصارع مع كلّ العنف الذي رآه حوله، طلبَ من الله أن يشرح له، وانتهى بالقول: «يَجْعَلُ قَدَمَيَّ كَالأَيَائِلِ وَيُمَشِّينِي

coptic-books.blogspot.com

عَلَى مُرْتَفَعَاتِي» (حبقوق ٣: ١٩). فقد رأى المعاناةَ البشريّة ولأول مرّةٍ من موضع أفضليّةٍ لم يره قبلاً قطّ – من منظور الله.

عبّر عن ذلك بشكلٍ جميلٍ الشاعر المشهور والمعذّب، وليام كوپر William Cowper، كونَه عانى كثيرًا في حياته:

«الشكّ الأعمى سيخطئ حتمًا،
ويتفحّصُ عبثًا أعمالَ الله؛
الله يترجمُ لنفسه،
وهو يجلو أعمالَه.»[١٢]

لقد أُخِذَ أيّوب خطوة بخطوة من تمييز الخالق والمصمّم، إلى لقائه كالمُعلِن والمُعزّي، وأخيرًا معرفته كالوسيط والمخلّص. كان بإمكان أيّوب أن يفهم هذه الحقيقة الرّائعة بصورةٍ محدودةٍ فقط، أمّا الذين ينظرون منّا إلى الصليب فلديهم فهمٌ أعمق للمعنى العظيم لكلمة «مخلِّص».

قليلٌ ما عرفه أيّوب عن يوم آتٍ فيه سيعاني الطاهرُ الذي ليس فيه خطيّة، ويموتُ، بحيث نحصلَ نحن الذين عشنا في الخطيّة على راحته وطهارته.

تُروى قصةٌ مؤثّرة عن واعظ مشهور فقَدَ زوجته الشابّة، ووسط صدمة ولوعة فقدانها أتت إليه ابنتُه الصغيرةُ وسألته: «لماذا إن كان المسيحُ ماتَ عن خطايانا ما زال علينا أن نموت؟» فتريّث ريثما يجدُ إيضاحًا مناسبًا يساعدُ به عقلها الصغير على فهم ما فعله الله لأجلنا. وفي الطريق إلى الجنازة مرّت سيّارتهم بجوار شاحنةٍ كبيرة، فلَفَتَ انتباهَ ابنته إليها وسألها إن كان لا بدّ لها أن تُدهَس، أتفضّلُ أن تمرَّ فوقَها الشاحنةُ أم ظلُّها المتشكّلُ على جانب الطريق، فقالت: «بالطبع سيكون الظلّ أفضل لأنّه لن يؤذي»، فانتظر قليلاً وأجابها بلطف: «هذا ما فعلَه يسوع لأجلك، لقد جعلَ شاحنةَ دينونة الله تمرّ عليه، والآن يمرّ علينا فقط ظلّ الموت.»

coptic-books.blogspot.com

إنّ المسيح، بأخذه مكاننا على الصليب وإزالته الفاصل بين الله مانح الحياة، والبشريّةِ التي تستحقّ الموت، اجتاز الهوّة الأعظم. إنّ عطشَنا لوسيطٍ أمام الله هو صرخةٌ أصيلةٌ عُبِّرَ عنها في الواقع في كلّ ديانةٍ تؤمنُ بوجودِ إلهٍ.

بالنسبة للأغلبيّة إنّ الله الكائن بعيدًا هناك، يعامَلُ على أنّه لا يزال بعيدًا هناك، وبالنسبة لآخرين إنّ المسعى لتقريب الله دون جعله بشريًّا، يشكّلُ صراعًا استثنائيًّا. وهكذا في الميثولوجيا اليونانيّة يتكاثرُ الأبطالُ وتجسيدُ المُثُل، وفي مذهب وحدة الوجود (كالهندوسيّة) تشكّل تجسّداتُ الآلهة معظمَ الرؤيا. أمّا في الإيمان المسيحيّ فحقيقة أنّ الله يقتربُ بينما يبقى متعاليًا هي حقيقةٌ فريدةٌ جدًّا.

يبقى مقدارُ فهم أيّوب لهذه الحقيقة موضعَ نقاشٍ، لكنّ صرختَه، في فهمه البدائيّ، لأجل مخلّصٍ يفهم معاناته، يدافع عن قضيّته ويبرّئه، أمرٌ جديرٌ بالذِّكر.

باختصار، أكّدَ هذا الاكتشاف إحدى قناعات أيّوب، لكنّه لاشى جانبًا من نظريّته اللاهوتية. لقد كرّر أيّوب مرارًا أنّه على حدّ علمِه عاش حياةً فاضلةً، لكنّه افترض إلى جانب ذلك أنّه إن سلكَ أحدٌ الطريق المستقيم والضيّق وعاش حياة النّقاوة، فسيتبعُ ذلك بشكلٍ طبيعيّ الازدهارُ والحريّة من الألم. وكان ذلك استنتاجًا مخطئًا.

على مرّ سنيّ التاريخ رأينا هذا الاستنتاج المؤسف مرّة تلو المرّة. ويمكننا أن نتذكّر أنّ يوحنا المعمدان عندما سُجِنَ تساءل إن كان المسيح هو فعلاً مَن يقول عن نفسه أنّه هو، وكان المقصود: «إن كان هو المسيّا فلماذا أنا في السجن؟» والرسول بطرس لم يستطع لوهلةٍ أن يستوعبَ ذهاب ابن الله إلى الصليب.

coptic-books.blogspot.com

رغم صعوبة قبول هذا، فالألم ليس دائمًا ناتجًا عن خطيّة شخصيّة، لكن دائمًا يجب التّعامل معه بشكلٍ شخصيٍّ. لقد حملَ ربُّنا نفسُه ألَمَ ما لم يفعله هو، إنّما كُمِّلَ رئيسُ خلاصنا بالألم، فلا ينبغي أن يُنظَرَ للحياة من خلال مراحل معزولة من الصّراع الشخصيّ للمرء. فهناك صورة كبيرة وصورة كاملة يتوافقُ ضمنَها صراعُنا الشخصيّ، تلك الصورة هي في ذهن الله وكلّما اقتربنا منه اتّضحت تلك الصورة، وجزءٌ من تلك الصورة هو الألم والعُزلة.

لكن إن كانت نظريّة أيّوب اللاهوتيّة تبعثرت، والصورة التي رآها أخبرته أنّه حتى البارّ قد يعاني الألم والأذى، فما الأمر الوحيد الذي احتاج أن يعرفه أكثر من أيّ أمرٍ آخر؟ هنا سنجد الجواب الذي أكثر ما احتاجه أيّوب والذي نحتاجه نحن بنفس القدر عندما نمرّ في ورطة، وأفضل ما أقدّم به هذا الجواب هو القصّة الإيضاحيّة التالية:

منذ بضع سنواتٍ، إذ كان لي امتياز الكلام في معهد مودي للكتاب المقدّس Moody Bible Institute، حصلنا على بركةٍ غير عاديّة بالاستماع إلى حديثٍ للأستاذ تشارلز كوپر Charles Cooper الذي كان يدرِّس هناك. جلسَ على كرسيٍّ بينما أخبرنا قصتَه التي كانت لا تزال حيّةً في ذاكرته وفي ذاكرة مَن عرفوه. تكلّمَ عن الإثارة التي شعر بها كونه متزوّجًا حديثًا وعن بهجة الحبّ الفتيّ، لكن بعد زواجه بأربعة أشهر فقط ضربت المأساة. كانت زوجتُه عائدةً من رحلةٍ، وذهب مع حماته إلى المطار لاستقبالها. وحين حطّت الطائرةُ رأوا سيارات الإسعاف والشرطة تدنو من مؤخّر الطائرة، وموظّفي تلك المركبات يركضون صاعدين الدّرَج الخلفيّ. لكنّ تركيز تشارلز كان منصبًّا على مقدّم الطائرة من حيث ستترجّل زوجته، وفجأةً أمسكت حماتُه بذراعه وأشارت إلى حمّالةٍ خارجةٍ من الباب الخلفيِّ للطائرة وكان واضحًا أنّ عليها جسدًا مغطى بملاءة بيضاء. لكن لم يكن هذا كلّ شيء إذ تدلّت من النقّالة حقيبة ميّزوها أنّها حقيبة زوجته. وبعد لحظاتٍ قليلةٍ نوديت أسماؤهم عبر مكبّرات الصوت، وكانت

coptic-books.blogspot.com

الصدمة حين أُبلِغوا أنّه قبل الهبوط بوقتٍ قصير، ودون أيّة سوابق لحالةٍ مشابهة، عانت زوجته من نوبةٍ قلبيّة قاتلة.

كيف يتجاوب الإنسانُ مع أخبارٍ مفجعةٍ كهذه؟ سارَ بنا تشارلز كوپر عبرَ رحلته مع الألم، وسيرنّ تعليقُه الختاميّ في أذنيَّ دائمًا، قال أنّ البطاقات، الرسائل، المكالمات الهاتفيّة، العناقات، ومحبّة الأصدقاء، كلّها لعبت دورًا في مساعدته على الاستمرار، «لكن ما أبقاني مستمرًّا أكثر من أيّ شيء آخر كان ثقتي في شخصيّة الله.» تلك كانت النقطة الجوهريّة.

هذا هو التّصحيح الذي كان أيّوب بحاجةٍ إليه، إذ بسبب تركيزه المستمرّ على شخصيّته ونقاوته هو، فقدَ رؤيته لشخصيّة الله.

إنّ مَن مشَوا هذا الدرب يتمسّكون بكلّ قوّتهم بتلك الحقيقة، فالله ليس فقط كليّ القدرة، بل هو كاملُ الصّلاح وعلينا أن نثقَ به حتى في الأوقات المتجهّمة.

في النهاية، اكتشف أيّوب أنّ الله خالقَه ومصمّمَه، المُعلنَ له ومعزّيه، وسيطَه ومخلّصَه، هو أيضًا مقوّيه ومُحييه.

لحظة الانتصار

نجدُ في خاتمة سفر أيّوب إثارةً وخبرةً أبعدَ من كلّ ما قد نكون توقّعناه.

أصبح أيّوب الآن مُدركًا تمامًا حقيقة أنّ كلَّ مشكلة الألم كانت بالفعل أبعدَ من فهمه، وأنّ معرفتَه بالله كخالقٍ، مُعلنٍ، مخلّصٍ ومُحيي، كانت كافيةً ليتجاوزَ ما لم يعرفه. على أيّة حال، بالإضافة إلى ما سبق كانت هناك المفاجأةُ الأعظم، فقد وبّخَ الله أصدقاء أيّوب بشدّةٍ للدّور الذي لعبوه، وكان عليهم أن يرجعوا إلى أيّوب ليس فقط من أجل الغفران، وإنّما ليطلبوا منه أن يتوسّط لصالحهم لينالوا غفران الله. وبكلماتٍ أخرى، إنّ

coptic-books.blogspot.com

ذاك الذي توسّل لأجل وسيطٍ في محنته الخاصّة، أصبح هو نفسُه وسيطًا يسدُّ الفجوة بين أصدقائه الواسعي المعرفة وبين الله.

يقولُ الإنجيلُ عن ربّنا يسوع أنّه كونَه تألّمَ صار قادرًا أن يشفع فينا. وإلى حدٍّ بسيطٍ، أُعطيَ أيّوب لمحةً عن قلب الله عن طريق تمثيله لرفاقه أمام الله، وتمامًا كما أنّ يسوع عندما خانته خاصّتُه وقفَ موضعَ الشفاعة لأجلهم، وكما أنَّ يوسف بعد أن خانه إخوته وقفَ موضعَ الغفران لهم واستحيائهم، هكذا تشفّع أيّوب لأجل رفاقه. وكما قرّبَه فاديه من الله، لعبَ هو ذلك الدور لأجل أليفاز، بلدَد وصوفر.

الكلامُ هنا عن مفهومٍ أعلى، ورؤية الأمور بمنظور الله.

الحقائق التي تحوّلَت

يمكننا استنتاجُ خلاصاتٍ عديدة من هذا الصّراع الهائل الذي مرّ به أيّوب.

أولاً وقبل كلِّ شيء علينا أن نفهم أنّ المعاناة، الموت، المرض، الألم والفقدان، كلّها جزء من الحياة، أبرارًا كنّا أم أثمة.

ثانيًا، نرى أنّ دور الأصدقاء بالغُ الأهميّة في مؤانسةِ الناس وقت كربهم.

دعونا لا ننتقصُ من قيمة هذه النّقطة، ففي الواقع قد يكون جواب الله للقلوب المتألّمة والمرهَقة عبارةً عن كتفَي صديقٍ بينما نحملُ أثقال بعضنا البعض، وبذلك نتمّمُ ناموس المسيح.

ثالثًا، إنّ معظم الأجوبة التي من هذه الطبيعة تستلزمُ مسيرةً. فعلى الأسئلة أن تصبح أقلَّ أنانيّة قبل أن تصبح الأجوبةُ شخصيّةً أكثر، وبالنسبة لأيّوب – ولنا أيضًا – كانت المسيرةُ ضروريّةً بقدر الجواب.

coptic-books.blogspot.com

ألقيتُ منذ عهدٍ قريبٍ مجموعة محاضراتٍ في بومباي Bombay– الهند، عن موضوع **الله** ومشكلة الألم. وجاءني بعدها رجلٌ وحدّثني عن مأساةٍ في عائلته، فقد قُتِلَت ابنتُه في حادث تحطّم طائرةٍ منذ بضع سنوات، قال لي: «كنتُ أعتقدُ أنّ الوقت هو الشافي، لكنّي لم أعُد أؤمن بذلك، أنا الآن أؤمن أنّ الوقت فقط يكشفُ كيف يصنعُ **الله** الشفاء.»

رابعًا، لقد تعلّمنا، كما أيّوب، أنّ الجواب على المعاناة مرتبطٌ بالعلاقة مع **الله** أكثر منه جوابًا معرفيًّا. فالذين يعرفون **الله** شخصيًّا ويفهمون الصليب، أكثرُ قدرةً على إيجاد العون في ساعات النفس المظلمة من الذين يعالجون مشاكلهم بشكلٍ فلسفيٍّ صرفٍ. وإنّ مَن عانى كثيرًا، رجلاً أو امرأة، يشكّل شبيهًا بالفادي لمَن خلَت حياتُهم من مسيرٍ قريبٍ مع **الله**، والذين ربّما ليس لديهم سوى أجوبة سطحيّة.

قال لي مرّةً قائدٌ مسيحيٌّ معروف: «عندما تبحث عن الحكمة، ابحث عن شخصٍ عانى كثيرًا وبقيَ إيمانُه ثابتًا.» رأيتُ هذا المبدأ عمليًّا منذ بضع سنواتٍ عندما كنت أزور نانجينغ Nanjing – الصّين مع صديقٍ لي. كان لنا الامتياز العظيم بقضاء بضع ساعاتٍ مع أحد مُبشّري الصّين الأكثر شهرة، وانغ مينغ تاو Wang Ming Tau، وكان لديه قصّة مذهلة عن سجنه في ظلّ النظام الظّالم لِـ ماو تسي تونغ Mao Zedong. كان وانغ قد حُجِزَ بسبب إيمانه بالمسيح، ولعدم قدرته على مواجهة السجن مدى الحياة أنكرَ إيمانَه وأُطلق سراحُه. وحين أصبح حرًّا عرف أنّه خان ربّهُ، وتضايق جدًّا من فشله، فقرّر أنّه إن كانت الحياة في السجن هي إرادة **الله** له فسيقبلها بكلِّ سرور. وبتعهّدٍ جديدٍ لربِّه مشى في شوارع بكين Beijing صائحًا: «اسمي بطرس، أنا خنتُ ربّي! اسمي بطرس، أنا خنتُ ربّي!» وكما توقّعَ، قُبِضَ عليه مباشرةً، واحتمل الألم لأجل المسيح تسعة عشر عامًا خلف القضبان. وعندما انتهى من إخبارنا قصّتَه سألَنا أن نرنّم معه تسبيحةً كان يرنّمها كلّ يومٍ في السجن.

coptic-books.blogspot.com

جسمُه هرمٌ، يداه مليئتان بالعُقَد، وزوجته بجانبه شبه عمياء، رنّمَ:

كلّ الطريقِ مخلّصي يقودني
ماذا لي أن أسأل بعد؟
أيمكن أن أشكّ برحمته العطوفة،
مَن طوال الحياة كان لي المرشد؟
سلامًا سماويًّا، راحةً إلهيّة،
هنا بالإيمان فيه أسكن!
لأنّي أعلم، مهما يصيبني،
يسوع يفعل كلّ شيء أحسن.[١٣]

بينما جلستُ في غرفته الصغيرة مُصغيًا إليه يرنّم، لمحتُ الشبّان الثلاثة الذين كانوا في زيارةٍ له، كانوا جالسين على الأرض وقد رفعوا وجوهَهم إليه بينما هو يرنّم، وقبل أن يغادروا سألوه أن يصلّي لأجلهم.

من المؤثّر جدًّا أن يلتمس الشبابُ ذوو الأجساد المعافاة، الصلاةَ من إنسانٍ مُسنٍّ ضعيف. لكن حسب المفهوم الكتابيّ هم قد عرفوا مبدأ المعاناة الافتدائيّة، التي فيها يستطيعُ مَن لمسَ المخلّصُ حياتَه في معاناته الخاصّة، أن يصلّي بأكثر صدقٍ وفعاليةٍ لصالح مَن لم يجتازوا بعد في النّار. أستطيعُ أن أتخيّل أيّوب يبتسمُ موافقًا معي.

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل الرابع

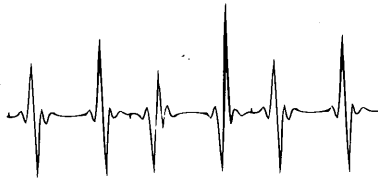

صرخةٌ ضميرٍ مذنبٍ

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

عام ١٩٦٩، وضع سيمون ويزينثال Simon Wiesenthal، المؤلّفُ والناشطُ في قضيّة ضحايا المحرقة الإباديّة Holocaust، كتابَه المحفّز للفكر «زهرة دوّار الشمس» *The Sunflower*. قلّةٌ من الكتابات صوّرت، بمثل ذلك الشعور الخام والفكر النافذ، العذاب الذي اختبرَه شخصيًّا في إحدى أشدِّ لحظات التّاريخ ظلمةً، وكان موضوعُه الصّراع الرّاسخ وغير المفَسَّر الموجود لدينا نحن البشر مع الذّنب. كان الكتابُ من أوّله إلى آخره مضفورًا بهذا الصّراع الهائل في كلٍّ من أفكار الكاتب الخاصّة وأفكار آخرين ممّن تجاوبوا مع بحثه عن جواب. في حالته هو، تفاقمَت المشكلة عندما سُجنَ في معسكر اعتقال.

يروي في قصّته، وهي عبارةٌ عن سيرةٍ ذاتيّة، كيف أُخذَ من معسكر الموت إلى مستشفًى مؤقّتٍ للجيش. وفي يوم أحداثٍ مفاجئة، قادته ممرّضةٌ إلى جانب جنديّ نازيّ كان قد طلبَ أن يُعطى بضعَ دقائق على انفراد مع يهوديٍّ. دخلَ ويزينثال الغرفة بحذرٍ، غير عالمٍ ما ينتظره، ووجدَ نفسه وجهًا لوجهٍ مع رجلٍ ذي جروحٍ مميتةٍ، مضمّدٍ منَ الرأس حتى القدم. التفتَ الرجل ناحيتَه وتكلّم بما يشبهُ همسًا متكسّرًا؛ تحمّلَ ويزينثال متململاً، وهو شبهُ خدرٍ بما يجري ومتسائلٌ إن كان حقيقيًّا أم تخيّلاً، مونولوجًا متوتّرًا فيه أفضى الجنديّ بعبء قلبه من جريمةٍ شنيعةٍ ارتكبها إذ أشعل قريةً لليهود بأكملها، ولم يستطع أن يُسكِت من ذاكرته صرخات الرّجال والنّساء والأطفال الذين احترقوا حتى الموت بسبب نزوته.

ما السبب، إذًا، وراء دعوته هذا الغريب إلى جانب سريره؟ عارفًا بدنوِّ أَجَلِه، كان يصنع جهدًا أخيرًا يائسًا لالتماس الغفران من أحد الذين قتل

coptic-books.blogspot.com

شعبهم. لم يستطع ويزينثال، بينما الرجل يسترحمه، أن يحمل نفسَه على النّطق بهكذا غفران، بل وفي الواقع لقد أراد أن يغادر عدّة مرّات أثناء الاعتراف، لكنّ الضّابط كان يناشده: «أرجوك، ابقَ»، فقد احتاجَ أن يُنزلَ ذلك عن قلبه. لكنّ الصّراع كان مُساويًا في الشدّة على الجانب الآخر، إذ كان ويزينثال يفكّر، كيف بإمكاني بمجرّد نطقٍ أو تلويحة يدٍ أن أحلَّ أيَّ أحدٍ من جريمةٍ ضدّ البشريّة هائلة كهذه؟ لقد فقَدَ ويزينثال نفسُه على أيدي النازيّين تسعةً وثمانين من أقاربه.

لو كان هذا هو كلّ ما يتناوله الكتاب لكان الموضوع آسرًا ما فيه الكفاية، لكن بعد مرور سنوات، تساءل الكاتب إن كان قد فعل الصّواب. أمَا كان عليه أن يريحَ قلب الرجل بقبوله توبتَه على فراش الموت ومنحه الغفران الذي التمسَه بصدق؟ وبعد بحثٍ ذاتيٍّ في النّفس، كتب ويزينثال إلى اثنين وثلاثين رجلاً وامرأة ذوي حظوة، باحثين، علماء اجتماع، علماء نفس، ...وآخرين. ستةٌ وعشرون منهم أقرّوا خيارَه بعدَم منح الغفران المُلتَمَس، وتنوّعت أسبابهم من التّشكيك بحقّه الفرديّ في غفران جريمةٍ ارتُكبَت بحقّ عرقٍ بكامله، إلى التفهّم والتماهي مع نفوره من غفران أفعالٍ مروّعة كتلك. لكنّ ستّةً منهم ارتأوا أنّه كان من الأفضل لو اتّبع الطريق الأسمى ومنحَ العفو عن حصّته على الأقلّ.

يا لها من دوّامةٍ من الشعور الإنسانيّ تدور حول موضوع الذّنب هذا! نواجهُها في عائلاتنا، نتعاركُ بسببها في قاعات المحاكم، نتفلسفُ حولها في صفوف الدّراسة، نحاولُ شرحَها بعلم النفس، نصرخُ عنها من المنابر، نصارعُ معها على انفرادٍ. تشعباتُها نافذةٌ جدًّا وعميقةُ التجذُّر بحيث مضى البعضُ إلى القول أنّ الذّنب هو حجرُ الزاوية في كلِّ عُصابٍ.[1]

الكلُّ يعرفُ، حتى غير المطّلعين على كتابات وليم شكسپير William Shakespeare، عن الصّرخات الكئيبة للّيدي ماكبث Lady Macbeth، التي حرّضت زوجَها في القصّة على اغتيال الملك دنكان Duncan والاستيلاء

coptic-books.blogspot.com

على عرشه. وبعد الجريمة كانت هي مَن أخذت دمَ الملك ورشّته على الحرّاس النائمين لتوريطهم في الجريمة. ثمّ تركّزُ حبكةُ القصّة لاحقًا على اللّيدي ماكبث نفسها، تمشي في نومها ليلةً بعد ليلة، محدّقةً في يديها متوسّلةً: «اذهبي أيّتها البقع اللعينة! اذهبي، أقول لك! واحدة، اثنتان... لا تزال رائحةُ الدّم موجودةً هنا، كلُّ عطور العربيّة لن تُطيّبَ هذه اليدَ الصغيرة، أوه، أوه، أوه.»[٢] وإذ راقبَ الطبيبُ خَطبَها المثيرَ للشّفقة قال: «هذا المرضُ يتجاوز خبرتي.»

تصبح كلمةُ «مرض» والتي هي بالإنكليزية disease معبّرةً بشكلٍ واقعيٍّ جدًّا عندما تحملُ معناها الضمنيّ "dis-ease" أي عدم الرّاحة، والذي يتكلّم عن الصّلة بين الروح والجسد، عن معاناة الشخص الذي لم يعد مرتاحًا في الجسد بسبب عذاب النفس، تلك هي إمراضيّة الذّنب. وربّما كان هذا تمامًا في الذّهن بالنسبة للّيدي ماكبث، إذ قال اللورد بايرون Lord Byron: «أوه، ذلك الغمّ، حيث يكمُنُ ما هو أكثر من الجنون، الدّودةُ التي لا تنام وأبدًا لا تموت.»[٣]

الذّنبُ، في الواقع، هو أحدُ أقدم المشاعر التي عُبّرَ عنها في الكتابة، وقد تمَّ التطرّق إليها في السطور الأولى من الكتاب المقدَّس. بعد القصّة المألوفة عن التجربة في الأصحاح الثالث من سفر التكوين، نقرأُ عن آدم وحوّاء يختبئان من صوت الله الذي يدعو مناديًا: «أين أنت؟»، ولم يُقصَد بهذا السؤال أن يشير إلى مكانٍ بقدر ما إلى حالة. فلا آدم ولا حوّاء استطاعا أن يتحرّرا من الألم الناتج عن اختيار انتهاكٍ متعمّدٍ لوصايا الله.

بشكلٍ مشابه، تحدّثَ داود في المزمور الحادي والخمسين عن الألم في داخله عندما كُشفَ زناه مع بثشبع وقتلُه لزوجها، وشبّهَه بألم الشخص عندما تُكسَر عظامه. ومَن يستطيع أن ينسى الصورة المستحضرة إلى الذّهن بمحاولة بيلاطس البنطيّ غسلَ يديه خشيةَ ذنبِ إرسال يسوع إلى

coptic-books.blogspot.com

الصليب؟ إلى يومنا هذا هناك جبلٌ في سويسرا Switzerland يدعى جبل بيلاطس، وتقول الأسطورة أنّه كثيرًا ما يُرى شبحُه يأتي إلى مياه بحيرة لوسيرن Lucerne ليغسل ذنبَه.

كلُّ الثقافات والدّيانات تصارعت مع الذّنب سواءً بتشبيهه بشبح ملازم، أو روح مجروحة، أو جسد محطَّم. وقد أجبَرَ شعورٌ كونيٌّ كهذا كلَّ كائنٍ بشريّ إمّا إلى التعامل مع هذه البليّة أو إيجاد طريقة مُقنعة لإقصائها. الذّنبُ موضوعٌ يأسر القرّاء، عالجه الكثيرُ من كتّاب الرّوايات العظماء وملأوا صفحاتٍ وصفحاتٍ بالطرق والوسائل التي سعى إليها العقل البشريّ ليتخطّى بها الذّنب، ويشكّلُ راسكولينكوف Raskolinkov في رواية دستويڤسكي Dostoevsky «الجريمة والعقاب» *Crime and Punishment* مثالاً كلاسيكيًّا.

بعد تحليلِ الخدع التي التجأ إليها البعض، أو صدق النيّة الذي واجَه به الآخرون ذنبَهم، تبرز خياراتٌ محدّدةٌ تمامًا لكن محدودةٌ بوضوح. وهناك على الأقلّ ستةُ ردودٍ مختلفةٍ أوجدتها البشريّةُ تجاه معركتنا مع الذّنب.

إقصاء الذّنب بالازدراء

الردّ الأول الذي قد يتبنّاه أحدهم، والكثيرون ينضوون تحت هذا الموقف تجاه الذّنب، هو إبعادُ أيِّ وكلِّ ذنبٍ شخصيٍّ بازدراءٍ سافرٍ. هذه الوقفةُ تجاه الذّنب تفترضُ بجسارةٍ أنّ لا شيء في الحياة مقدّسٌ في الأساس، وأنّ الذّنب جوابٌ شرطيٌّ مُنسِّقُهُ الرئيسيُّ هو الدّين. وبما أنّ الدّين، حسب زعمِهم، هو أثرٌ متخلّفٌ من أزمنة ما قبل الحداثة، ولا شيء يندرجُ تحت تصنيفٍ فعليٍّ للخطأ والصّواب، فيجب أن يُمحى الذّنبُ من قاموس مجتمعنا ويُسخَرَ منه ليغادر الوجود.

coptic-books.blogspot.com

تمامًا مثلما أفسدَ وثنيُّ ما قبلَ الحداثة الدّينَ واستعبدَ نفسَه إلى قيودٍ من التّكرارات الفارغة، هكذا يشوّهُ المادّيُّ العصريّ الدّينَ ويختالُ بزهوٍ يستحقُّ رثاءً مساويًا.

كسبَ هذا الردّ المتعجرفُ شعبيّةً كبيرة، وأجاز سخريةً بالجملة من أمورٍ اعتُبرت يومًا مقدّسةً، وأعراضُ هذا غالبًا ما تتجلّى في حالاتٍ تبدو غير مؤذية، لكنّها تبلغ في النهاية أشدّ أشكال الكره والعنف فتكًا. شاهد البرنامج التلفزيونيّ الاعتياديّ وانظر المشاعر الهازلة المُسبَلة على اللاشرعيّة، الزّنى، النّجاسة ولفيفٍ من أنماط الحياة التي يجدر فيها بعض التّحذير.

إنَّ هزءَ وسائل الإعلام الذي صُبَّ على نائب الرّئيس دان كوايل Dan Quayle، عندما عبّرَ عن قلقه حول احتفال شخصيّةٍ شعبيّةٍ بالأمومة دون زواجٍ بشكلٍ عابثٍ وغير مراعٍ للمشاعر، يؤكّدُ كم يمكنُ لهذا الموقف المُزدري أن يكون مؤذيًا – لدرجة تدمير حياة نُقّاده. وإنّ الهجوم العنيف من قِبَلِ شخصيّات التّرفيه الذين سَخِروا وسفّهوا تعليقات كوايل يتحدّثُ مجلّداتٍ لزمننا. صارَ مقبولاً أنّ الفاتنين والفاتنات، مَن لا شيء مقدّس لديهم، يُهتَفُ لهم كأبطالٍ وبطلاتٍ، بينما يوسَمُ صاحبُ المركز الرفيع الذي دعا إلى اللّياقة بأنّه أحمق.

قد يقبَل المرءُ هذا التتفيهَ للحياة وخياراته لو كنّا جميعًا نوافق عليه، أو حتى لو أنّ مَن يفتخرون به يكونون منسجمين في موقفهم. لكن هذا النّوع من الاستخفاف هو شكلٌ ماكرٌ من الهجوم، فالهازئون لا يلعبون حسب قواعدهم عندما تُدار الطاولة ويُطعَنُ في أمرٍ يعتبرونه هم مقدّسًا.

coptic-books.blogspot.com

إنّ صحّتنا الروحيّة والشعوريّة تتأذى جدًّا عندما نتعامل بلامسؤوليّة مع أمورٍ تُعتبرُ مقدّسةً من قِبلِ الكثيرين، ويكون ازدراؤنا مُكلفًا عندما يواجهُ الحوافَ الحادّةَ للواقع. فعند نقطةٍ ما لا بدّ أن يُعترفَ بالذّنب، وإلا ينتهي المُزدري جانيًا على نفسه.

تذكارٌ تاريخيٌّ كالدّم

في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، تركّزت الأسئلة المطروحة عن موضوع الذّنب حول الحرب العالميّة الثانية وفظاعات المحرقة، وذلك لأنّها لم تزل حيّةً في ذاكرة الكثيرين، وأيضًا بسبب جسامة الإجرام فيها. لذا سأسردُ، ضمن ذلك السياق، مَثَلين إيضاحيّين أحدهما من الواقع والآخر من الخيال، يبيّنا التأثيرَ البغيض للازدراء عندما يُنَحّى الذّنب سواءً في الحقيقة أم في الخيال.

عام ١٩٦٠ دبّر الموسادُ الإسرائيليّ إحدى أدقّ العمليّات في تاريخه عندما تقفّى أثرَ أدولف إيخمان Adolf Eichmann في مخبئه في الأرجنتين، ومن بداية القصّة إلى نهايتها حملت الحبكةُ كلَّ سمات نصٍّ منمَّقٍ مُعَدٍّ للإخراج السينمائيّ. وكان الرجلُ القائمُ على تنفيذ كلّ الخطّة هو پيتر مالكين Peter Malkin، الذي مات العديدُ من أفراد أسرته على يد الرّايخ الثالث، لذلك كان لديه شغفٌ شخصيٌّ بهذا المجهود، وكان لا يزال متألّمًا، على وجه الخصوص، لفقدان أخته وابنها پيتر ذي الأعوام الستة.

بينما أطبَقَ مالكين على صيده، راقب خفيةً مجيء وذهاب أدولف إيخمان في بيته ولاحظ روتينًا منتظمًا، فكلّ يومٍ إذ يعود إيخمان من العمل إلى بيته، يستقبله بحماسٍ صبيٌّ صغيرٌ كان يرفع ذراعيه عاليًا مُرحِّبًا به. وكان مالكين كلّما رأى هذا الاستقبال العاطفيّ يفكّر بابن أخته الصغير، كما أنّه أُخِذَ بتجاوب إيخمان العطوف، فهو لم يفكّر فيه إلّا كأحدِ منفّذي الإبادة البشريّة العديميّ المشاعر.

coptic-books.blogspot.com

أخيرًا، ذات يوم، وُضِعَت الخططُ بدقّة شديدة وتسلّل مالكين من وراء إيخمان وهو في طريقه من محطّة الباص إلى بيته، وبثلاث كلمات بسيطة «Un momentito, señor» جعلَه يلتفتُ إليه، وبسرعة البرق أُقحِمَ إيخمان في سيّارة منتظرة. كانت تلك الكلمات ببساطة «دقيقة واحدة، يا سيّد»، لكنّها حمَلت ثقلَ صرخة مُلحّة من قلب شخص يمثّل الملايين – أن تُقدّمَ حياةُ مجرم إلى العدالة. بقيّةُ القصّة تاريخُ الآن، وقد قادت إلى محاكمة وإعدام الرجلِ الذي عنى اسمُه الرّعبَ للكثيرين، والذي تحت مراقبته أُرسِلَ عشراتُ الآلاف إلى حجرات الغاز. قد تكون البرهةُ الوجيزةُ التي قضاها مالكين مع إيخمان على انفراد، شكّلت الضّربةَ الأقسى لمالكين، تاركةً إياه محطّمَ الفؤاد أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى. وإذ لم يقدر أن يحتفظ بتلك المحادثة لنفسه أكثر من ذلك، كسرَ مالكين صمتَه بعد ثلاثين عامًا ليكتبَ عنها مؤخّرًا. كان من الهامّ جدًّا بالنسبة لمالكين أن ينطق إيخمان بأمرين، أولاً، أراد أن يعرف كيف يمكن لإنسانٍ عاديّ أن ينظِّمَ شرًّا رهيبًا كهذا ولا يشعر بالذّنب؟ ما الذي استدعى وحشيَّة كهذه منقطعة النّظير؟ وثانيًا، كان لدى مالكين سؤال ملحّ وشخصيّ، فهو اكتشف أنّ الصبيّ الصغير الذي تولّه به إيخمان هو ابنُه الذي وُلِدَ له في الأرجنتين، وفكّر مالكين أنّ لديه كلّ الثّقل العاطفيّ اللازم لإثارة السؤال، وقد طرحَه في اللحظة الأكثر ملاءَمةً عندما تكلّم إيخمان بشغفٍ عن مدى افتقاده لابنه، قال: «كان ابنُ أختي، ورفيقُ اللّعب المفضّل لديّ، بعمر ابنك تمامًا... وأيضًا أشقر وأزرق العينين مثل ابنك، وأنت قتلتَهُ.» انتظرَ شرحًا، واثقًا أنّ بإمكان إيخمان أن يفهم التتمّة بنفسه ويشعر مع مالكين ما شعر به حيال ابن أخته. صمتَ إيخمان لوقتٍ قصير ثمّ دمدمَ بكلّ لامبالاة. «لكن ابنَ أختكَ كان يهوديًّا، ألم يكن؟» استجمعَ مالكين كلّ ما امتلكه من ضبط النّفس ومشى خارجًا من الغرفة، وبكلماته هو: «بكى فاقدًا السيطرة»، وبقيَ غير قادرٍ على الكلام لوقتٍ طويلٍ.[٤]

coptic-books.blogspot.com

لقد تُفُّهَت حياةٌ ثمينة، وبُرِّرَ التتفيهُ بقسوة. ارتدى الحقدُ وجه سكينةٍ بلغت درجةً مرعبةً؛ استُبيحَت بوحشيّةٍ حرمةُ مولدِ الإنسان وعِرقِه وانتُهِكت قدسيّة الحياة بازدراء.

إنّ التّسليم بالقيمة الأصيلة لرفقائنا البشر أمرٌ جوهريّ في الوجود. فحياةُ الإنسان ومكانُ ولادته هي أمورٌ يرثُها، وليست تُمنَح له باتّفاقٍ جماعيٍّ ما، وهي شخصيّةٌ ولا تُنتهَك. والحياة مقدّسةٌ في صميمها، وواحدٌ فقط يستطيع أن يعزو لنفسه القدرة على منحها، وهو الله. فإن كانت الحياة مقدّسة في كلٍّ من جوهرها وائتمانها، كيف يمكن أن تُعاش أو أن يُساء إليها وكأنّها عديمة القيمة؟

كثيرًا ما تساءلتُ عمّا دارَ في خلد إيخمان عندما قال تلك الكلمات؟ ما المعطيات الأخلاقيّة التي قدّمَها لنفسه ليبيحَ أفعاله؟ أيعني له عرقُ الشخص ما يجعلُ ذلك الإنسان غير لازم؟ هذه أسئلةٌ مؤلمةٌ يجبُ أن تُسأل، وأعتقد أنّ هذا السؤال يشرح الكثير عن طَبيعة الذّنب، لأنّ جواب إيخمان لا يمكن تبريره دون طرح السؤال الأكبر عن إمّا القدسيّة الأصيلة للحياة، أو الانعدام المطلق لقيمة كَلّ ما نفعله. أكان إيخمان يقول أكثر ممّا نجرؤ أن نسمع؟ دعوني أحاول الإجابة.

الحقيقة عن طريق الخيال

يقدّم لنا الإيضاحُ الثاني، عن طريق الفنون، دليلاً عمّا يمكن أن يكون وراء هكذا لامبالاة مرعبة، وتبرزُ الصّلة الوثيقة لموضوع الذّنب بينما نَفُضُّ هذا السؤال. للرّوائيين أسلوبٌ في التعامل مع الواقع بأن يبتكروا شخصيّاتٍ روائيّة ويضعوا في أفواهها خلَجات الحياة الأكثر بروزًا.

أستعيرُ من كتاب جورج ستينر George Steiner «نقل أدولف هيتلر إلى سان كريستابيل» *The Portage to San Christabel of A.H.* القصّةُ دون شكٍّ مليئةٌ بالخيال لكنّ لها سببًا. تقوم الحبكة الأساسيّة على أنّ أدولف

coptic-books.blogspot.com

هتلر لم يمت كما يخبرنا التاريخ، وإنّما فرَّ إلى أمريكا الجنوبية ليختبئ في الأراضي السبخة هناك.

ضدّ كلِّ الاحتمالات تقفَّاه مطاردوه وأعادوه إلى المحاكمة، وطُرِح نفسُ السؤال البديهيّ عليه أيضًا، لماذا وُجِّه حكمُ الموت إلى عِرقٍ واحدٍ محدّد؟ فقدّم ثلاثة أسباب، آخرها أنّه: «كان لا بدّ من حلٍّ نهائيّ»، وقصد بذلك أنّه كان لا بدّ من إبادةٍ كليَّة.

ما السبب يا ترى وراء ابتكاره لذلك الحلّ النهائيّ؟ أيمكن أنّه أمرٌ أعمق، ربّما خطّةٌ مقنّعةٌ لكن مُحكَمةٌ لمَحوِ ما هو فوق الطبيعة؟

نحن نعلمُ من دراسة الفلسفة أنّ هتلر كان متأثّرًا بعمقِ بنيتشه، وحسَبَ نيتشه، إنّ الدّين أضعف كرامة البشر وقدرتَهم، إذ دسَّ في عقولهم مفهومَي الذّنب والتّوبة، التي تمحي الشخصيّة الإنسانيّة تمامًا وتثبّطُ التقدّم المجتمعيّ والقدرة البشريّة.

أيمكن إذًا، أنّ الناس الذين أتى من خلالهم القانونُ الأخلاقيّ هم مَن يقع عليهم لومُ لعنة الذّنب؟ ضعفٌ كهذا ينبغي أن تُسدّد له ضربةٌ قاضية!

أكان ذلك هو الدافعُ المحرّكُ وراءَ تصميم هتلر على التخلّص منهم؟

حتّى لو لم يكن ذلك مسلّمًا به، يجب أن نلاحظ أنّه في زمننا الحاضر يُعبَّر بشكلٍ متكرّر من قِبَل بعض المُعادين للإيمان المسيحيّ عن أنّ الدّين عائقٌ أمامَ التقدّم. أصواتٌ تُسمَع، مقالاتٌ تُكتَب، وأفلامٌ تُصنَع، وهي تصوّبُ كلّيًا على «الدّور المعطّل للدّين» في التقدّم الإنسانيّ، ويُقاوَمُ أيُّ اعتناقٍ للأخلاق، ويقالُ أنّ الحياة ليست ممنوحةً من الله، ويُدعى لنزع الوصايا العشر عن جدران المدارس، فحيث لا وصايا لا يوجد ذنب، وإذ لا يوجد ما هو ذنب، إذًا دعونا بكلّ الوسائل نهينُ ونهمّشُ تلك الأصوات التي تجلبُ الذّنبَ إلى مجتمعنا، وهكذا نجدُ نوعًا آخر من «الحلّ النهائيّ» ماضٍ قدمًا.

coptic-books.blogspot.com

ذُهلتُ بأن أسمعَ، في اجتماعٍ في واشنطن Washington، صحافيًّا يهوديًّا يعلّق بأنّه اعتقد أنّ المسيحيين سيكونون يهود القرن الحادي والعشرين. لماذا ظنَّ ذلك؟ لأنّه دون شكّ لا يوجد صوتٌ دينيٌّ رئيسيٌّ آخر في هذا العالم يصرخُ للناس كيما يواجهوا الخطيّة، يتوبوا، ويأتوا إلى الله من أجل الغفران. إنّ الحقد والغضب المصبوبَين ضدّ المسيحيّ يكسبان زخمًا حين يرغبُ المجتمع أن يحيا دون قيدٍ.

غيرٌ قابلٍ للعيشِ حسبَ أحكامِه الخاصّة

هذا المجتمع ذاتُه ينتحلُ لنفسه حقًّا أخلاقيًّا في تقرير المصير. على أيّ أساسٍ يُطالَبُ بحقٍّ أخلاقيٍّ في حين تُرفضُ الأفكارُ الأخلاقيّةُ على أنّها متحاملةٌ ومسخِّفة؟ عندما ننظرُ إلى رعب الحلِّ النهائيّ لهتلر يصرخُ كلُّ صوتٍ متحضّرٍ ضدّ انتهاكٍ كهذا لقدسيّة الحياة، وقد قدّمت الأممُ المجنيُّ عليها الجناة إلى العدالة، لكنّ الازدراء الإيخمانيّ لا يعرف قيدًا ولا يتحمّل إدانةً. وهكذا فقد ذُهِلَ العالمُ عندما أنكرَ معظمُ المتّهمين أيَّ ذنبٍ تمامًا مثل إيخمان. باختصارٍ، إنّ الضمير الجماعيّ للبشريّة، رغم اختياره العيش المستقلّ أي حسب قانون الذّات، يؤكّد أن طردَ الذّنب بالازدراء أمرٌ بغيضٌ، وواضحٌ أنّه يجعل الحياة لا تُعاش.

إنّ إبعادَ القانون الأخلاقيّ قد يبدو فروسيًّا ومحرّرًا، لكنّ العواقبَ كارثيّة.

إنّ الازدراء هو مجرّدُ مرادفٍ لعبادة الذّات وتدمير كلِّ ما يقف في طريقها. إنّ قتلَ هابيل من قِبَل قايين كان مجهودًا من هذا النوع، لقد مثّل هابيلُ القبول لدى الله، ومثّلَ قايين الرفض، وكان حلّ قايين النّهائي أن يُصمت صوت مَن عاش حياة القداسة. وبشكلٍ مشابهٍ، مثّل يوسف فضلَ الله الخاصّ، وكان حلّ إخوته النهائيّ بالتخلّص منه. أنذر يوحنا المعمدان هيرودس من دينونةٍ حتميّةٍ، وكان حلّ هيرودس النهائيّ بأن

coptic-books.blogspot.com

يقطعَ رأسَه. حذّر إيليا إيزابيل بتحذيرٍ من التاريخ عندما يُهزأ باللياقة، وكان حلُّ إيزابيل النهائيّ مطاردتَه حتى أرادَ الموت. مثّل يسوع صوتَ الله لكهنوتٍ فاسدٍ وسلطاتٍ سياسيّةٍ متاجرةٍ بالسلطة، وكان حلّهم النهائي بإرساله إلى الصليب.

دائمًا يتمثّل «الحلّ النهائيّ» بإسكات الصوت الذي يذكّرنا بذنبنا. والماضي مفروشٌ بأنقاض الازدراء، لذلك، وبنظرةٍ أخيرة، ربّما لم تكن اليهوديّة هي الدّافع الأكبر وراء مذبحة إيخمان، وقد تكون العنصريّة والعدائيّة العرقيّة هي رأسُ السهم الذي يخرقُ الوجود المجتمعيّ. لكنّ ما يحمل السهم هو الحقدُ بالعموم وهوًى في القلب لِلَعِبِ دور الله ومحوِ كلّ ما يلمّح إلى قانونٍ أخلاقيٍّ أعلى منّا.

لهذا يحتفلُ الوثنيُّ بسقوطٍ أخلاقيٍّ معروفٍ لأنّ هذا يمهّدُ الميدان ويطعنُ في قلب الأخلاقيّة، ويجعلُ كلّ تعليمٍ أخلاقيٍّ منافقًا في عيونهم.

لكن حتى المزدري يجدُ من المستحيل العيش دون شجبٍ أو إدانة، مع أنّ كلّ إدانةٍ تتضمّنُ عقيدةً أخلاقيّةً من نوعٍ ما. هم يتكلّمون بغضبٍ ضدّ الذين يدعون لأجل منطقٍ أخلاقيّ، لكنّهم أكثر غضبًا عندما تصيبهم لا أخلاقيّةُ أحدِهم أو يوجَدون على الطرف المتلقّي للظّلم.

ببساطة، إنّ الذّنب لا يختفي بمحاولة إسكات الله، فمنطقُ ذلك يجعلُ الحياة لا تُعاش، ويرتدُّ الحلُّ النهائيّ بشكلٍ مؤلمٍ على صاحبه.

خنقُ الذّنبِ بالكبرياء

هناك خيارٌ ثانٍ وهو أن نقمع بطريقةٍ ما أيَّ وكلَّ تلميحٍ بالذّنب تحت ثقل الأنا خاصّتنا، وهكذا يُخنَق الذّنبُ بالكبرياء. كيف نُرى علانيةً أو نقدَّرُ من قِبَل محيطنا من الأصدقاء هو شغفٌ كليّ الاستنزاف بالنسبة لمعظم الناس، وقاد ما لا يُحصى من الرجال والنساء عند مواجهتهم

coptic-books.blogspot.com

بأخطائهم، ليسرعوا بتقديم سيلٍ من الأعذار. اصغ بانتباه إلى التّبريرات والشروحات عندما يُتَّهَم شخصٌ بانتهاك قانونٍ أو يُفضَحُ بسبب سلوك بغيض، وراقِب الذّهن في مناوراته الأكثر فسادًا. إنّ إبراءَ الذّات هو عفريتُ المنطق في جنوحه إلى اللامنطقية، فليس من حدٍّ لا ينحطّ إليه الذّهن لأجل غطاءٍ عندما يريد أن يظهر مبرَّرًا.

في حين أنّ الازدراء يصحُّ على البعض فقط، فإنّ النّزعة للظّهور بشكلٍ جيّدٍ أمام العين المتّهِمة لا يستثني أحدًا. لقد أعلنَ سليمان منذ قرونٍ عديدةٍ أنّ لا شيءَ جديد تحت الشمس. عندما لامَ آدمُ حوّاءَ ولامت حوّاءُ الحيّةَ بدا للوهلة الأولى أنّ الملامة توقّفت هناك. يملكُ الشيطانُ قدرةً هائلةً على الإغواء، لكنّ المأساة الأعظم تحدثُ عندما يرفضُ من أُغويَ أن يقبل اللّوم. وكمعظم دروس الحياة الأساسيّة لقد تثبَّتَ هذا الدّرسُ مرّةً ومرّات، ومع ذلك فإنّ الكثيرين لا يميّزون أبدًا عقبة الكبرياء في ذواتهم، لكن يكرهونها عندما يرونها في الآخرين.

نجدُ مثالاً تقليديًّا في حياة الملك شاول في العهد القديم. بدأت القصّة بكلّ الأمل والوعد برجلٍ متواضعٍ مُسِحَ بشكلٍ مفاجئٍ ملكًا على إسرائيل، ليكون ملكَهم الأول. وقابله صموئيل لينقل له الأخبار السارّة، وكان ردُّ شاول مثيرًا للإعجاب، فعندما قال صموئيل «... وَلِمَنْ كُلُّ شَهِيِّ إِسْرَائِيلَ؟ أَلَيْسَ لَكَ وَلِكُلِّ بَيْتِ أَبِيكَ؟» تكلّم شاول من فيض قلبه واحتجَّ: «أَمَا أَنَا بَنْيَامِينِيٌّ مِنْ أَصْغَرِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ، وَعَشِيرَتِي أَصْغَرُ كُلِّ عَشَائِرِ أَسْبَاطِ بَنْيَامِينَ؟ فَلِمَاذَا تُكَلِّمُنِي بِمِثْلِ هذَا الْكَلاَمِ؟»

لدينا هنا رجلٌ اتّجهت إليه أنظارُ الأمّة والله نفسه، أمّا هو فلم يرَ شيئًا في نفسه يجعله أهلاً امتياز كهذا. لكنَّ التّمتّعَ الوجيزَ بالسلطة تركَ مذاقَه القاتل وسمّمَ عقله ليعتقدَ أنّه كان بالفعل مستحقًّا تلك العظمة والاستحسان. وبعد تبوّئه العرشَ بوقتٍ قصير عصيَ الله عن عمدٍ وتصميم، ولم يكن أمام صموئيل إلّا أن يواجهَه، وجرّبَ شاول كلَّ خدعةٍ معروفةٍ

coptic-books.blogspot.com

لادّعاء البراءة، لكنّ دليل عصيانه كان لا يُدحض، وأخيرًا برز دليلان واضحان عمّا حدثَ لهذا الرجل.

أولاً، عندما ذهبَ صموئيل للقاء شاول قيلَ له أنّ شاول مضى ليبني لنفسه نصبًا تذكاريًّا. قد يبدو في البداية أنّ التغيّرَ من التّواضع الصّادق إلى تعظيم الذّات الصارخ هو مجرّدُ أمرٍ عابرٍ أو حتى تصرّفٍ نزويّ، لكنّ أعماق هذه الأحبولة تشبهُ أشواكًا حديديةً في جسم الطموح.

مع مضيّ الوقت انتصر داود – الخليفة المرتقب لشاول – على جليات، عدوّ الشعب الأكثر رهبةً. ويخبرنا الكتاب المقدّس أنّ النساء خرجنَ من كلّ المدن لاستقبال الملك شاول بالغناء والرقص، وإذ رقصنَ، غنّينَ: «ضربَ شاول ألوفَه وداود عشرات ألوفه»، ثم يأتي الوصف التالي «فَاحْتَمى شَاوُلُ جِدًّا وَسَاءَ هذَا الْكَلاَمُ فِي عَيْنَيْهِ... فَكَانَ شَاوُلُ يُعَايِنُ دَاوُدَ مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ فَصَاعِدًا» (١صموئيل ١٨: ٦ – ٩).

ما من حلم محكوم عليه بالإخفاق الأكيد مثلُ حلمٍ مبتغاه الأبرز في الحياة هو الصيرورة في المرتبة الأولى.

عندما واجه صموئيل شاول أسرع ليستتر بملاءةٍ من الأسباب، بل وفي الواقع استعطفه: «لقد أخطأتُ (حمقتُ)» (١صموئيل ١٥: ٢٤). لكنّ شاول فعل أكثر جدًّا من لعب دور الأحمق، لقد رفض أن يعترف بإدمانه الكبرياء التي كانت مصدر دماره. وإنّ كلمات بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin: «تناولت الكبرياءُ فطورَها بوفرةٍ وتناولت غذاءَها بفقرٍ وتعشّت بخزيٍ»،[٥] هي الأكثر مناسبة لنقش ضريح شاول.

كم من ملايين عديدة في هذا العالم لن تتمتّع بسيرٍ مع الله بسبب الكبرياء الفرديّة التي تجعلهم غير قادرين أن يقرّوا بذنبهم أمامه.

أن تختالَ داخلاً قاعة محكمةٍ مذنبًا وتدّعي البراءة ليس قدرةً بل ضعفًا.

coptic-books.blogspot.com

أن ترفضَ الإقرارَ بالفشل ليس نجاحًا بل خداعًا للذات.

أن تقاومَ التّوبةَ أمام الله ليس ذكاءً بل حماقة.

أن تنتفخَ بالكبرياء في وجه الأخطاء لا يعني أن تصبحَ أكبر بل أجوف.

لخَّص ألكسندر پوپ Alexander Pope ذلك بالطريقة التالية:

«من بين كلّ الأسباب التي تتآمر لتعمي
الحُكمَ الخطّاءَ للإنسانِ، وتضلّ العقلَ،
ما يحكُم به ضعيفُ العقلِ بأشدّ انحرافِ
إنّها الكبرياءُ، رذيلةُ الحمقى التي لا تُخفِق.»[٦]

إنّ مقاومة الإنسان لأن يكون اعتياديًّا أو لأن يعترف بالفشل أمرٌ مفهومٌ، مَن منّا يحبّذ أن يواجه ضعفاته؟ لكنّ الكبرياء تفرّخ كلَّ نقيصةٍ أخرى، وهي لذلك الأكثر تدميرًا بين كلّ الآثام، وحسنًا قال سي. إس. لويس C. S. Lewis:

«عساك تذكُرُ، حين كنت أتكلّمُ عن اللاأخلاقيّة الجنسيّة، أنّني نبّهتُك أنّ مركزَ الأخلاق المسيحيّة لا يكمنُ هناك. حسنًا، نحن الآن وصلنا إلى المركز... الشرّ الأقصى، إنّها الكبرياء. إنّ الفسوق، الغضب، الطمع، السُّكر، وكلّ ذلك هي مجرّد قرَصات برغوثٍ بالمقارنة معها، إذ أنّه بالكبرياء أصبحَ الشيطانُ شيطانًا. الكبرياء تقودُ لكلِّ خطيّةٍ أخرى، إنّها حالةُ العقلِ المعادية كليًّا لله.»[٧]

ربّما كانت هذه الحقيقة البديهيّة هي السبب لِمَ في كلتَي التّجربتَين الأولتَين اللّتَين وضعَهما الشيطان أمام يسوع، كان العنصر الأساسيّ استمالةَ كبريائه. في الأولى: «قُلْ أَنْ تَصِيرَ هذِهِ الْحِجَارَةُ

coptic-books.blogspot.com

خُبْزًا»، وفي الثانية: «اطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلُ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ.»

يُظهِرُ التحوّلُ الماكرُ في دعوة الشيطان أنّه حتى الكبرياء لها درجات. فمَن يلتمسُ عذرًا فوريًا لكبريائه أو يلتمسُ قبول الآخرين يكشِفُ أثرًا من إحراجٍ أو حاجةٍ عساه «يبدو بمظهرٍ جيد»، وهذا إن لم يصحَّح، ينحطُّ إلى درجةٍ تُرمَى فيها تلك الحاجة جانبًا.

قال پيتر كرافت Peter Kraft بإيجازٍ بارع: «ليست الكبرياءُ عبارةً عن السرور بتلقّي المديح، والرغبة في إرضاء الآخرين... إذ هذا أيضًا يُظهِرُ تواضعًا، فليس نجومُ الأفلام هم مَن يمثّلون نماذجَ الكبرياء بل الطغاة.»[٨]

كثيرًا ما تفوتُنا هذه النقطة البالغة الأهميّة: إنّ أسوأ درجات الكبرياء هي عندما لا يُلتَمس فيما بعدُ عذرٌ لشرح خيارٍ ما لأنّ الخيار نفسَه يعتبرُ كافيًا كشرحٍ لأيّ فعلٍ، فنقرأ «حقّي» *My right* مكتوبةً بأحرفٍ كبيرة، عدّةَ مرّات في اليوم. شخصٌ كهذا وضَعَ نفسَه أبعدَ من الوصول إليه، لهذا السبب عينه يمضي الله بعيدًا جدًّا ليحفظنا من هذا النوع من الكبرياء التي تصبح غوغائيّةً وتعزلنا عن صوت المنطق لدى الآخرين.

معظمُنا مرَّ بمِحَنٍ حيث رأى هذا يحدث لأحدهم، لكنّنا غالبًا ما نتجاهل أنّنا جميعنا عرضةٌ له. عندما نصل إلى نقطة لا نعود نهتمّ لمشورة الآخرين أو تحذيرهم، وعندما نتنعّم بنجاحنا ظانّين بأنّنا لا نُقهَر، عندها يحتاج الله إلى اتخاذ إجراءاتٍ مُشدَّدة ليكسرَ عنّا تلك القبضة الخانقة.

منذ قرونٍ مضت، وصل توما الأكويني Thomas Aquinas إلى نتيجة مذهلة نوعًا ما عن خطر هذا النّوع من الكبرياء، وصاغَ رأيه بطريقة مثيرة:

coptic-books.blogspot.com

«إنّ الله لكي يهزم الكبرياء، يعاقبُ بعضَ الناس بالسماح لهم بالسقوط في خطايا أخرى للجسد، التي رغم كونها أقلّ جسامة هي بشكل واضح أكثر عيبًا... وبالحقيقة من هنا تتكشّف جسامة الكبرياء، لأنّه تمامًا كما أنّ الطبيب الحكيم، لكي يشفي داءً أسوأ، يسمح للمريض بأن يتعرّض لداءٍ أقلّ خطورة، هكذا تُظهَرُ خطيئةُ الكبرياء على أنّها أكثر جسامةً بحقيقة أنّه كعلاجٍ لها، يسمح الله للإنسان بالسقوط في خطايا أخرى.»[٩]

مع أنّ هذا قد يبدو متطرّفًا وصعب التصديق، اصغِ إلى كلمات ريتشارد دورتش Richard Dortch، رئيس PTL، عقب الفضيحة المؤسفة التي أسقطت تلك الخدمة، وسجّلت نقطة تحوّل في مواقف الناس حول العالم تجاه مَن هم في الخدمة:

«تطلّبَ الأمرُ المأساة، الرّفسة في الأسنان، لإعادتنا إلى رشدنا.»[١٠] ومضى يتكلّم عن القدرة المُعمية للكاميرا التي تحوّل أناسًا اعتياديّين إلى ملوكٍ خلال دقائق: «سيّارات تنتظرك... لا بدّ أن تذهب إلى مقدّمة الصّف... كلّ ذلك جعَلَنا أكثر ممّا قُصِدَ لنا أن نكون.»

ادّخر يسوع أقوى كلماته لمَن ظنّوا أنفسَهم أقوياء، وألطفَ كلماته لمن رأوا أنفسَهم ضعفاء. وذكّر سامعيه باستمرار بأنّ مجدَ ملكوته لا يظهر في فعاليّة المؤهّلات الفرديّة، إنّما في بساطة إيمان طفلٍ صغيرٍ.

وبإيجاز، كما أنّ طردَ الذّنب بالازدراء يجعلُ الحياة لا تُعاش، فإنّ خنقَ الذّنب بالكبرياء يجعلُ حياةَ الإنسان بأكملها لامسؤولةً.

ستْرُ الذّنب بالخوف

أحدُ أكثر طرق التعامل مع الذّنب تعذيبًا هو محاولةُ إخفائه والعيش مع خوف الافتضاح. يُقال أنّ الحسد هو الوحيدُ بين الخطايا السبعة

coptic-books.blogspot.com

القاتلة الذي لا يجلبُ إشباعًا فوريًّا، ويمكننا أن نضيف أنّ الخوف في وسط الذّنب لا يمنح أيضًا أيّ رضًى لأنّه يضيفُ الجَزَعَ إلى تأنيبِ الضّمير. وتمامًا كما أنّ المبتزّ لا يُشبَع أو يعوَّض كفايةً أبدًا، هكذا مَن يعيش في الخوف بينما يحضنُ ذنبًا، ينتهي به الأمرُ مبتزًّا قلبَه ليدفعَ لعقلِه ولن يتعزّى القلبُ يومًا لأنّ العقلَ لن يكتفي يومًا.

عندما يُخفي الخطأ فهو نادرًا ما يتوقّف داخل مَن آوى ذلك الأذى، بل عاجلاً أم آجلاً سينتشرُ الألمُ إلى الآخرين وخصوصًا أولئك الأقرب إلينا.

لا يوجد في الحقيقة جرائم دون ضحيّة. إنّ قصّة خداع يعقوب لأبيه ترينا كيف أنّ جمعًا غفيرًا، بل في الحقيقة شعبا بأكمله أسيء إليه كنتيجة. إنّ الخداعَ وحشٌ يحتاج إطعامًا مستمرًا. ظنّ يعقوب، في محاولته لسرقة البركة، أنّه سيخدع أباه فقط ويهرب إلى ملاذٍ ما حتى يهدأ غضب أبيه، لكنّ نفاقَه جرحَ بشدّة كلّ الأسرة. فبسبب خطيّته لم يكن بجانب سرير أمّه عندما ماتت، وأمضى عيسو سنواتٍ يتعقّبه، وعندما حانت لحظةُ المواجهة بين الأخوين أخيرًا، صارعَ يعقوب طوال اللّيل في الصلاة بسبب خوفه من أن يُنتَقَم من أولاده للخطأ الذي ارتكبه قبل سنوات، وهو لم يعُد يستطيع الفرار أكثر. الحقيقة القاسية هي أنّه على مرِّ آلاف السنين من التاريخ في الشرق الأوسط، أريق الكثير من الدّماء بسبب الأخطاء التي انتقلت من جيلٍ إلى جيل.

إنّ الاعتقاد بأنّ الخداع والغشّ يمكن أن يُغطّى بالإفلات من العقوبة هو مغالطة للواقع.

من السهل إيضاحُ العواقب المدمّرة للذّنب المُخفَى بالخوف، لكن الصّعوبة تكمن في معرفة الطريقة الأفضل لمواجهة الشخص دون تخريب حياةٍ هي مسلوبةٌ بطبيعة الحال. تُملي التّجربة ضرورة إبداء كلّ حساسيّةٍ عند التّعامل مع مَن استولى عليه الخوف، وفي الوقت نفسه تتطلّب

coptic-books.blogspot.com

الحقيقةُ أن يُخاطَب مثلُ هذا الشخص بصدقٍ خشية أن نسلبهم إمكانيّة الشفاء رغبةَ منّا ألاّ نزيدَ على ألمهم.

قد لا يكون الخوف أحيانًا مترتّبًا عن إساءة الإنسان الشخصيّة، بل عن كونه مُحتَجَزًا خلف قناعٍ أو هاربًا من واقع.

منذ سنواتٍ عديدة كنتُ أتكلّم أمام حضورٍ مكوّنٍ بشكلٍ أساسيٍّ من طلاّب إعداديّة وثانويّة، وكان تحدِّيًا صعبًا لي لأنّني أعرف تمامًا أنّ ما أقوله ليس أكثر أهمّية من الطريقة التي أقوله بها. لا يوجد جمهورٌ أكثرُ استعدادًا لكشف فشل المتكلّم من جمهور المراهقين المتململ، وفي الوقت نفسه لا يوجد جمهورٌ أكثرُ انفتاحًا للاعتراف بحاجته من جمهورٍ شابٍّ وَثِقَ في المتكلّم.

أعلمتُهم بعد الجلسة الأخيرة أنّه إن كان لدى أيٍّ منهم حاجةٌ شخصيّةٌ يريد أن يتكلّم عنها، سأكون متاحًا لأمضي بضع دقائق مع كلّ واحد، وخلال دقائق امتلأت صفحة التّسجيل.

الطالبة الأولى التي جاءت، رغم أنّها بذلت جهدًا جبّارًا لتبدو هادئةً ومتّزنةً، جلست متوتّرةً جدًّا ولم تنجح كثيرًا في إخفاء قلبها المضطرب. كان كاملُ حديثها عن صديقةٍ، سأدعوها كارين Karen، لديها ميولٌ انتحاريّة وأنّها بحاجةٍ ماسّة للمساعدة؛ أرادت هذه الشابة أن تعرف الطريقة الأفضل لمساعدة كارين ومنعها من إنهاء حياتها. وبينما انقضت الدقائق قاطعتُها سائلاً: «هل أنتِ واثقةٌ أنّك جئت لتتكلّمي عن كارين، أم أنّ هناك أمرًا أكثرَ أهمّيةً في ذهنك؟» فبدت على وجهها نظرةُ استغرابٍ مستاءة، ثمّ ابتلعت بصعوبة، ثمّ لم تستطع إخفاء معركتها أكثر، وسَالَت دموعُها كما لم أرَ إلا نادرًا. شعرتُ بأنّ هناك الكثير محتجزٌ في داخلها بحيث سأحتاج إلى وقتٍ أطول وإلى مساعدةٍ لإراحتها، لكن مع ذلك لم أدرك كم كنت بعيدًا عن عمق الموضوع. وفيما استمرّت في البكاء كشفت قصّة تحرّشٍ جنسيٍّ من قِبَلِ والدها بدأ حين

coptic-books.blogspot.com

كان عمرها سبع سنوات، وجحيمٍ رهيبٍ فُرِضَ عليها لمدّة عشر سنوات تقريبًا: «كنت مرعوبةً من إخبار أيّ أحدٍ لأنّني لا أعرف ماذا سيفعل هذا بعائلتي وماذا سيفعل بأبي، هل سينتهي في السجن؟ وهل ستتحمّل أمّي الصّدمة والألم؟»

عرفتُ مباشرةً أنّ حاجتَها أعظم من قدرتي، وكلّ ما استطعتُ فعلَه لإخفاء صدمتي كان الصّمت لعدّة لحظاتٍ. لن أطيل في هذه القصّة إلا لأقول أنّنا استطعنا نوعًا ما أن نأتيها بالعزاء من خلال مساعدةٍ مختصّة، لكن لم أستطع أن أنزع من ذهني كيف بعد عشر سنواتٍ كانت فيها ضحيّة واحتفظت بذلك داخلها، أوشكَت مرّةً أخرى على إخفاء الحقيقة بسبب الخوف من العواقب، وأصبحت كارين الستارَ الدّخانيَّ لإخفاء حقيقة حياةٍ مقطّعة الأوصال.

استخدم الكثيرون هذه الخدعة ذاتها عندما تكلّموا مع يسوع. كانوا يلقون سؤالاً وراء الآخر لكي يخفوا الصّراع الحقيقيّ وراءها جميعًا. إذا حُمِّلَت هذه النّزعة نفسُها على مستوى مختلفٍ كلّيًا، تُكذِّبُ كلَّ انهماكنا الوطنيّ في أزمةٍ اجتماعيّةٍ أو اقتصاديّةٍ تلو الأخرى، فلا أحدَ يريدُ أن يعترفَ أنّه في قلب علّتِنا تكمُنُ روحانيّةٌ مشوّهة. ربّما لنا عبرة في الأسطورة اليونانية عن خيانة أفروديت Aphrodite، ففي عدم أمانتها أنجبت ولدَين بين أولادٍ أُخر، أحدهما يدعى إروس Eros (جذر الكلمة = شهوة) والآخر يدعى فوبوس Phobos (جذر الكلمة = خوف). إنّ الانغماسات المحرّمة تلدُ شهوانيّة وخوفًا، وهذا الجيلُ أنجَبَ هذَين الوحشَين التوأمَين.

إن كان طردُ الذّنب بالازدراء يجعل الحياة لا تعاش، وخنقُه بالكبرياء يجعل حياة المرء غير مسؤولة، فإنّ إخفاء الذّنب بالخوف يجعلُ الحياة لا تُطاق.

coptic-books.blogspot.com

رفضُ الذّنب على أنّه ثقافي

إنّ أنسبَ مخرجٍ في مجتمعٍ مشوّشٍ هو تهميشُ الذّنب على أنّه إضافةٌ ثقافيّةٌ. ويخفق هكذا تجاهلٌ أكاديمي للواقع الأخلاقيّ أن يأخذ بالحسبان أنّه حتى عندما نختلف ثقافيًا واحدُنا عن الآخر في سلوكنا، فإنّ الأسباب التي تبرّر ذلك السلوك هي غالبًا نفسها. وبكلماتٍ أخرى، هناك تشابهات ما وراء أخلاقيّة.

خذ مثلاً قتل طفلٍ ما، فحتّى قتلُ الأطفال الوحشيّ ثأرًا لخطأ ما، يُنفّذُ لأنّ الساعي للانتقام اختارَ أن يؤذي عدوَّه بالطريقة الأسوأ بسلبه أثمن ما لديه. أي لم يُقتَل الطفلُ لأنّ حياتَه عديمة القيمة، وإنّما لأنّها تقدّر بقيمةٍ عظمى، (إنّ سببَ وضع القوانين والأنظمة في أيّ مجتمعٍ هو المعرفة الأكيدة أنّه بدون قانون ونظام ستسود الوحشيّة والنّهب).

المشكلة في تجاهل الذّنب على أنّه ثقافيّ هي أنّ الأخلاق تصبح واهية، ولا أحدَ قد يرغب بصدقٍ في أن يسلّم بهذا الموقف لأنّه بذلك يهزم ذاته.

قصّةٌ كونيّة

منذ سنوات عديدة عندما كنت في كمبوديا Cambodia شهدتُ شخصيًّا ما يدعوه المؤرّخون «اغتيالُ أرضٍ نبيلة» The murder of a gentle land. عانى الناس هناك الكثير ولسنواتٍ عدّة على أيدي الغوغاء المجرمة، وفقدت تلك الأمّةُ الصغيرةُ الملايين لأجل نظريّةٍ سياسيّةٍ أو أخرى.

ذات مساء سألني مترجمي وبعضُ المرسلين إن كنت أودّ مشاهدة مسرحيّةٍ، وقبلتُ عرضهم لرغبتي في استراحةٍ من الاجتماعات التي كنت أتكلّم فيها.

coptic-books.blogspot.com

كان حضورُ أداءٍ مسرحيٍّ في أرضٍ تصارعُ لأجل البقاء خبرةً مؤثّرةً جدًّا، وكان هناك مزيجٌ غريبٌ من الواقع والهروب منه في المحيط الهزيل لمسرح رديء الرّعاية. كانت قصّة المسرحيّة عبورًا بين الواقع والخيال بالتّساوي، وهي قصّة مزارعٍ شابٍّ تزوّج بشابّةٍ قرويّة. وبينما هما في منتهى السعادة في رحلتهما إلى قريةٍ أخرى ليؤسّسا بيتًا خاصًّا بهما، كان أمير البلد مرتحلاً مع جنوده فرآها وأُسِرَ بجمالها وأمرَ المزارع أن يعطيه إيّاها كمحظيّة في القصر. فقاوم المزارعُ بشجاعةٍ لكنّ الأمير انتزع المرأة بالقوّة وأخذها معه. أسرع المزارع إلى القصر خائفًا ومغمومًا ليتوسّلَ الملك ليتشفّع له ويعيد إليه زوجته، فسخط الملك من تهمة الرجل الفقير وأصرّ أنّ المرأة جاءت بمشيئتها هي لتعيش مع الأمير. ولإثبات هذه النقطة أمَرَ الملكُ بأن تُجلبَ المرأة إلى استجوابٍ في القصر. وعندما اقتيدَت أمامَه طالبَ بأن تُقِرَّ مَن هو زوجها الحقيقي. أتت ساعة الحقيقة وكان الجميع مجتمعين في قاعة القصر ليسمعوا كلماتها. لكن قبلَ شهادتها كان الملك قد هدَّد المرأة بأنّها إن اعترفت بأنَّ المزارع هو زوجها فسوف يؤخَذ ويُقتَل، لذلك فإنّ المرأة، لخوفها الشديد، عندما طلبَت منها سلطةُ المحكمة أجابت بصوتٍ خفيضٍ لكن بارتعاشٍ واضحٍ أنّ الأمير هو زوجها الفعليّ. فضجّت القاعة بالهتاف للملك بينما انكمش المزارع خوفًا تحت ثقل هذا الرفض.

لكنّ الكاهن الذي كان يراقب هذه الإجراءات طالَبَ بتحقيقٍ، وهكذا أعلن للنّاس أنّ هناك ما يبدو خاطئًا في مجمل السيناريو وقال: «لماذا يجازفُ رجلٌ عاديّ بإغضاب الملك بادّعائه أنّ زوجة الأمير هي زوجته؟ لديّ الحلّ الأكمل للوصول إلى الحقيقة.» ثمّ مضى ليضع خطّةً بسيطةً ترتكز على ما زعَمَ أنّه مصلُ حقيقةٍ مكفولٌ «سأعطي كلًّا من الأمير والمزارع جرعةً متساويةً من هذا المصل وسيحدث التأثير خلال عشر دقائق، وبما أنّ أحدهما يكذب وسيعاقب على تلك الجريمة بالموت، أقترحُ أن يعطى كلّ منهما خمسَ دقائق لوحده مع المرأة دون تلامسٍ بينهما.»

coptic-books.blogspot.com

جُلِبَ إلى المنصة برميلٌ ضخمٌ يتدلّى من منتصف عارضةٍ خشبيّةٍ محمولةٍ أفقيًا. كان كبيرًا جدًّا بحيث احتاج حملُه إلى رجلين يضع كلٌّ منهما أحد طرفَي العارضة على كتفه، ثم أعطيَت التعليمات: على المرأة أن تحمل أحد طرفيّ العارضة بينما يحمل كلٌّ من الرجلين بدوره الطرفَ الآخر ويمكنهما أن يبتعدا مفصولين بالبرميل إلى مشهدٍ منعزلٍ قبل العودة لأجل الحكم ولكلّ منهما خمس دقائق مع المرأة.

خلال الوقت الذي أمضته المرأة مع الأمير، لم يفعل شيئًا سوى أن يُحاضر فيها ويهدّدها بموت زوجها إن هي قالت الحقيقة. وعندما جاء الوقت لتنفرد مع زوجها، كان من الرّائع مشاهدة الدلائل الخفيّة لحبّه لها، فقد بذل جهده ليضع نفسه بشكلٍ يحملُ هو الوطأة الأكبر لثقل البرميل ويحميها من أيّ إجهاد. وفيما كانا وحيدَين بكَت وتحدّثت عن حبّها الدائم له وشرحَت أنّ السبب الوحيد لكذبها هو استبقاء حياته. قالت: «لو كانوا هدّدوا حياتي لقبلتُ بذلك، لكنّني لا أتحمّل رؤيتك تموت.» ففهمَ ورطتَها وقال أنّه هو سيقول الحقيقة فقط.

عادا إلى قاعة محكمةٍ مليئةٍ بالترقّب، ويمكنني أن أضيفَ: إلى حضورٍ أكثر ترقّبًا، فالكلّ جالسٌ على حافّة مقعده. وبينما الجميع يستعدّون لبدء مفعول المصل، أعلن الكاهنُ أنّ الحقيقة الآن ستنتصر على الكذب، وفي تلك اللحظة انفتح البرميل بقوّة وقفزَ صبيٌّ صغيرٌ كان مختبئًا داخله وقد حملَ في يده قلمًا ودفترًا وكان قد سجَّل كلَّ ما سمعَه خلال المحادثات الخاصّة لكلٍّ من الرجلين مع المرأة.

سلّم الصبيّ الصغيرُ دفترَه إلى الكاهن الذي قرأ ما فيه، وأعلن الحقيقة بينما راقبَ الأمير يخفضُ رأسه، والمزارع يشرقُ وجهُه بألَقِ الحبِّ المُستعاد.

لم يستطع الحضورُ في الصّالة أن يحتووا ابتهاجَهم العارم فضجّوا بالاستحسان الذي لم يدُم طويلاً. فقد ضربَت المأساة

coptic-books.blogspot.com

حيث أَمَرَ الملكُ جنودَه بقتل كلّ مَن يصدّق نسخةَ الصبيّ الصغير من المحادثات.

كان كلّ مَن في كمبوديا يعرف المأساة ذات الحدّين للمسرحية، أُسكِتَ صوتُ الحقِّ وحكَمَ الرجلُ القاسي البلادَ مُنزلاً الرّعبَ بالشعب. جلستُ بصمتٍ بعد انتهاء المسرحيّة وتأمّلتُ كيف أنّه خلف الدراما هناك قِيَمٌ مشتركةٌ تربط البشريّة: نقاءُ الحبّ الزوجيّ، قيمةُ الحقيقة، الصّرخة لحماية البريء، شرُّ السلطة المطلوقة العنان، والتّوق الذي لا يموت لدى الشعب ليرى العدالة تتدفّق كنهر. هذه الحقائق لم تكن ممنوحةً ثقافيًّا، بل كانت بديهيّةً حتى في بلدٍ يسيطر عليه الماركسيّون.

لقد أُخذتُ فعلاً بالقصّة وغُمرتُ بالبراءة الطفوليّة التي ناقش بها الناس القصّة بعدما غادروا المسرح. تأمّلتِ العائلاتُ في الحقائق الأعمق وتبادل الأزواجُ الآراء حول ما أعجبهم وما لم يعجبهم في المسرحيّة، وكان من الواضح وجودُ صرخةٍ مدوّيةٍ لأجل الشرف والأخلاق خلف القصّة بأكملها. وهكذا، إنّ التخلّص من الذّنب كمجرّد خصوصيّة ثقافيّة يقدّرها البعض دون الآخرين، لا يعكسُ حقيقةَ تجربتِنا المشتركة.

تطرّقنا حتى الآن إلى أربع خياراتٍ للتّجاوب مع الذّنب: طردُ الذّنب بالازدراء يجعل الحياة لا تُعاش، خنقُ الذّنب بالكبرياء يجعلُ موقف الإنسان لامسؤولاً، إخفاء الذّنب بالخوف يجعل الحياة لا تُحتمل، تجاهلُ الذّنب على أنّه ثقافي يجعل الأخلاق واهية ولا يمكن الدّفاع عنها.

۞ إنكارُ الذّنبِ بالبراءة

يأتي بنا هذا إلى الخيار الخامس وربّما الأكثر مكرًا، وهو أن لا يشعر الإنسان بأيّ ذنب لأنّه عاش حياةً على أفضل ما يمكن. فإن كانت الحياة عيشت بشكل جيّد، لِمَ الذّنب الشخصيّ؟ هناك كثيرون جدًّا ممّن يعيشون تحت وهم البراءة وما من ضرورة لمفهوم التّوبة داخل إطارهم.

coptic-books.blogspot.com

في بعض الثّقافات التي تُجِلُّ أبطالها كأنّهم آلهة، سُئلتُ ما لا يحصى من المرّات سؤالاً يُقصَد منه جعلَ الإيمان المسيحيّ يبدو مُجحفًا: «أتقول أنّ فلانًا الذي عاش مثل تلك الحياة الرّائعة سيكون في جهنم؟»

لكن نادرًا ما يُعترَف بالسؤال غير المعلن خلف أحجية كهذه. فما يحاول السائلُ أن يُضمّنه أحيانًا هو أنّه لا توجد جهنّم، وغالبًا ما يراودني أن أسألَ السائلَ إن كان هو نفسه قد سلك حياةً صالحةً بقدر من ذُكِرَ اسمُه كرمزٍ للقداسة. إن كان الناس «الصّالحون» معفيّين من جهنّم، ماذا يحصل لـ«السيّئين»؟ هل يرضون حتى بأنّ الناس السيّئين لهم بالفعل مصيرٌ بدون إله؟ وكم هو عدد «الصّالحين»؟

قال مالكوم ماغريدج Malcolm Muggeridge مرّةً أنّ فساد الإنسان هو أكثرُ حقيقة ممكنٌ إثباتُها اختباريًّا، ولكنّها أيضًا الأكثر مقاومةً من قِبَل العقل البشريّ. إن كانت الشكوى من كون السماء في المسيحيّة مقصورةً على مَن يثق بالمسيح وبالتالي هي محدودة، أنا أرتعد من التّفكير في قلّة مَن سيكونون في السماء إن تقرّر العدد بناءً على الصّلاح. لذلك أسألُ ثانيةً، أهناك وراءَ التّساؤل إنكارٌ خفيٌّ لكلّ دينونة؟ وحتّى حيث قد لا يكون ذلك هو المقصود، إنّ الجواب بالتّعابير المسيحيّة مباشرٌ تمامًا. إنّ المسيح لم يأتِ إلى العالم ليجعل السيئينَ صالحين، بل ليجعل الموتى أحياءً، أولئك الذين كانوا موتًى بنظر الله جُعِلوا أحياءً له من خلال عمل الروح القدس.

لكن هناك ما هو أبعد من ذلك، ما الذي نتحدّث عنه عندما نقول «صالح»؟ أهو أمرٌ عائد للتّعريف الشخصيّ لكلّ إنسان؟ وإن كان كذلك، لماذا نُنكر على كلّ امرءٍ آخر حقَّه في أن يملك تعريفه الخاصّ للصّلاح؟ هناك واحدٌ فقط له الحقّ في تعريف الصّلاح وهو الله. يخبرنا الكتاب المقدّس بأنّ حالتَنا لا تقاس بناءً على ما نحرزه نسبةً إلى بعضنا البعض، بل أنّنا جميعًا قصرنا عن معيار الله (أنظر رومية ٣ : ٢٣). توجد ملايين

coptic-books.blogspot.com

الجراثيم في عالمنا خارجَ مجال رؤيتنا، لكن ضع جسمًا تحت المجهر وسيجفلُ العقلُ من عالَمٍ لم يكن مرئيًا أصبح فجأةً منظورًا.

كم من مرضٍ للنّفس ونفاقاتٍ تتكشّفُ تحت أنظار الله، ليست مرئيّة من قِبَلِنا؟ لهذا السبب بالتحديد إنّ رسالة الإنجيل ليست رسالةً نكسبُ بموجبها خلاصَنا أو طريقَنا إلى السماء، هذا مفهومٌ خارجٌ كلّيًا عمّا يقدّمه لنا الله. نحن نرتكبُ خطأً أساسيًّا عندما نزنُ جدارتَنا أمام الله بلغة المقدار بدلاً من لغة حالتِنا أمامَه، ويكونُ «ضياعُنا» في أعظمه حين نظنّ أنّنا لا نحتاج نعمةَ الله، وليس حين نكون جزءًا من مشروعٍ كبيرٍ لإبادة البشريّة. لقد احتفظ يسوع بأشدّ تنبيهاتِه لمَن ادّعى الصلاح أمام الله، وليس لمن بكى كخاطئ.

روى فيودور دوستويڤسكي Fyodor Dostoevsky قصّةَ امرأةٍ ماتت وذهبت إلى الجحيم. وإذ هي مرتبكةٌ بالحالة التي انتهت إليها، تحدّت السموات لتعطيها سببًا لماذا هي هناك. وإذ سمعَ بطرس صرخات تظلّمها تكلّم إليها قائلاً: «أعطني سببًا واحدًا لماذا ينبغي أن تكوني في السماء.» فتوقّفت، راجعت، فكّرت مليًّا، ثمّ قالت: «يومًا ما أعطيتُ جزرةً لمتسوّلٍ.» فتحقّق بطرس من السجلّ ورأى أنّها فعلت ذلك حقًا، كانت جزرةً عجفاءَ قديمة فاسدة، لكن مع ذلك فهي جادت بها. فأخبرَها بطرس أن تنتظر ريثما يساعدها لتصعد، ثمّ أخذَ سلكًا طويلاً وربَطَ إلى طرفه جزرةً ودلّاها لها إلى الجحيم لتتمسّك بها، فتعلّقت بها وبدأ هو بسحبها. فرآها الآخرون تختفي تدريجيًّا من وسطهم، فتمسّكوا بكاحليها عساهم ينتقلون أيضًا، وإذ استمرّ المزيد منهم بالتعلّق، بدأ السلك بالهبوط فصرخت بكلّ ذرّةٍ في كيانِها «اتركوني، هذه جزرتي وليست جزرتكم»، وحالما قالت ذلك انكسرت الجزرة.

حتّى أفضل الأفعال قد تكون لخدمة الذّات، وكلّنا نحتاج نعمة الله لندخل محضره. لا أحدَ أكثر صلاحًا أو فضيلةً من أن يحتاج نعمة الله،

coptic-books.blogspot.com

ولا أحدَ صالح كفايةً ليملك حقّ أن يكون المحدِّد الأوحد للصّلاح.ذلك حقٌّ مقصورٌ على الله، وإنّ ادّعاء البراءة الكاملة في نظر الله لا مبرّر له.

هذا يتركُ طريقةً واحدةً فقط للتعامل شرعيًّا ومنطقيًّا مع مشكلة الذّنب.

تسليمُ الذّنب لنعمة اللّه

تمامًا كما أنّ حقيقة حقد إيخمان تبيِّن حالةَ القلب البشريّ بعبرةٍ أكبر ممّا تفعل روايةُ جورج ستاينر George Steiner – دون الانتقاص من الواقع خلف كلّ قصّة – هكذا أيضًا إنّ وضعَ ما حدثَ في واقع حياة الملك داود بجانب قصّة المسرحيّة الكمبوديّة يوضحُ الحقيقة بقوّةٍ مضاعفة؛ أقصدُ هنا قصّة داود عندما واجَهَه ناثان فيما يتعلّق بعلاقته الزّانية مع بثشبع. بعدما قدّم ناثان مثَلَ الرجل صاحب الغنمات الكثيرة الذي سرقَ النّعجة الوحيدة لآخَر، لم يستطع داود أن يقاومَ إصدارَ الحكم على ذلك اللّص متحجّر القلب فقال: «يُقْتَلُ الرَّجُلُ الْفَاعِلُ ذلِكَ.» تكلّم مسرعًا جدًّا على أساس الفعل الذي لا مبرّر له، ولا بدّ أنّ نظرة ناثان المحدّقة كانت مدمّرةً لداود عندما أُتبِعَت بالكلمات: «أَنْتَ هُوَ الرَّجُلُ!» (٢صموئيل ١٢ :٧).

فكِّر في عدد الطرق التي كان بإمكان داود أن يتعامل فيها مع ذنبه: كان بإمكانه القبض على ناثان وقتله، كان بإمكانه لوم بثشبع، كان بإمكانه ادّعاء حقّ الملوك الإلهيّ، كان بإمكانه إبطال الوصيّة السابعة. فالملوك على مرّ التاريخ اتخذوا خياراتٍ مشابهة، كان بإمكان الازدراء، الكبرياء، أو أيّة مكيدة أخرى أن تلعب دورًا هنا، لكن بدلاً من ذلك سقطَ على وجهه أمام الله وصرخ:

coptic-books.blogspot.com

«ارْحَمْنِي يَا اللهُ حَسَبَ رَحْمَتِكَ.
حَسَبَ كَثْرَةِ رَأْفَتِكَ
امْحُ مَعَاصِيَّ.
اغْسِلْنِي كَثِيرًا مِنْ إِثْمِي،
وَمِنْ خَطِيَّتِي طَهِّرْنِي.
لأَنِّي عَارِفٌ بِمَعَاصِيَّ،
وَخَطِيَّتِي أَمَامِي دَائِمًا.
إِلَيْكَ وَحْدَكَ أَخْطَأْتُ،
وَالشَّرَّ قُدَّامَ عَيْنَيْكَ صَنَعْتُ،
لِكَيْ تَتَبَرَّرَ فِي أَقْوَالِكَ،
وَتَزْكُوَ فِي قَضَائِكَ.
هَا قَدْ سُرِرْتَ بِالْحَقِّ فِي الْبَاطِنِ،...
طَهِّرْنِي...
اغْسِلْنِي...
أَسْمِعْنِي سُرُورًا وَفَرَحًا،
فَتَبْتَهِجَ عِظَامٌ سَحَقْتَهَا...
لأَنَّكَ لاَ تُسَرُّ بِذَبِيحَةٍ وَإِلاَّ فَكُنْتُ أُقَدِّمُهَا...
ذَبَائِحُ اللهِ هِيَ رُوحٌ مُنْكَسِرَةٌ.
الْقَلْبُ الْمُنْكَسِرُ وَالْمُنْسَحِقُ يَا اللهُ لاَ تَحْتَقِرُهُ.»

(المزمور ٥١ : ١-٤، ٦-٨، ١٦ و١٧)

ليس هناك مزمور عن التّوبة مألوفٌ أكثر من هذا المزمور؛ هنا وجَدَ أسوأُ إثم وذنبٍ غفرانًا وسلامًا. لكن علينا أن نعلَمَ يقينًا أنّ ما سبق لم يكن صلاةً رخيصةً لتبرير الذّات، فداود كان سيدفع ثمنَ خطيّته غاليًا في

coptic-books.blogspot.com

الجراح التي أنزَلَها بأمّته وبنفسه، وكان سيفقد الطفل الذي تمنّاه بشدّة أن يحيا، لكن أُصلِح قلبُ داود بفَهم فداحة الخطيّة وبلمسة الله المطهّرة.

دعونا نعود إلى قصّة جيم باكّر Jim Bakker المأساوية ومأساة PTL؛ لا أعرفُ إيضاحًا أفضل وأكثر فعاليةً في زمننا، قليلون سينسون الحزن بل ربّما الغضبَ الذي اختبروه عندما انتشرت القصّة وسقطت الإمبراطورية. بعد أن كُشفت الوقائع اللاأخلاقية الوسخة والتّمويه من قِبَل بعض القادة في PTL، وَضَعَ الصّحافيُّ الذي لعب دورًا أساسيًا في كشف القصّة كتابًا عَنوَنَه – بتهكّم وسخرية – «مغفورٌ له» *Forgiven*. ولم يكن خافيًا الاشمئزاز الذي شعَرَ به الكثيرون، إذ كيف يمكن لأحدهم أن يدّعي الغفران بمجرّد تفوّهِه ببضع كلمات، معظمُها كان لتبرير الذّات؟ لا يمكن لأحدٍ سوى المذنب أن يعتبر ذلك عادلاً.

وجدتُ نفسي مرّةً أقفُ على بُعدِ خطواتٍ قليلة من السيد باكر. كان قد أُخلي سبيلُه حديثًا بعد قضاء فترة سجنٍ مهينة، وبدا أشبهَ بظلٍّ لما كان عليه سابقًا بينما وقفَ وحيدًا لمعظم الوقت، وقليلون فقط توقّفوا ليحيّوه. وحين نظرتُ إليه كان من الصّعب ألّا أشعرَ ببعض ألمِه. تكلّم ذلك المساء إلى جمهورٍ في رابطة باعة الكتب المسيحيّين Christian Booksellers Association. تحدّثَ عن ألمه وكيف أنّه نتيجةً لنفاقه خسرَ كلَّ شيءٍ: زوجتَه، خدمتَه، وسمعَتَه. وتكلّمَ عن يومٍ موحشٍ في السجن بدا له فيه كلّ شيءٍ قاتمًا، كان ينظّفُ الحمّامات عندما قيل له أنّ هناك زائرًا جاء لرؤيته. وإذ نظرَ إلى نفسه في تلك الحالة وتلك الثّياب القبيحة، تساءل إن كان فعلاً بإمكانه الذهاب ومقابلة أيّ أحد. ذهبَ إلى غرفة اللقاء غير عالمٍ إطلاقًا مَن سيكون ضيفه، ولا فكرة لديه عمّا ينتظره؛ أُرشِد إلى الغرفة ووقف مصدومًا إذ رأى بيلي غراهام Billy Graham يدنو إليه ويعانقه.

coptic-books.blogspot.com

كم غنيٌّ مثالُ النّعمة هذا، حيث الرجلُ الذي كسبَ طوالَ حياته إعجابَ الملايين بكونه أعلى من إغراء المالِ والشهوانيّة، يمدُّ يديه ليعانق رجلاً صبَّت عليه الجموعُ غضبًا كبيرًا لكونه خذل الثقةَ العامّة في تلك النواحي عينها. لكن مَن يتوقّف هنا يخسر الفكرة الأوسع، لم تكن نعمة غفران بيلي غراهام سوى انسكاب للنّعمة التي تمتّع بها هو نفسه، والتي يتمتّع بها كلٌّ منّا عندما نأتي للمسيح لأجل الغفران؛ إنّها النّعمة نفسها المقدَّمة لجيم باكر، حتى إنّها سبقَت الكتاب الذي عُنون على نحوِ ملائم «كنتُ مخطئًا» *I was wrong*. هذا ما كان ينبغي أن يُكتَب أولاً ومن ثمّ يمكن كتابة «مغفور له» *Forgiven* لا بسخرية بل بأغنية، أغنية نفسٍ أُطلقت حرّة.

تسفَعنا الخطيّة بشكلٍ أشدّ بعد أن نتلقّى نعمة الغفران وليس قبل، ويدركُ المغفورُ له جسامةَ الخطيّة أكثر عندما يتوبُ بصدقٍ ويُغفر له. إنّ **الله** يدعو قلوبنا الصّارخة لكي تأتي إليه بالتّوبة، وهذا ما يجعل إثمَنا قابلاً للغفران.

عندما يُطرد الذّنب بالازدراء يجعلُ الحياة لا تُعاش، وعندما يُخنق بالكبرياء يجعلُ حياةَ الإنسان لامسؤولة، وعندما يُخفى بالخوف يجعلُ الألم لا يُحتمل، وعندما يتمّ تجاهله كثقافة يجعلُ الأخلاق واهيةً، وعند ادّعاء البراءة المطلقة أمام **الله** يجعلُ الادّعاء لا مبرّر له، وعندما يُسلَّم الذّنب إلى نعمة **الله** ذلك يجعله قابلاً للغفران. كانَ جون نيوتن John Newton يعرفُ ما يتكلّم عنه عندما كتب:

«ما أعجب النعمة! ما أعذب الصّوت الذي خلَّصَ بائسًا مثلي!»

كان مأزقُ سيمون ويزينثال Simon Wiesenthal حقيقيًّا، وكذلك أيضًا جحيم الجنديّ النازيّ الذي كان مستميتًا لأجل الغفران. يستطيع المرء أن يتعاطف كلّيًا مع تحفّظ السيد ويزينثال في التعامل مع جريمة كبيرةٍ كتلك بصورةٍ بسيطةٍ كتلك، لكنّ غفران **الله** ليس بسيطًا إطلاقًا،

coptic-books.blogspot.com

فالهيكل بكلّ فخامته وبهائه كان له جانبًا دمويًّا ألا وهو ذبائحُ الثّيران والخراف في مسعًى للحصول على التّطهير والغفران.

أتذكّر وقوفي مرّةً بجانب المذبح في معبدٍ في كالي Kali في كالكوتا Calcutta – الهند. رأيت رجلاً مرتديًا ثوبًا أبيض نقيًّا يجلبُ معزاةً صغيرةً مربوطةً بحبلٍ، ولدى المذبح وُضِع رأسُ المعزاة على أداةٍ غريبة الشكل لاحتوائه، ثمَّ بأسرع من لمح البصر أنجَزَ سكّينُ الكاهن عملَه، وضُحِّيَ بالحيوان.لكن بعدها حصل أمرٌ غريب، وضع الرجلُ رأسَه على نفس المكان، وانحنى فلمَسَ بعضًا من الدّمِ المُراقِ حديثًا، ووضعَ بقعةً على قميصِه الأبيض قبل أن يغادر.

التَفَتُّ إلى فيلسوفٍ هنديٍّ كان هو مَن يُرينا أرجاء المكان، وسألتُه ماذا تعني تلك البادرة الرّمزية، فتملّصَ من السؤال، مُحرَجًا تمامًا، قائلاً: «لا تعني شيئًا.» في الواقع هذا فعلٌ غريبٌ بالنسبة لأمرٍ لا يعني شيئًا إطلاقًا.

هكذا هو مسعى الدِّين، يدفع الهندوسيُّ عاقبتَه الأخلاقيّة Karma عبرَ ملايين من التجسّدات الجديدة. أمّا مَن يأتي إلى صليب المسيح فيعرفُ يقينًا أنّ الدَّين دُفِعَ. هذه هي نعمة الله التي تواجهُ المذنب وجهًا لوجه لكنّها كبيرةٌ كفايةً لتغفرَ، ويُمحى الذّنبُ كلّيًا.

حلّ المخلّص

ربّما لاحظتَ أو لم تلاحظ أنّه في طريقنا إلى حلٍّ لكيفيّة التجاوب مع الذّنب عَبَرنا فجوةً دقيقةً لكن هائلةً قبل تقديم الغفران. لقد تحوّل التّركيز بعيدًا عن الذّنب.

صوَّر إنغمار بيرغمان Ingmar Bergman هذه الهوّة الضخمة، ربّما حتى أفضل ممّا أدركَ، في مسرحيّته «الفريزات البرّية» *Wild strawberries*،

coptic-books.blogspot.com

وهي قصّة أستاذٍ جامعيّ مَثَل أمام القاضي للحُكم. نظر القاضي إلى المتّهم وصرَّح: «أجدُك مذنبًا.»

«مذنبًا بماذا؟» طالَبَ الأستاذ.
«مذنبًا بالذّنب»، قال القاضي.
«أهذا خطير؟» سأل المتّهم.
«خطيرٌ جدًا»، أجاب القاضي.

فكِّر للحظة، إن كان الذّنب هو كلّ ما علينا التّعامل معه، فإلى أين نذهب؟ كيف يمكن أن نزيل الذّنب؟

قالت ليدي ماكبث: «ولا كلّ عطورِ العربيّة تستطيع إزالة هذه البقعة.» ويقول الدكتور: «هذا المرض أبعد ممّا أستطيع شفاءه.»

إنّ التقمّصات وعدمَ اليقين بلاءٌ للمتديّن. مَن سندعو إلى جوار سريرنا؟ أيمكنُ أن يُمحَى الذّنبُ بكلمة؟ إن استطاع الإنسان أن يأخذ الخطوة التالية ويقول: «أنا خاطئ»، فسيأتيه الجواب بانتصارٍ «أهه، لديّ مخلّصٌ لأجلك. لقد ذهبَ إلى الصليب ليحمل العقاب ويدفع ثمننا، الذي لم يكن رخيصًا؛ إنّها عطيّة الله التي لا تُثَمَّن، إذ أعطى ابنه ليحمل الذّنب الذي جلبَته الخطيّة للعالم.»

لديَّ صديق حدّثني منذ سنوات عن صعوبة الدّرس الذي تعلّمَه عن كلفة الغفران. لقد خان زوجته وعائلتَه وعاش ألمَ التماسِ الغفران وإعادة بناء ثقتهم، وافترض بطريقةٍ ما بعد فترة من الزمن أنّه قد تصحّح الأذى بالنسبة لهم وامّحى الماضي من ذاكرتهم. وذات يوم عاد إلى البيت من العمل باكرًا بعض الظهر، ليأخذ استراحةً فقط، وعندما دخل إلى المنزل استطاع سماع زوجته تبكي جاثيةً على ركبتيها، غير عالمةٍ أنّه في البيت، تسأل الله أن يساعدها لتنسى كلّ ما سبّبَ لها هذا الألم. كان إيقاظًا عنيفًا له عن الكلفة.

coptic-books.blogspot.com

ضاعِف هذا الخطأ مرّاتٍ لا محدودة وستحصل على لمحةٍ عمّا حمله المسيح على الصليب لأجلك ولأجلي.

عندما انتهت المسرحيّة في كمبوديا، سألتُ مترجمي: «حدَثَ الكثيرُ من الخطأ، ما الذي تفتقده هذه القصّة؟» ورغم أنّه لم يكن مسيحيًّا، أعطاني جوابًا لم أكن أتوقّعه، قال دون تردّد: «مخلِّص.»

إنّ الذّنب اختبارٌ حقيقيّ في الحياة، لكن عندما يبقى كمجرّد ذنب فهو يستحضر كلَّ جهدٍ لخدمة الذّات من الازدراء، الكبرياء، الخوف، نبذ الأخلاق، أو ادّعاء البراءة. فقط في الاعتراف بالخطيّة هناك إصلاح حقيقيّ، لأنّ الذنب مشكلة عموديّة قبل أن تكون أفقيّة. فالله هو من عُصِي أمره قبل أن تُظلَم البشريّة، لهذا فالله وحده له الحقّ المطلق ليغفر، وعندها فقط يُمحى الذّنب بالكامل، عندها فقط يستطيع مَن غُفِر له أن يعرف معنى أن يتلقّى وبدوره يمنح الغفران عندما يُساء إليه. نحن جميعًا متعَبون من العيش في عالمٍ يحيا بمنطق عدم الغفران؛ ما أعظم غفران الله الذي يمكننا أن نستقبله شخصيًّا.

تعبّر الأسطر المعروفة لـ جون دون John Donne بشكلٍ جميلٍ جدًّا عن الإحاطة والسرور بمثل هذه النعمة المقدَّمة من المسيح يسوع عندما يعترف الإنسان بأنّه مذنب بالخطيّة:

أَستَغفِرُ ذلك الإثم حيث بدأتُ،
الذي كان إثمي، رغم كونه فُعِلَ من قبل؟
أَستَغفِرُ ذلك الإثم الذي فيه انزلقتُ
وما زلتُ أنزلقُ، مع أنّي ما زلت أحزن له؟
حينما فعلتَ، أنت لم تفعل،
لأنّ لديّ المزيد.

coptic-books.blogspot.com

أَستَغفِرُ ذلك الإثم الذي به جَذَبتُ
الآخرين ليخطئوا، وجعلتُ خطيّتي بابًا لهم؟
أَستَغفِرُ ذلك الإثم الذي تجنَّبتُ
سنةً أو اثنتين، لكن تمرّغت بما لا حصرَ له؟
حينما فعلتَ، أنتَ لم تفعل،
لأنّ لديّ المزيد.

لديّ خطيّةُ خوفٍ، أنّني إذ أنسجُ
خيطي الأخير، سأهلكُ على الشاطئ.
لكن أقسِم بذاتك أنّه عند موتي
سيضيء ابنك كما يضيء الآن وحتّى الآن.
وبفعلك ذلك، أنت لم تفعل،
أنا لم أعد أخاف.[١١]

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

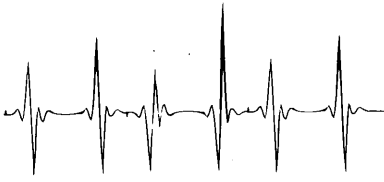

صرخةٌ لأجل حرّيةٍ في المتعة

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

القصّة التي سأذكرها الآن مألوفةٌ لبعض قرّائي، لكنّها تساعدني لأصوغَ بشكلٍ أوضح طبيعة الموضوع الذي أمامنا وأهمّيتَه. كنّا منذ عدّة سنواتٍ عائدين إلى البيت من تورنتو، كندا Toronto, Canada، وكانت ابنتنا سارة Sarah قد خضعت للتوّ لجراحةٍ معقّدةٍ وحرجةٍ جدًّا في أذنها الدّاخلية، ولذا كان رأسُها ملفوفًا كلّه بالضّمادات وكانت تتعافى بشكل جيّد. وفي طريقنا توقّفنا في منزل أحد الأقارب، وأمضينا فترة بعض الظّهر في مضمارٍ للغولف المصغّر لأجل الأولاد ليمرحوا معًا. وفجأة جاء ابننا راكضًا إلينا صارخًا: «أمّي! أمّي! أسرعي، تعالي! لقد أُصيبت سارة!»

كنّا على يقينٍ أنّها بشكلٍ ما قد أذت أذنَها مجدّدًا، لكن حين وصلنا إليها رأينا بالأحرى منظرًا مؤلمًا لن ننساه مطلقًا كعائلة؛ كانت راكعةً على الأرض ووجهها بين راحتيها بينما الدّم ينسكب من بين أصابعها وكانت تصرخ بألمٍ مكرّرةً: «ساعدوني!»

أصابتها عرَضًا تلويحةُ مضرب غولفٍ قويةٌ مباشرةً على العين تاركةً جانب وجهها متأذّيًا بشكل مرعب. أسرعنا بها إلى المستشفى في سيّارة إسعافٍ تختلجُنا أسئلةٌ كثيرةٌ إذ واجهَنا الاحتمال المروّع بخسارة عينها. لكنَّ الله بنعمته الوافرة أعفاها من ذلك. كانت الجراحة الطارئة نجاحًا استثنائيًا، وتركتها دون أيّ ندبة، بحيث لا يمكن أبدًا توقّع كم كان الوضعُ خطرًا في مرحلةٍ ما.

إنّ الاختبارات التي تجرح وتؤذي مثل تلك تُعَدّ بالملايين في الحالة البشريّة، لذلك نجدُ أنفسَنا مدفوعين مرّة تلو الأخرى لنطرح سؤال الألم

coptic-books.blogspot.com

والمعاناة. لكنّني لطالما تساءلتُ وباجتهادٍ لماذا في حين نلتمسُ أجوبة الله بإصرارٍ في خضمّ المعاناة، لا يبدو أبدًا أنّنا نتوقّف بنفسِ الدّرجة من الإخلاص لنسأله إرشادًا أو حكمةً في المتعة، ونبدو جدُّ متشكّكين حيال حضور الله في المرح والمتعة.

أليسَ ممّا يدلُّ على تحامُلنا أيضًا أنّ المجتمع بالعموم يسِمُ كلَّ المآسي على أنّها «أفعال الله»، بينما يخفق في أن يعزو إليه فضلاً مكافئًا عندما يتمتّع بشيء جيّد؟ هذا معاكسٌ لمأزق أيّوب، فهو عرفَ أنّ كلَّ الخير أتى من الله لكن تحيّر من مصدر كلِّ الشرّ. أمّا نحن، شكوكيّو ما بعد الحداثة، فنلوم الله على كلِّ الشرِّ وننسب لأنفسنا كلّ ما هو جيّدٌ. هل قَبِلنا جميعنا إيمانًا أنّ الله غير مهتمٍّ في جعل الحياة ممتعةً؟ هل تمّت إعادةُ صياغة أو إعادةُ تشكيل الإيمان المسيحيّ بطريقةٍ ما ليظهر كقاتلٍ للمتعة أو عائقٍ أمام المرح؟ هل تمَّ تسليمُ التمتّع والتّسلية الآن إلى «العالم» بحيث أنّ مجرّد فكرة المتعة تُرى على أنّها معاديةٌ للرّوحانية؟ أيمكن أن يمنحنا الله مجموعةً واسعةً من المتع بما فيها الملموسة والجماليّة بحيث نستمتع بها دون الشعور أنّها استراحةٌ من الرّوتين بالنسبة للمسيحيّ؟

قلّةٌ قليلةٌ من القضايا بحاجةٍ ماسّةٍ لتُدرس مليًّا وتُقدّم بعنايةٍ بقدر هذا الموضوع. لا أحد ينكرُ أنّ تنوّع المتع المعروض لثقافة المستهلك الآن، جعل ما كان يومًا إمكانياتٍ غير واردةٍ متاحًا بمعدّلاتٍ صاعقة.

مليارات الدّولارات تُنفَق في صناعة المتعة، داعيةً لكلِّ شيء من المُسِرّ إلى المُسيء، من العقليّ إلى الحسّي، من التثقيفيّ إلى غير المعقول؛ مشاهد، أصوات، صور، نكهات، أشياء، عواطف، وخبرات مستفيضة، كلّها مقدَّمةٌ في مجموعةٍ متألّقة ومغرية.

coptic-books.blogspot.com

بين أيدينا تكنولوجيا من الدّرجة الأولى وما يستطيعُ العبقريّ المبدع فعله بكلِّ هذا، أمرٌ يستحقُّ التأمّل. ففي النّهاية نحن نحتاجُ أن نترفّه ونمرح، وهذا يفسّر نجاح أيَّ أمرٍ يأسر ويثير المخيّلة منذ بداية الخبرة البشريّة.

بركةٌ مختلطةٌ

بما أنّ الحاجة إلى المتعة حقيقيّة بشكلٍ لا يمكن نكرانه، تبرز جملةٌ من الأسئلة: كيف نجد حرّيةً أصيلةً في التمتّع بالحياة في أفضل ما تقدّمه؟ كيف نختار ما هو متعةٌ شرعيّة ونرفض ما هو غير شرعيّ؟ وبأكثر دقّة، كيف نتعلّم أن نفكّر بهذه الأمور بشكلٍ بنّاءٍ بدلاً من العيش بشكل ذرائعيٍّ، متّخذين قراراتٍ لحظيّةٍ دون مبادئ مُرشدةٍ توجّه خياراتنا؟

إنّ الإحباط الذي يشعر به الملايين حيال معرفة كيفيّة إرشاد أطفالهم وشبابهم، يشكّل قلقًا خاصًّا لديهم، إذ بين أيديهم عالمٌ من الفُرص اللامحدودة. ولا بدّ أن تغمرهم أسئلةٌ وصراعاتٌ عميقة بينما يُطعَمون حميةً ثابتةً من كلّ ما يستهوي العين والمخيّلة مع القليل جدًّا ممّا يغذّي الضّمير. ويتمّ التّلاعب بهم إلى الاعتقاد بأنّ الشهيّة سببٌ كافٍ لاستهلاك أيّ شيء. وما هو أسوأ بعد، أنّ شهيّاتٍ جديدةً تُبتكَر بحيث تتركهم أكثر جوعًا ممّا سبق، وتحت وهم أنّ تلك الأوجاع يمكن إشباعها لو استطاعوا فقط إزالة كلّ القيود.

يرتعد الإنسان للتفكير في الضّرر المُلحق بهم طويلاً قبل أن يملكوا النّضج والقوّة الدّاخلية ليلتقطوا الجيّد ويرفضوا الكذب.

إنّ تشعبات الحمولة الواسعة المختزنة داخل شبكة الإنترنت جلبت إمكانياتٍ جديدةً حتى للأطفال. ما الصّورة، ما الفكرة، ما اللّغة، ما الذي سيجتاح عقولاً طريّةً كتلك؟ لا تأتي كلُّ المتع مع ملصقٍ تحذيريّ، ولا تستطيعُ المحكمةُ العليا ولا القانون أن يغيّرا الإرادات

coptic-books.blogspot.com

التي صمَّمت على تسويقِ منتجاتٍ تقدّمُ المتعة دون قيدٍ وتدمّر الناس دون اعتذارٍ.

لكن دعونا نتوقّف قبل أن نُحمَل بعيدًا. أعتقد هنا أننا نُلحق بأنفسنا إجحافًا جسيمًا عندما نجعل من وسائل الإعلام الترفيهيّة هدفًا سهلاً نصوّب عليه. إنّها تستحقُّ حصّةً من اللّوم، نعم، لكن ليس كلَّه. وقد يكونُ التّبريحُ بها أسلوبًا انفعاليًّا للخروج من أمرٍ أكثر تعقيدًا بكثير، من شبكةِ شاركنا كلُّنا في نسجها.

إلى جانب ذلك، إنّ المتعة ليست في مجالهم على وجه الحصر، فالمصادر عديدة، والاحتمالات تشكّل مزيجًا من الجميل والوضيع.

تحدٍّ هائل

ما الدّور الذي لعبه المفكّرون في هذه الرّقصة مع نمط حياةٍ محرَّرٍ من الأغلال؟ أكانوا أقلّ تأثيرًا في جعل العقول الشابّة تتعثّر؟ في الواقع لم يبقَ أمرٌ سوقيٌّ جدًّا في التّجربة البشرية إلّا ويستطيع معلّمٌ ما من مكانٍ ما أن يُسرع لتبريره.

باسم الحرّيّة الأدبيّة وبدفعٍ من النسبيّة المُحتفى بها، يمكن التّغاضي عن كلِّ أمرٍ على أنّه طبيعيّ، فقط سمِّه تنوّعًا في ثقافتنا، وسيكون ذلك سببًا كافيًا.

منذ حوالى ثلاثين عامًا، كان وراء استقالةِ مالكولم ماغريدج Malcolm Muggeridge من خدمته الرّعوية في جامعة إدنبرة Edinburgh صراعٌ أخلاقيّ، وبشكلٍ رئيسيٍّ مطالبةُ التلاميذ أن تلعب الجامعة دورًا في تزويدهم بموانعِ الهمل. وهذا ما قاله ماغريدج في خطابه الوداعيّ:

«إذًا، يا طلّاب إدنبرة الأعزّاء، قد تكون هذه المرّة هي الأخيرة التي أخاطبكم فيها، وهذا ما أريدُ قوله، وأنا حقًّا لا أهتمّ إن

coptic-books.blogspot.com

كان يعني لكم شيئًا أم لا، أو حتى إن اعتقدتم أنّه يتضمّن شيئًا ما أم لا.

أريدُكم أن تصدّقوا أنّ جدالي مع رؤسائكم المنتخبين لا علاقة له بأيّة مواقف پيوريتانيّة من جانبي. فأنا لا إيمان لديّ بالعفّة لأجل خاطر العفّة ذاتها، ولا أمنية لديّ، تحت أيّ ظرفٍ، بأن أتحقّق من إنجازات حياتكم وشخصيّاتكم. لكن لا بدّ لي من قول ما يلي: إنّه أيًّا يكن ما تدور حوله الحياة أم لم يكن، فهو ليس أمرًا يُعبَّر عنه عن طريق التخبُّل بالمخدّرات والعلاقات الجنسيّة العرضيّة، وكيفما كنّا سنغامر في المجهول فأنا أؤكّد لكم أنّه ليس على الأجنحة اللّدنة لمجلّة *Playboy* ولا أوهام المخدّر.»[1]

لم يمرّ في خاطر ماغريدج ما سيفعله التعلُّم في أيّامنا المعاصرة حتى بمَن هم أصغر سنًّا من الجامعات. لكن ممّا يدعو للامتنان أنّ عالم الثّقافة ليس صامتًا كلّيًا على هذا المنزلَق المنحدر، فهناك أصواتٌ بين صفوفه تدعونا للتنبّه وللتّفكير مليًّا فيما يمتدّ أمامنا، وذلك يستحقّ الاستحسان والتّقدير.

عام ١٩٨٥ قال نيل پوستمان Neil Postman، أحد تلك الأصوات، في التّمهيد لكتابه «تسليةُ أنفسِنا حتى الموت» *Amusing Ourselves to Death*، مقارنًا بين كتاب جورج أورول George Orwell «١٩٨٤» *1984*، وكتاب ألدوز هوكسلي Aldous Huxley «عالمٌ جديدٌ شجاع» *Brave New World*:

«ما خشيَه أورول كان أولئك الذين يحظرون الكتب، ما خشيه هوكسلي هو ألّا يوجد سببٌ لحظر كتاب إذ لن يوجد مَن يريد أن يقرأ واحدًا. خشيَ أورول مَن يمكن أن يحرمونا من المعلومات، وخشي هوكسلي مَن سيعطونا الكثير بحيث نُختزَل إلى السلبية والأنانيّة. خشيَ أورول

coptic-books.blogspot.com

أن تُخفى عنّا الحقيقة، وخشي هوكسلي أن تُغرَق الحقيقة في بحرٍ من الازدراء. خشيَ أورولِ أن نصبح ثقافةً أسيرة، وخشي هوكسلي أن نصبح ثقافةً تافهةً منهمكةً فيما يكافئُ دغدغاتِ شعوريّةٍ وقشعريراتِ استمتاعيّة. وكما علّق هوكسلي في النسخة المنقّحة من «عالم جديد شجاع» *Brave New World Revisited*، لقد أخفق التحرّريّون المتمدّنون وأصحابُ المذهبِ العقليّ المتنبّهون دائمًا لمواجهة الاستبداد في الأخذ في الحسبان شهيّة الإنسان اللامحدودة للّهو. وأضافَ هوكسلي أنّ النـاسَ في «١٩٨٤» يُهيمَنُ عليهم بإلحاق الألم، بينما في «عالم جديد شجاع» يُهيمَن عليهم بإلحاق المتعة. باختصار، خشيَ أورولِ أنّ ما نكرهه يدمّرنا، بينما خشيَ هوكسلي أنّ ما نحبّه يدمّرنا، وهذا الكتاب يتكلّم عن إمكانيّة أن يكون هوكسلي وليس أورولِ على صواب.»[٢]

[illegible]

[illegible] Postman على حقّ، لكن هنا أيضًا، ينبغي أن نتوقّف [illegible] الإعلام هدفٌ سهلٌ، وتأثير الثّقافة العلمانيّة مخيفٌ أكثر بكثيرٍ، [illegible] هذا أيضًا يمكن أن يُجعَل موقع جَلدٍ على أيّة منصّةٍ تتكلّم في [illegible] [illegible]طتيّ بدايتهما، ليس مدهشًا أن تعبث كلتا المؤسّستان [illegible]

[illegible] الحقيقة، هناك إدراكٌ أكثر إيلامًا من توجيه النّقد ضدّ الإعلام أو الثقافة العلمانيّة، فالكنيسةُ بالمجمل يجب أن تحمل جزءًا من اللّوم، فقد كنّا مقصّرين جدًّا في التّعليم عن هذه المشكلة في العمق. مِتَعٌ خاصّة، نعم، وقد طُرِقت مرّةً تلو الأخرى من قِبَلنا جميعًا، لكن هناك

coptic-books.blogspot.com

شخٌّ واضحٌ في الإرشادات التي تقدّم مبادئ أساسيّةً يمكن أن تقودنا عبر حقلٍ صعب. وإذا أضفنا إلى هذا الحقيقة المربكة أنّ استطلاعًا وراء الآخر يُظهر أنّ هناك اختلافًا قليلاً جدًّا في الحياة الخاصّة بين مَن يدّعون أنّهم أتباع المسيح وبين الآخرين، عندها يصبح سببُ واقعنا المضطرب واضحًا بشكلٍ مفزع.

لقد كان فرويد Freud، المحبط، من بين كلِّ النّاس، مَن قال في أوائل القرن: «لم أجد إلّا القليل من الخير فيما يتعلّق بالبشر ككلّ. وحسب خبرتي معظمهم نفاية، بغضّ النّظر إن انتسبوا علانيةً إلى عقيدةٍ أخلاقيّةٍ ما أم غيرها، أم ولا واحدة إطلاقًا.»[٣] ربّما هذا قاسٍ ومبالغٌ فيه بعض الشيء لكنّه ليس بعيدًا كلّيًا عن الصّحّة. فجميعنا، إن أصدقنا الكلام، نتخبّط بسبب عوز الاتّجاه الواضح والقوّة الدّاخلية في عالمٍ من الخيارات المتغيّرة والمتضاعفة. لكن إن كان المقصود للمتعة أن تكون شرعيّةً، والله نفسه يتكلّم إلينا عن الحكمة التي نحتاجها لننقذ أنفسنا من الحرفيّة المتطرّفة ونتحرّر لنتمتّع بالحياة في أفضل معنىً للكلمة، يبرز السؤال:

كيف نَلقى المباهج التي تتوق إليها قلوبنا دون أن نجني على أنفسنا في السياق؟ كيف يمكننا التمتّع بالحياة دون تدنيسها في السياق؟

حالما نكتشف ما يدعونا إليه الله، نجد أنّه يمكن للمخيّلة المضبوطة من قِبَل الله أن تكون معينًا لا ينضب من الفتنة. هناك متعة الإصغاء، متعة الرّؤية، متعة التذوّق واللّمس، متعة الشعور والمعرفة، وبالأولى طبعًا، متعة الكينونة.

خذ الخبرة البسيطة لكن الكبيرة للنّشاط الجنسيّ في تعبيره الأكمل بين الرجل وزوجته. لا يمكن مطلقًا لتطوّرٍ غبيٍّ أن يجلب سرورًا كهذا لنفس الإنسان وجسده، كان بإمكان الله في قدرته الكلّية أن يُرجِعه إلى ما لا يزيد عن فعلٍ مُنجِبٍ، وكانت روعة الحياة الجديدة لتكون معجزيّةً كفايةً.

coptic-books.blogspot.com

لكن عوضًا عن ذلك بارك الإكمال بالمتعة القصوى للحبّ والرّقة والتنعّم. أيمكن أنّ الإله الذي جعل هكذا نشوة متاحةً في نقاوة، يحرمنا الإرشاد في المتعة؟ لا، له الشكر. دعونا نسبر الأعماق على أفضل ما نستطيع، وأنا أعتقد أنّ الأجوبة التي سنجدها بينما نتابع الآن هذا السؤال ستكون مشوّقةً وعمليّةً معًا.

صياغة المشكلة

أحدُ الكتّاب الذين تناولوا هذا الموضوع، قبل زمننا بكثير، هو كاتبُ المقالات العظيم ف. و. بورهام F.W. Boreham. ونظرًا لأنّه كتب قبل نصف قرنٍ من الآن فإنّ نفاذ بصيرته كان بارزًا. فهو يصوّر بدقّة عذاب الوقوع بين توبيخاتِ التّقيّد المفرط بالقانون ممّن صمّموا على جعل كلِّ متعة لعنةً جسديّة، وبين التّساهل عديم القانون لمَن يلاحقون المتعة والمرح كغاياتٍ في ذاتها، هذا ما صاغ به مأزقنا:

> «من الواضح أنّه قُصِد للضّحك والسرور والمرح أن تشغل حيّزًا كبيرًا في هذا العالم، مع ذلك لا يوجد موضوعٌ آخر تحت الشمس أبدت فيه الكنيسة إحراجًا وارتباكًا أكثر. ويبدو كأنّنا اكتشفنا هنا طورًا هامًا من الخبرة البشريّة كانت فيه الكنيسة كتومةً بشكلٍ مذنب، «أرضًا مجهولةً» لم يستكشفها أيُّ نبيّ جريء، بحرًا صامتًا لم يمخَر مياهه أيّ مغامرٍ كنسيّ، بلدًا مظلمةً غريبةً لم تشرق عليها شمسٌ يومًا. يخبرنا د. جويت Dr. Jowett عن الاسكتلنديّ العجوز المكرّس الذي في ليل السبت يقفل البيانو ويفتح الأورغ، عاكسًا الإجراء آخر أمرِ مساء يوم الرّب، فالبيانو هو الأثيم والأورغ هو القدّيس! واعتاد د. پاركر Dr. Parker أن يهزأ كثيرًا برجلٍ اعتبر الباغاتيلا (لعبة تشبه البيلياردو) عطيّةً من السماء

coptic-books.blogspot.com

والبيلياردو محطَّ قدم إلى الهلاك. المسرحيّة التي ندينها هي أناثيما بالنسبة لَنا، وإن عُرِضت نفس المسرحيّة، أو أخرى أدنى بكثير، كفيلم نُعجَب بها بكلِّ سرور. مسيحيٌّ يتبع حلقة المسَرّات مع أجنّ المرحين، وآخر يرتدي قميصًا من شَعرٍ ويُجيع نفسه إلى هيكلٍ عظميٍّ. واحدٌ يعاملُ الحياة على أنّها كلّها مزاح، وآخرٌ على أنّها جنازة. نحن ننحرف من صخرة Scylla للجماليّة إلى صخرة Charybdis للتقشّف. نتأرجح كرقّاص الساعة بين تساهل الأبيقوريّين وصرامة الرّواقيّين، مخفقين في أن نميّز مع كاتب *Ecce Homo* أنّه مجد المسيحيّة الذي برفضه سُخفَ كلٍّ منهما جمع الامتيازات الرئيسيّة لكليهما. نُجيز دون أن نعرف لِمَ نجيز، ونُحرِّم دون أن نعرف لِمَ نُحرّم. نحن:

نسوّي لخطايانا التي نميل إليها
بإدانة تلك التي لا نملك مَيلاً إليها

نحن في بحرٍ بدون خريطةٍ أو بوصلة. نظريّاتنا عن المتعة في إرباكِ ميؤوس منه. أما من عقيدةٍ محدّدة للتسلية؟ أما من فلسفةٍ للمرح؟ لا بدّ أن يوجد! وموجود.»[٤] سأل بورهام: «أما من عقيدةٍ للتسلية؟ أما من فلسفةٍ للمرح؟»

ألا يبدو هذا جمعًا لألفاظٍ متناقضة؟ عقيدة وتسلية، فلسفة ومرح. ممّا يدعو للشّكر، أنّه توجدُ عقيدةٌ للمتعة، لأنّ المتعة ليست فقط نتيجةً بل أيضًا لها حدود، وهذا ليس للحدّ منها بقدر ما هو لحمايتنا من الاستعباد. وتوجد فلسفةٌ للمرح لأنّ المرح ليس فقط فعاليةً محسوسةً وإنّما يرتكز على ما يجول في الفكر، وخلافًا لمعظم الأحكام السبقيّة يمكن للتّفكير أن يكون مرِحًا أيضًا. يتناول الكتاب المقدّس موضوع المتعة ربّما أكثر جدًّا من قضيّة الألم، إذ في الحقيقة أنّ غياب المعنى المطلق لا يأتي من

coptic-books.blogspot.com

الإرهاق بالألم بل من الإرهاق بالمتعة. صارع سليمان مع هذه القضيّة ربما أكثر من أيِّ شخصٍ آخر. كان متخصّصًا في المتعة، لكنّه وصل إلى نتائج راسخةٍ وأكيدة:

«قُلْتُ أَنَا في قَلْبِي: هَلُمَّ أَمْتَحِنُكَ بِالْفَرَحِ فَتَرَى خَيْرًا. وَإِذَا هذَا أَيْضًا بَاطِلٌ. لِلضَّحْكِ قُلْتُ: مَجْنُونٌ، وَلِلْفَرَحِ: مَاذَا يَفْعَلُ؟ افْتَكَرْتُ فِي قَلْبِي أَنْ أُعَلِّلَ جَسَدِي بِالْخَمْرِ، وَقَلْبِي يَلْهَجُ بِالْحِكْمَةِ، وَأَنْ آخُذَ بِالْحَمَاقَةِ، حتى أَرَى مَا هُوَ الْخَيْرُ لِبَنِي الْبَشَرِ حتى يَفْعَلُوهُ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ مُدَّةَ أَيَّامِ حَيَاتِهِمْ. فَعَظَّمْتُ عَمَلِي: بَنَيْتُ لِنَفْسِي بُيُوتًا، غَرَسْتُ لِنَفْسِي كُرُومًا. عَمِلْتُ لِنَفْسِي جَنَّاتٍ وَفَرَادِيسَ، وَغَرَسْتُ فِيهَا أَشْجَارًا مِنْ كُلِّ نَوْعِ ثَمَرٍ. عَمِلْتُ لِنَفْسِي بِرَكَ مِيَاهٍ لِتُسْقَى بِهَا الْمَغَارِسُ الْمُنْبِتَةُ الشَّجَرَ. قَنَيْتُ عَبِيدًا وَجَوَارِيَ، وَكَانَ لِي وُلْدَانُ الْبَيْتِ. وَكَانَتْ لِي أَيْضًا قِنْيَةُ بَقَرٍ وَغَنَمٍ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ كَانُوا فِي أُورُشَلِيمَ قَبْلِي. جَمَعْتُ لِنَفْسِي أَيْضًا فِضَّةً وَذَهَبًا وَخُصُوصِيَّاتِ الْمُلُوكِ وَالْبُلْدَانِ. اتَّخَذْتُ لِنَفْسِي مُغَنِّينَ وَمُغَنِّيَاتٍ وَتَنَعُّمَاتِ بَنِي الْبَشَرِ، سَيِّدَةً وَسَيِّدَاتٍ. فَعَظُمْتُ وَازْدَدْتُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلِي فِي أُورُشَلِيمَ، وَبَقِيَتْ أَيْضًا حِكْمَتِي مَعِي. وَمَهْمَا اشْتَهَتْهُ عَيْنَايَ لَمْ أُمْسِكْهُ عَنْهُمَا. لَمْ أَمْنَعْ قَلْبِي مِنْ كُلِّ فَرَحٍ، لأَنَّ قَلْبِي فَرِحَ بِكُلِّ تَعَبِي. وَهذَا كَانَ نَصِيبِي مِنْ كُلِّ تَعَبِي.

ثُمَّ الْتَفَتُّ أَنَا إِلَى كُلِّ أَعْمَالِي الَّتِي عَمِلَتْهَا يَدَايَ، وَإِلَى التَّعَبِ الَّذِي تَعِبْتُهُ فِي عَمَلِهِ، فَإِذَا الْكُلُّ بَاطِلٌ وَقَبْضُ الرِّيحِ، وَلاَ مَنْفَعَةَ تَحْتَ الشَّمْسِ.»

(جامعة ٢ : ١ – ١١)

coptic-books.blogspot.com

عندما سُئل الرّوائي جاك هيغينز Jack Higgins ما الأمر الذي يعرفه الآن ويتمنّى لو كان عرفه حين كان شابًّا، قال: «أتمنّى لو أخبرني أحدُهم أنّه عندما تصل إلى القمّة لا يوجد شيءٌ هناك.»

لقد أكّدَ سليمان ذلك منذ زمنٍ بعيد وبتعابير أكثر تطرّفًا بكثير.

نرى هنا أوّل إشارةٍ تحذيريّة. أليس مفاجئًا أنّه بعد سنواتٍ من التّجربة والانغماس في كلّ ما يمكن أن تحصل عليه العين، وصل سليمان إلى نتيجة أنّ حياته في متعةٍ لامحدودة تركته فارغًا وساخرًا؟ ألم يكن عميد طالبي المتعة؟ لقد بلغ بمذهب المتعة إلى أقاصٍ جديدة.

لكن دعونا ننتبه جيّدًا، فإنّ عالَم سليمان لم يكن مجرّد عالمٍ من الشهوانيّة، مليءٍ بالنّساء والجواري، فهو كان عبقريًّا في القدرة الفنّية. كتب بوفرةٍ وارتقى إلى ذرا عظيمةٍ في الأدب، فنّ العمارة، الموسيقى، وفي الفلسفة، وتدفّقت آلاف الأمثال والأناشيد من قلمه. ونخطئ تقديرَه إن نسينا قدرته الإبداعيّة الهائلة فنحن ما زلنا بعد قرونٍ عديدة نرى بقايا إنجازاته، لكن في كلماتِه السابقة أنذر سليمان كلَّ مَن قد يمشي في رَكبِه.

لقد تكرّرت تجربته في حياة الآلاف، ومثل متعهّدٍ إباحيّةٍ يغدو عاجزًا أو مقامرٍ ينشل جيوب نفسه، هكذا سرقت المتعة غير المضبوطة محبّيها.

يقولُ عالما النّفس فرانك مينيرث Frank Minirth و پول مِيير Paul Meier ما يؤازر هذه الفكرة في كتابهما «السعادةُ خَيَارٌ» *Happiness is a Choice*:

> «د. مينيرث وأنا مقتنعان أنّ العديد من النّاس يختارون السعادة لكن مع ذلك لا يحصلون عليها، وسبب ذلك أنّه رغم اختيارهم أن يكونوا سعداء فهم يلتمسون السلام الداخليَّ والفرح في الأماكن الخاطئة. يبحثون عن السعادة في المادّيات ولا يجدوها. يبتغون الفرح في البسالة الجنسيّة

coptic-books.blogspot.com

فينتهون إلى متع زائلة وخيبات أمل مُرَّة طويلة الأمد. يلتمسون تحقيق الذّات في تبوّء مراكز سلطة في مجالس الحكومة أو حتى في عائلاتهم الخاصّة (بممارسة السيطرة المفرطة) لكن يبقون غير محقَّقين. يزورني في مكتبي بعض أصحاب الملايين ويخبرونني أنّهم يمتلكون بيوتًا كبيرة، يُخوتًا، ملكيّات مشتركةً في كولورادو، خليلةً جميلةً وزوجةً غير مُرتابة، مناصب نقابيّة آمنة... وميولاً انتحاريّة. يملكون كلَّ ما يمكن لهذا العالم أن يقدّمه عدا أمرًا واحدًا – السلام الداخليّ والفرح. يأتون إلى مكتبي كملاذٍ أخير، يتوسّلوني أن أساعدهم ليقهروا الإلحاح لقتل أنفسهم. لماذا؟ الأجوبة ليست بسيطةً، فالعقل والمشاعر البشريّة نظامٌ ديناميكيٌّ معقّد.»[٥]

تُشكّل هكذا سخريةٌ واقعًا صعب الاستيعاب والتّصديق بالنسبة للشّخص العاديّ. لكنّ ما سبق يكفي ليجعلنا نتوقّف وننتبه أنّه حيثما تكثر المتعة مطلوقة العنان تكون هناك حاجةٌ أعظم للعثور على أجوبة، لئلّا تُنفِق حياتنا ذاتها إلى الفراغ.

الحكمةُ المبتغاة

يقدّم لنا سليمان دليلاً هامًا ليقودنا في الاتّجاه الصَّحيح، قال: «تَحْتَ الشَّمْسِ» كلُّ شيءٍ «بَاطِلٌ وَقَبْضُ الرِّيحِ».

تحت الشَّمس يعني الوجود خارج الله، حيث لا تزويد من الخارج، أي في نظام مُغلق. ماذا عساها تفعل وسائل الإعلام العالميَّة سوى الاشتغال في أغرب تلفيقات الحواس حين تكونُ فلسفتُها توالدت تحت الشمس؟ وماذا يمكن للثَّقافة العالميَّة أن تفعل في حين أنّ فطنتها قد بيعت بالكامل إلى نظامٍ مُغلَق؟

coptic-books.blogspot.com

أمّا بالنِّسبة للمسيحيِّ، فالله قد تكلَّم، ونظريَّتُنا عن المتعة ليست مولودةً تحت الشمس وإنَّما منه، الذي يقول عنه كاتب المزامير: «جعَلَ مجدَه فوق السّموات» (المزمور ٨: ١). وقد أرسل ابنَه الذي كانت حياته تجسيمًا لكلِّ ما هو صالحٌ، ومع ذلك تكلَّم عن فرحٍ يفوق كلَّ ما يمكن لهذا العالم تحت الشمس أن يقدّمه.

في مسعاه للإجابة عن أسئلته: «ألا توجد عقيدة محدّدة للتسلية؟ ألا توجد فلسفةٌ للمتعة؟» قدَّم لنا إف. و. بورهام F. W. Boreham ثلاثة مبادئ أساسيَّة شعر أنَّها تزوِّدنا بالحكمة التي نحتاجها وسط خياراتنا. بالطبع هو استقاها من الكتاب المقدَّس، وأنا سأؤكِّدُ عليها وأتوسَّعُ فيها، ثمَّ أضيفُ عليها.

المُتعَة الشَّرعيَّة

يستنبط بورهام المبدأ الأوَّل من نصٍّ بعيدٍ لا يتكلّم عن الموضوع مباشرةً لكنّه يعبّر عنه بوضوح.

يروي النصُّ قصّة استعداد جدعون لمحاربة المديانيّين، فيخبرنا الأصحاح السابع من سفر القضاة عن معركةٍ تلوح وقد جمع الشعب جيشًا هائلاً رغبةً منهم في التأكّد من إحراز النّصر. وإذ بالله يقاطع مسيرتهم بعبارةٍ محيّرة، فقد أخبر جدعون أنّ جيشَه، المكوّن من اثنين وثلاثين ألف رجلٍ، كبيرٌ جدًّا ويجب إنقاص هذا العدد بشدّة. وعندها أَذِن جدعون للخائفين بالمغادرة، فقَبِلَ اثنان وعشرون ألفًا عرضه وغادروا. لكنّ الله قال: «لَم يَزَل العددُ كبيرًا»، ثمّ جاءت اللّحظة الحاسمة التي تركَت جدعون مع ثلاثمائة جنديٍّ فقط.

لقد توقّف في المسيرة ليتيح للذين بقوا أن يشربوا من نهرٍ مجاور، وكانت الطريقة التي شربوا بها، دون معرفتهم، هي معيار الانتقاء. لن ندخل في ذلك الفرق المنهجي في شرب الماء، لكنّنا سنخلص منه بحقيقةٍ

coptic-books.blogspot.com

متواريةٍ إنّما لا لَبسَ فيها. والمبدأ هو التالي: لا يوجد خطأٌ في التوقّف لشرب الماء، فقد أنعشهم دون أن يُبعدَهم عن السبب الذي وُجِدوا هناك لأجله أو عن المكان الذي كانوا يتّجهون إليه بالدرجة الأولى.

إنّ أيّة متعةٍ تنعشكَ دون أن تحطَّ منك، تُلهيك، أو تُقصيك عن الهدف النهائيّ هي متعةٌ شرعيّة. وهذا يعني بوضوح أنّ هناك مطلبًا أساسيًا لتعريف أيّة متعة شرعيّة في الحياة وأيّة حرّيّة نتمتّع بها، ألا وهو أن نُعَيِّن أولاً هدف الحياة ذاتها. فكلّ المتعة ترتكز على سبب وجودنا في المقام الأول، ولو فقط استطعنا أن ندرك هذه الحقيقة، لكنّا نوفّر على أنفسنا ساعاتٍ عديدةً وسنواتٍ من الحزن.

لم يقصد الله مطلقًا للحياة أن تُعاش على أساس «الخاصّ»، أي أخذ كلِّ فرصةٍ على أنّها خيارٌ منعزل. ولا يجب اعتبارُ الحياة مثل بوفيه مفتوح من المقبّلات موضوعٍ أمامنا بحيث يمكننا أن نختار أو نرفض منه ما نريد دون تعقّلٍ ونبقى بمنأى من العواقب.

يجب أن تُعَرَّف الحياة أولاً، وعلى أساس ذلك التّعريف نتّخذ الخيارات التي تُبهِج حقًا ولا تُدمِّر. ينبغي أن تكون فلسفة الحياة الأساسيّة نقطةً مرجعيّةً لكلّ الخيارات، فذلك ما يساعدنا أن نميِّز بين الإنجاز وخيبة الأمل، بين المرح والمهلكة.

تقوم كلّ شركةٍ بتحديد هدفها أولاً، ثم تؤسّس البنية والوسائل التي بها تصل تلك المهمّة إلى مستواها الأعلى. وهكذا أيضًا يجب أن يُحَدَّد هدف الحياة قبل أن تُقَرَّر أفضل طريقةٍ لعيشها. هذا هو المنطق وراء قول الفيلسوف الدانماركيّ سورن كيركيغارد Søren Kierkegaard أنّه تعلّم أن يعرِّف الحياة باتجاه الخلف ويعيشها إلى الأمام، وقصد بذلك أنّ المصير الذي ابتغاه أصبح المتحكّم بالاتّجاه الذي يختاره. هو ابتدأ من الحالة النهائيّة للحياة ليقرّر الدرب الحاليَّ المختار؛ هذه هي الطريقة الشرعيّة للبدء في أيّ رحلة.

coptic-books.blogspot.com

أتذكّر من أيّام نشأتي في الهند، مشاركتي في حدثٍ غريبٍ يدعى سباق القيادة البطيئة للدرّاجات، يُقام أثناء يوم رياضةٍ جماعيّ. وفي هذا السباق ليس عليك الإقلاع حال انطلاق بندقيّة البدء، وإنّما التحرّك بأبطأ ما تستطيع، بل في الواقع يُفضَّل إن استطعت أن تبقى ثابتًا على درّاجتك دون أن تلامس قدماك الأرض. وبكلماتٍ أخرى، كان الهدف من السباق أن تصل أخيرًا، وكان البعض ماهرًا جدًا في البقاء ثابتًا بحيث يقطع في السباق أمتارًا قليلة فقط.

أستطيع أن أتخيّل زائرًا ما، يصدف أنّه بطل قيادة الدرّاجات في بلده، يمرّ ويلقي نظرةً على الدرّاجين يهيّئون أنفسهم للبدء بالسباق، ويفكّر: «أتمنّى لو أستطيع المشاركة في هذا السباق وأعلّم أولئك المبتدئين أمرًا أو أكثر عن قيادة الدرّاجات.» فلو مُنِح تلك الفرصة من باب المجاملة، يمكنك أن تتخيَّل دهشته الكلّية لو انطلق مسرعًا عند طلقة البداية، وبعد ثوانٍ لامس شريط النّهاية فيلتفت خلفه ليجدَ الباقين لا يزالون على خطّ البداية في اختبار توازنٍ على درّاجاتٍ ثابتة. ثم تخيّل صدمته في أن يكتشف أنّه كان الأخير لوصوله إلى خطّ النهاية أولاً.

من المفيد أن تعرف هدف السباق أو الحياة بحيث تستطيع أن تلعب حسب القواعد وتفوز.

كان الهدف محدَّدًا تمامًا في ذهن سوزانا ويسلي Susannah Wesley عندما أجابت سؤال ابنها جون John عن تعريف الخطيّة. تذكَّر أنّه كان لديها تسعة عشر ولدًا لذلك اختارت كلماتها بعنايةٍ عالمةً أنّها كانت تُنشئ في بيتها مجتمعًا حقيقيًّا، قالت:

> «أيّ أمرٍ يُضعف تفكيرك، يُفسد نضارة ضميرك، يُبهِم إحساسك بالله وينزعُ تلذّذك بالأمور الرّوحية؛ باختصارٍ، إن كان أمرٌ ما يزيدُ سلطان وقوّة الجسد على الرّوح فهو يصبح خطيّةً بالنسبة لك مهما كان جيّدًا بحدِّ ذاته.»[٦]

coptic-books.blogspot.com

إن كان الهدف الرئيسيّ في الحياة سيرًا أقرب مع الله، فعندها حتى الجيد يوضَع أحيانًا جانبًا في خدمة الأفضل.

فقدان رؤية الهدف

شخصيّاتٌ قليلةٌ في الكتاب المقدَّس تُثيرُ الرَّوع بقدر شمشون. ويكمن إخفاقُه المتكرّر في عدم قدرته على رصف حياته مع الهدف الذي لأجله خلقه الله. نقرأ في الأصحاح الثالث عشر من سفر القضاة أنّ ملاكًا أُرسِل لوالديه ليبلغهم عن الدّور الفريد الذي عيّنه الله لشمشون.

إنّ تربية الأولاد مهمّة متطلّبة ومستنزفة للحياة، فكم أعظمُ بكثيرٍ عبءُ تشكيلِ حياةٍ تَعرفُ أنّها بدورها ستطبع تاريخ أمّةٍ. وهكذا مع تلك الوديعة المقدَّسة أمامهما، علّماه القيمة النفيسة للخيارات المسؤولة.

رغم ذلك لم يستطع شمشون أن يروِّض أهواءه ويضعها تحت سيطرة دعوته العظمى. لقد تداعى عندما وقع في حبّ امرأةٍ فلسطينيّةٍ وأصرَّ على والديه: «خُذَاها لي». إنَّ نبرة شمشون وطلبه المنحرف يحكيان مجلّداتٍ. لقد توسَّل إليه أبوه أن يتذكّر أنّ الله أقامه مع تكليفٍ محدّدٍ بأن يدافع عن شعبه ضدّ تهديدات الفلسطينيّين، فكيف يمكن ألّا يقع في تضاربٍ إن تزوّج من بين الأعداء اللدودين أنفسهم، وعليه أن يحمي أمَّته منهم؟ لكنّ شمشون تنكَّر للتحذير وتجاوز الحدّ، وبعد ذلك بوقت قصير تعثّر إذ أغوي إلى فراش زانيةٍ، ثم سقط وتحطّم عندما داعبته دليلة، حتى خان وديعته المقدَّسة أمام الله. ويخبرنا الكتاب المقدَّس عن حين جاءت لحظة الحساب، بعد أن ساوم شمشون في كلّ معتقداته واحدًا تلو الآخر، اعتقد بكلّ قحةٍ أنّه لا يزال يملك القوّة التي حباه إيّاها الله، لكن بدلاً من ذلك أذلّه أعداؤه. وكم ساخرةٌ تلك اللحظة الأخيرة عندما احتاج عينَي غلامٍ صغير ليقوده إلى دعامات الهيكل الفلسطيني، كلّ ذلك لأنّه فقَدَ رؤية هدفِ الله لحياته.

coptic-books.blogspot.com

إن لم يفهم المرء أنّ هدف الحياة يحدّد نمط الحياة، عندها يكون نمط الحياة بحدّ ذاته أجوفًا، لا معنى له، وتكون الحياة مهدورةً.

ما كان على شمشون أن يوجد في الأماكن التي تردّد إليها، ولا أن يداعب الناس الذين داعبهم. هذه الحقيقة البسيطة لها تشعبات عميقة، فالأماكن التي نذهب إليها، الصّداقات التي نحيط أنفسنا بها، اللغة التي نستخدمها، العروض التي نشاهدها، الكتب التي نقرأها، والأفكار التي نضمرها، كلّها يجب أن تتراصف مع الهدف الذي لأجله دعانا الله.

إنّ مدير البنك الذي يصادف شخصًا غير مخوَّل يفحصُ الوثائقَ الخاصّة بشخصٍ آخر، لديه كلّ المبرّرات ليسأل ذلك الشخص عمّا هو فاعلٌ هناك. ولو طُبِّق هذا السؤال البسيط بضعة مرّاتٍ أسبوعيًّا في حياة كلّ إنسانٍ، سيكشِفُ إن كانت هناك أماكن أو عادات لا تتماشى مع مهمَّة الإنسان في الحياة.

كان لديَّ بعض الأصدقاء المقرَّبين جدًّا في المدينة التي نشأتُ فيها، وعندما دخلنا سنوات المراهقة واجهنا جميعنا تحدِّي اتخاذ عهدٍ جديٍّ مع المسيح. البعض فعلوا والبعض لا، وآخرون اختاروا أن يعرجوا بين عالمين. ومع مرّ السنين افترقت حياتنا باتجاهاتٍ مختلفة، وأنا استقرّيت في الولايات المتّحدة. وبعد أعوامٍ عديدة كنت أزور مدينتي الأمّ، فسألتني والدة إحدى الشابّات اللواتي كنّا نعرفهنّ، وكانت ممّن اخترنَ العيش في عالمين، إن كنتُ أذهبُ إلى بيتها وأزور ابنتها. وأُخبِرت أنّها كانت في وضعٍ يُرثى له، طريحة الفراش في حالة شبه نباتيّة ناتجةٍ عن محاولةٍ لإنهاءِ حياتها. لم أكن مستعدًّا لِما صادفني. وصلتُ إلى البيت واستقبلتني الأمّ وقادتني مباشرةً إلى غرفة الشابّة. كنت لم أرَها منذ أكثر من عشرين عامًا، وإذ حدَّقتُ إلى هيكلها المهزول والضّعيف، غاص قلبي. كانت تُغذَّى وريديًا وتحتاج ممرّضةً إلى جانبها باستمرار، وكانت بتلك الحالة منذ أكثر من سنة. وفاض ذهني بذكرياتٍ من الأيّام السعيدة التي

coptic-books.blogspot.com

تمتَّعنا بها يومًا. لا أعلم إن كان بإمكانها أن تسمع، ولكن حين دعوتُها باسمها تهيَّجت جدًّا إذ جاهدت وتفوَّهت بأصواتٍ غير مفهومة، كان معظمها أشبه بالقرقرة والنّخير أكثر من أيّ شيء آخر. كان المنظر مرثيًا بالفعل، وعميقًا في داخلي تردّد السُّؤال: «ماذا حصل؟ لماذا أنتِ بهذه الحالة؟» كان الجواب واضحًا من الناحية الظاهريّة، فهي تشاجرت مع أمِّها، وفي نوبة غضبٍ جنونية، أقفلت على نفسها في الحَّمام وتناولت جرعةً مفرطةً من الأدوية. وبعد فترةٍ ليست بقصيرة أدركت أمُّها أنَّ هناك خطأً ما، فدفعت الباب لتجد ابنتها غائبةً عن الوعي. أسرعوا بها إلى المستشفى، لكن هذا الوضع هو كلّ ما أُنقذ منها. والآن يعيش مع نواتج ذلك الفعل المتهوِّر كلٌّ من زوجٍ منكوب، أطفالٍ مرتبكين، أمٍّ محمَّلةٍ بالذَّنب، وأصدقاءٍ متحسِّرين.

نحن نتفهّم أن تحدث خلال الحياة تضاربات مؤسفة في الإرادة، ومن الواضح أنّ بعض الأمزجة تتفاعل بمثل اندفاع هذه الشابّة تجاه أيّ نزاع، لكن هل كان الخلاف أو خيبة الأمل قاهران إلى درجة أن تنسى مَن يحتاجونها ومَن حياتها غالية عليهم؟ وهل الحياة عديمة القيمة إلى درجة أن تُزهَق بسبب جدال؟

لا بدّ أنّها في مكانٍ ما من سياق صنع القرار انساقت بعيدًا عن هدفٍ واضحٍ للحياة، وما الجسد المهدور إلّا إشارة عن روحٍ ضائعةٍ، أو على الأقلّ ذاهلة. وهكذا غدت حياةٌ ثمينةٌ جدًّا بالنسبة لله تستلقي كظلٍّ إنسانٍ، وبدا الموت مُرَحَّبًا به جدًّا.

الهدف!! ذلك الوتد الكليُّ الأهميّة الذي تتعلّق عليه كلّ الحياة، يا له من خطأ مُكلفٍ جدًّا ألّا يكون له ما يُثبَّت فيه. أحيانًا يتقرَّر كامل مستقبل الإنسان في زلّةٍ عابرةٍ واحدة، ولكان بإمكان عشرات الآلاف من الشبّان أن يوفّروا على أنفسهم عمرًا من النّدم لو أنّهم فهموا كيف يمكن لبضع دقائق أن تؤثّر على المستقبل، بل وحتّى تصيغه.

coptic-books.blogspot.com

غالبًا ما تُدعى كرة القدم الأمريكية بلعبة الإنشات، والحياة نفسها تُقولَب أحيانًا وتُحسَم في ثوانٍ. ولوجود احتمالاتٍ مشابهةٍ غير محدودة، يجب أن يُحفَر هذا المبدأ في وعينا: أيّ أمرٍ ينعشك دون أن يحطّ منك، يلهيك، أو يدمِّر الهدفَ النهائيّ، هو متعة شرعيّة في الحياة.

المتعة المحرّمة

يقدّم لنا بورهام Boreham مبدأً آخر استنبطه من الأصحاح الثّالث والعشرين من سفر صموئيل الثاني. النّصّ مألوف لكن مُبهَم، وهو يصف حادثة حين كان داود مختبأً في كهفٍ في عدلاّم خلال معاركه مع الفلسطينيّين. فذات ليلةٍ شديدة الحرّ كان يفكّر في تنعُّمات البيت، وأفلَتَ من شفتيه توقٌ بسيط – بالحقيقة توقٌ بريءٌ جدًّا – رغبة بالشربِ من بئرٍ معيّنةٍ في بيت لحم، لكنّها كانت رغبة غير ممكنة التّحقيق لوجود كتيبةٍ فلسطينيةٍ متمركزةٍ في بيت لحم. لكنّ ثلاثًا من أقوى جنود داود، إذ سمعوا تنهيدته، ولحبِّهم الشديد له، وجدوا طريقًا ووضعوا خطّةً، وبعمليّةٍ بوليسيّةٍ خاطروا فيها بحياتهم، تسلّلوا خلف الكتيبة الفلسطينية وتدبّروا إحضار بعض الماء من البئر، وعادوا سالمين حاملين المفاجأة إلى داود.

نستطيع أن نتخيَّل تعبير داود عندما تلقّى تلك الهديّة. لا بدّ أنّه غُمِر بتكريسهم له وباستعدادهم للتضحية بحياتهم لتلبية رغبته.

رفع داود الماء إلى شفتيه، ثمّ قبل أن يتمكّن من شربها، أنزلها ببطءٍ وسكبها على الأرض وقال: «حَاشَا لِي يَا رَبُّ أَنْ أَفْعَلَ ذلِكَ! هذَا دَمُ الرِّجَالِ الَّذِينَ خَاطَرُوا بِأَنْفُسِهِمْ» (٢صموئيل ٢٣: ١٧). وبهذه الكلمات أبَى على نفسه تلك المتعة.

إنّ تصرُّفَ داود ذاك جديرٌ جدًّا بالثّناء، لقد شعر أنّ إشباع حاجةٍ مؤقّتة لديه لا يُمكن تبريره إن عرّض حياة آخر للخطر. وهذا يقدّم لنا المبدأ الثاني: أيُّ متعةٍ تعرِّض للخطرِ الحقَّ المقدَّس لآخر هي متعةٌ محرّمةٌ.

coptic-books.blogspot.com

لكن دعونا نتوقّف قليلاً هنا لئلاّ يفوتنا المضمون الهام في مبدأ بسيط كهذا. هل تذكّر داود هذا التّحذير قبل سنوات عندما نظر إلى بثشبع؟ لو أنّه فعل لربّما تغيّر كلّ تاريخ العهد القديم. لقد كان داود يعرف عندما أتى بها إلى قصره أنّه كان بذلك يسلب أوريّا امتيازه المقدّس بأن تكون له زوجته لنفسه، وقد قاد ذلك التّصرّف المتهوّر في النتيجة إلى جريمة ومأساة رهيبة.

أتذكّر أنّي حين وقعتُ على هذا المبدأ لأوّل مرّة، شعرتُ بإحساس عظيم من الثّقة والارتياح أنّه من السهل تبيُّن خطأ كهذا، وبالتّالي الاحتراس منه. لماذا قد يريد أيُّ شخص أن يحرم أحدًا آخر حقّه أو حقّها المقدّس؟ لكن كلّما تأمّلت أكثر كلّما لاحت لي الطبيعة الماكرة لهذا الشرك بشكل أكبر ممّا ظننت، وتوضّح تطبيقه الشخصيّ عندما قرأتُ عن حدث بدا لي في البداية صعب التّصديق.

روى القصّة ريتش ويلكرسون Rich Wilkerson، وهو كان أنهى للتّوّ كلامه في مجلس مدرسة إعداديّة، عندما دنا مدير المدرسة من أحد أصدقاء ويلكرسون وأخبره هذه القصّة. قال المدير أنّه في السنة الفائتة كان لديهم تلميذٌ في الصّفّ الثامن سبّبت قصّته الحزن لكلّ المدرسة. فجأةً وبدون سبب واضح بدأ هذا الصبيّ ذو الثّلاثة عشر عامًا يأتي إلى المدرسة متأخّرًا ساعةً كلّ يوم.

قال المدير: «لم أستطع جعل هذا الولد يأتي في الموعد. أرسلتُ بدايةً ملاحظاتٍ إلى أهله فكان يُرجع الملاحظات في اليوم التّالي موقّعةً من والديه ومتأخّرًا ساعة. ثمّ أدّبتُ الشاب وأتى في اليوم التّالي إلى المدرسة متأخّرًا ساعةً.» وأيًّا كانت الطريقة التأديبية التي حاولَتها إدارة المدرسة، استمرّ الولد بالمجيء في اليوم التالي متأخّرًا ساعة. أخيرًا فصلوه مؤقّتًا لبضعة أيّام، وفي يومه الأول عندما عاد كان متأخّرًا ساعة.

coptic-books.blogspot.com

«لم أستطع التحمّل أكثر من ذلك، وهكذا في اليوم التّالي اتّصلتُ بقسم الرّعاية ورافقني عاملون فيه إلى بيت الصبيّ. قرعنا على الباب الأماميّ، وعندما لم يُجب أحد أدرتُ مقبض الباب وكان مفتوحًا فدخلنا. وما وجدناه لم يكن مُسرًّا، فقد اكتشفنا أنّه منذ شهرين، وبينما كان الصبيّ في المدرسة، غادر والداه البيت.» تركا مؤنةً كبيرةً من البقالة في الخزانة والبرّاد ورحلا. لم يكن لدى الصّبي أدنى فكرة عن مكانهما. لقد شعر بالهجر والخيانة وخجل أن يخبر القصّة لمسؤولي المدرسة. وهكذا كان كلّ يوم يوقظ أخته ذات الثمانية أعوام وأخيه ذا الستة أعوام، ويحمّمهما ويُلبسهما ويهيّئهما للمدرسة، ثمّ يمشي بهما إلى مدرستهما الإبتدائيّة لمسافة ميلين. ومهما حاول لم يستطع أن يركض أسرع من أن يصل إلى مدرسته متأخّرًا ساعة.[٧]

الخيانة الخفيّة

السؤال الذي يطرح نفسه: كيف يمكن لأحدهم أن يكون قاسيًا وعديم المسؤوليّة لهذه الدرجة؟ لكنّي بدأت حينها أشعر بعدم الارتياح، إذ بالطبع لن يكون الإنسانُ العاديُّ متحجّر القلب إلى حدٍّ أن يُنزل حرمانًا مماثلاً بأولاده. لكنّ عدم تحمّل المسؤوليّة لا يأتي دائمًا بشكل هكذا خيارٍ قاسٍ، بل غالبًا ما يضربُ إهمالُنا لأولادنا لأجل طموحٍ أو ربحٍ شخصيّ بشكلٍ أكثر تنميقًا ومواربةً.

أصغِ مثلاً لكلمات الدّكتورين مِيير Meier ومينيرث Minirth بينما يشرحان النسبة العالية للاكتئاب بين أكبر المنجزين، وشبكة الخيارات المتمركزة حول الذّات التي تكمنُ وراء ما هو ظاهر.

> «من بين كلّ أنماط الشخصيّة في ثقافتنا، هناك نمطٌ أكثر ترجيحًا أن يصاب بالإحباط في مرحلةٍ ما من الحياة. ذلك النّمط هو «الفتى اللّطيف»، وهو الشخص المضحّي بالذّات،

coptic-books.blogspot.com

حيّ الضّمير بشكل مفرط، زائد الالتزام بالواجب، مُجِدٌّ في عمله، وغالبًا جدٌّ متديّن. ويدعو علماء النّفس هذا النّمط «الشخصيّة الاستحواذيّة القسريّة»، في حين يُطلِق عليه معظم النّاس العامّيّون اسم «كماليّ» أو «مدمن العمل» أو حتى «خادم مكرَّس».

قد يجد العديدون هذا مفاجئًا تمامًا... لكنّ مَن درسوا عمق القوى المحرّكة اللاواعية البشريّة، يدركون أنّ هذا مقبول تمامًا... إنّ لدى أولئك الخدّام المكرّسين الذين يُصابون بالإحباط صراعاتٍ عديدةً مع الأنانيّة الشخصيّة بقدر المتطفّلين على دائرة الرّعاية. لكنّ أنانيّة الكماليّ أكثر مواربةً بكثير، فبينما يخرجُ إلى المجتمع ليخدم البشريّة بمعدّل ساعات عملٍ من ثمانين إلى مئة أسبوعيًّا، يتجاهل بأنانيّةٍ زوجته وأولاده... هو في عينَي نفسه وفي عيون المجتمع مثال التّفاني البشريّ، في حين تعاني زوجته من الوحدة... وينتحر أولاده بالنّتيجة... هو يغضب عندما يطالبه أولاده وزوجتُه بما عليه، ولا يستطيع أن يفهم كيف يجرأون على تسمية خادمٍ مخلصٍ وغير أنانيٍّ مثله بالزوج والأب الأنانيّ... والحقيقة أنّ زوجته وأولاده على حقّ، وهم يعانون بشدّة بسبب أنانيّته الخفيّة، وهذا بالضّبط هو السبب وراء تحوّل الكثيرين من أولاد القسس والمرسلين والأطبّاء إلى متمرّدين.»[٨]

هل هذا مبالغٌ فيه؟ قد يبدو كذلك بالنسبة للبعض، لكن أنا أعتقد أنّ الحقيقة التي فيه مُقلِقة جدًّا، ولم يكن من السهل بالنسبة لي أن أنظر إلى حياتي الشخصيّة من تلك الزّاوية. يسهل جدًّا إدراكُ الاستهتار والمأساة الرّهيبة في قصّة أولئك الأولاد الثلاثة، في حين أنّ الاستسلام لنمط حياةٍ يحرمُ أولادنا بشكل مطّرد من الوقت الذي يحتاجونه معنا لا يسهل اكتشافه إلّا بعد مرور السنوات.

coptic-books.blogspot.com

خططٌ لإتمامها، اجتماعاتٌ للمواظبة عليها، عظاتٌ لتحضيرها، كلُّها مرعيّةٌ جيدًا، لكن أثناء ذلك تأتي الأيّام الخاصّة وتذهب، وتدرك أنّ فرصًا ثمينة جدًّا قد ولّت. لقد قاد إيقاعُ الحياة والسفر، الكثير من المشغولين ليعطوا انتباهًا أعظم للآلات والأعمال والشركات ممّا يعطونه لحياةٍ فتيّةٍ أُودِعت في رعايتهم وتتوق لبعض الوقت معهم.

إن كنّا نريد أن نحفظ أولادنا من أن تفترسهم المتع الدائمة التّزايد لهذا العالم، إذًا من الأفضل لنا أن نتعلّم كيف نحرم أنفسنا من المتع الأنانيّة في أن نُستهلَك من قِبَل أعمالنا على حساب عائلاتنا.

أيُّ متعةٍ تعرّض للخطر الحقَّ المقدَّس لآخر هي متعة محرَّمة.

المقوّم الرئيسي

يأتي بنا هذا إلى المبدأ الثالث والذي يوجد في أمثال ٢٥: ١٦. لن تفوز هذه الآية في ثقافتنا بأيّة جائزة في الأناقة والجماليّة، لكنّها تعبّر عن الحقيقة بأوضح ما يمكن: «أَوَجَدْتَ عَسَلاً؟ فَكُلْ كِفَايَتَكَ، لِئَلاَّ تَتَّخِمَ فَتَتَقَيَّأَهُ.» المبدأ هنا واضح: أيّة متعة، مهما كانت جيّدة، إن لم تُبقَ في اتّزان سوف تشوّه الواقع أو تدمّر الشهية.

إذ تُقدِّم المتعة لنا الخيارات، دعونا أولاً وقبل كلّ شيء نتأكّد من كونها «عسلاً» أي أنّها جيّدة وغير مؤذية. لكن لا ينبغي أن نتوقّف هنا فحسب إذ حتى ما هو جيّد إن لم يُحفَظ في توازنٍ سيجلب إمّا الهوَس وإمّا الرتابة، وبالنتيجة يُنقِص المتعة.

قليلةٌ هي النشاطات المُثرية بالنسبة لي بقدر أوقات القراءة والاسترخاء، لكنّ ذلك لا يعني أنّ عليّ أن أمضي أربعًا وعشرين ساعة في اليوم في تقليب الصّفحات والاستراحة. وهذا ينطبق أيضًا على النشاطات الهامّة مثل أوقات الصلاة ودراسة الكلمة. لا بدّ من وجود توازنٍ في الحياة

coptic-books.blogspot.com

لإبقاء كلّ الواقع في الاعتبار وليس وجهًا واحدًا منه فقط. إنّ الاحتفالات التي أسّسها الله لشعبه وزّعت التّركيز بشكلٍ مقصودٍ على الحقائق التي تستدعي انتباههم. ففي أوقاتٍ معيّنة كان عليهم أن يحتفلوا بافتدائهم، وفي أوقاتٍ أخرى عليهم أن يتذكّروا أمانة الله عبر تاريخهم، كما كانت هناك أوقاتٌ لتذكّر الألم الذي نجوا منه، وأخرى للحصاد الذي حظوا به.

يقال أنّ التنوّع هو توابل الحياة، لكنّه ليس توابل الحياة بقدر ما هو الحياة ذاتها، وفقط مَن يستطيع أن يصل إلى ذلك التنوّع الوافر، يستطيع أن يتمتّع بغنى إله الوفرة.

يخبرنا تشارلز هادون سپرجن Charles Haddon Spurgeon عن وقتٍ جلس فيه محبطًا لساعاتٍ مُحاولاً إيجاد عظةٍ مناسبةٍ لخدمة يوم الأحد، وبدا ذلك واحدًا من تلك المحاولات التي تنتهي إلى العدم أيًّا كان ما يجرّبه. فقرّر أن يخرج ليتمشّى، ووصل إلى مقعدٍ في حديقةٍ محاطةٍ بمقبرة وجلس هناك ليرتاح.وبينما راقب الناس يجيئون ويذهبون، لاحظ أنّ الممرّات المؤدّية إلى الحديقة مختلفة جدًّا، فأحدها طريقٌ مرصوف جيّدًا، والآخر ممرٌّ متعرّج، والثالث عبارةٌ عن ممشًى غير مرصوف بل مغطّى بحجارة ذات أحجام مختلفة، وكلُّ هذه الممرّات يتمّ استخدامها. فوجد عنوانًا لعظته: «الالتقاء عند المركز» Gathering at the Center، وصوّر رحلة حياة كلٍّ منّا، فبعضنا يجِدُ نفسه يسير على طريقٍ معبّدٍ بجهود الآخرين، وآخرون يرتحلون عبر تقلّبٍ متعرّجٍ لمختلف الظروف، ومجموعة ثالثة تصارع مع نتوءاتٍ وحفرٍ وتنجو بطريقةٍ أو بأخرى، ويجتمع الكلّ في المركز.

هذه صورةٌ جميلةٌ توضّح أنّنا نأتي من خلفيّاتٍ، امتيازاتٍ ومسؤوليّاتٍ مختلفة، وبالتأكيد لا تَفتنُنا نفس المباهج بالطريقة نفسها. فقد تكون سمفونيّة جميلة بلسمًا لجراحِ قلبِ أحدهم، ويقدّم حدثٌ رياضيّ مفعم بالحيويّة أفضل فترة استراحةٍ لشخصٍ ثانٍ، وأمّا الثّالث فتُثريه

coptic-books.blogspot.com

محادثة حول موضوعٍ رفيع. وأيًّا تكن المتعة ما دامت توافق امتحان قصد الله للحياة، ولم يتمّ التمتّع بها على حساب الآخر، وتتيح الفرصة لحياةٍ متوازنة، فسنلتقي جميعًا في المركز حيث الله نفسه هو متعة كافية لكلِّ توقٍ في القلب.

دروسٌ للحكيم

بناءً على هذه المبادئ الثّلاثة، تترتّب ثلاثة تطبيقات عميقة، أوّلها هو أنّه لا بدّ للمتعة من ثمن. يُدفَع ثمنُ المتعةِ الحقيقيّة قبل أن يُتمتَّع بها، ويُدفَع ثمن المتعة المزيَّفة بعد أن يُتمتَّع بها. أحد أصعب الأمور هو أن نتجنّب الإرضاء الفوري، لكن هنا تُربَح المعركة أو تُخسَر، وبكلماتٍ مباشرة نحن مدعوّون لنكون أقوياء الإرادة في مقاومة المتع المحرّمة. لقد سلّم الكثيرون إرادتهم إلى حالةٍ من الضّعف بحيث فقدوا رؤياهم لما يمكن أن يكونوا عليه من قوّة، وكما يقول المثل القديم «أفضل جدًّا أن تتجنّب الطعم من أن تصارع في المصيدة.» تعلّم أن تقول «لا» وأن تقصدها، ليس لخاطر الرّفض فحسب، بل لأنّ الحياة قد عُرِّفت حسب هدفها النّهائي، وإن لم تقاوِم بل مشيتَ طريق الاستسلام السهل فهناك ثمن سيُدفَع يومًا.

كان الجنديّ الأمريكيّ لانس سيجان Lance Sijan أحدَ أبطال حرب ڤيتنام، واليوم هناك مهجعٌ في أكاديمية القوى الجوّيّة في كولورادو Colorado مسمًّى باسمه. يروي قصّته الكاتب مالكولم ماكدونِّل Malcolm McDonnell في كتابٍ عنوانُه «داخل فم القطّ» *Into the Mouth of the Cat*:

في التّاسع من تشرين الثاني عام ١٩٦٧ كان سيجان Sijan يقودُ طائرة F-4 في مهمّته القتاليّة الخامسة والثلاثين عندما تحطّمت على حدود لاوس Laos بسبب قابسٍ معيبٍ أحدث انفجارًا فيها. وكان إنقاذه ممكنًا إذ أنّ رفقاءه حلّقوا قريبًا منه باحثين عنه، لكنّه انبطح منخفضًا

coptic-books.blogspot.com

ولم يجذبهم إلى بقعته لأنّ العدوّ كان قريبًا جدًا ولم يشأ أن يخاطروا بحياتهم. وهكذا زحف على مدى ستّةٍ وأربعين يومًا ثلاثة أميالٍ وهو يقتات بالأوراق ولحاء الشجر، لكن بعدها قُبضَ عليه ووُضع في سجنٍ انفراديّ وعُذّب لانتزاع أسرارٍ منه. والذين تناهت إليهم أصوات ما كان يحصل تألّموا لأجله بعمقٍ، لكن كانوا فخورين بلا حدود بإرادته التي لا تُقهر وتصميمه ألّا يخون ائتمانه. لا شيء ممّا جرّبه معذّبوه استطاع أن يهزم شجاعته وولاءه لبلده. هذه هي المادة التي يُصنع منها الأبطال الحقيقيّون.

إن كان بإمكان رجالٍ ونساءٍ أن يخدموا بلدهم بهكذا رفعةٍ لا تلين، ألا نستطيع نحن أيضًا أن نخدم الرّب إلهنا بإرادةٍ تقاوم المتع المحرّمة والزائلة؟

في الواقع إنّ الله طرح نفس هذا السؤال في الأصحاح الخامس والثلاثين من سفر إرميا، إذ سأل شعبه أن ينتبهوا إلى الانضباط الذي يُظهره البعض لدوافع أرضيّة، فكم بالحري ينبغي أن نكون نحن أكثر حزمًا في تعهّدنا لله نفسه. ردّت المستشارة الإذاعيّة المعروفة لورا شليزنغر Laura Schlesinger على متّصلٍ قال أنّ لديه إدمانًا على نمط حياةٍ معيّن، فأعادت صياغةَ مشكلته قائلةً بجفاء: «إنّ مشكلتك ليست مشكلة إدمانٍ، بل مشكلة شخصيّةٍ.»

لا أحد فينا قد يرغب بسماع ذلك، لكن قوّة إرادتنا في خدمة الرّبّ هي التي تكشف الشخصيّة التي نملكها، وقوّة إرادتنا هي التي تحدّد متى يُدفع الثّمن.

دعونا كمثالٍ نقارن بين حياة رجلَين بدأا كلاهما كمُدمنَي متعة، والفرق بينهما أنّ أحدهما استمرّ في نفس الطريق رغم كونه مطاردًا باليأس باستمرار، في حين كسر الآخَر معقل المتعة ووجد إشباعه الأعظم في معرفة المسيح. الأوّل هو الكاتب الفرنسي غي دو موپاسان Guy de

coptic-books.blogspot.com

Maupassant الذي كان أحد أعظم كتّاب القصص القصيرة، ومع ذلك أصبح شخصًا مأساويًا كليًا. لقد ارتقى خلال عشر سنوات من ضآلة الشأن إلى الشهرة وكانت ممتلكاته الماديّة تنمُّ عن ثراءٍ وافرٍ، يختٌ في البحر المتوسط، بيتٌ كبير على الساحل النورماندي، شقّةٌ فاخرةٌ في باريس، وقيل فيه أنّ النّقاد مدحوه والرجال أعجبوا به والنساء عبدنَه. لكن مع ذلك فقد جنَّ وهو في ذروة شهرته ويعتقد الكثيرون أنّ ذلك حدث نتيجة مرضٍ منتقلٍ بالجنس.وفي يوم رأس السنة من عام ١٨٩٢ حاول أن يقطع حنجرته بواسطة فتّاحة رسائل، وعاش الأسابيع الأخيرة من حياته في مصحّ عقليّ خاصّ في الريفييرا الفرنسية، ثمّ بعد أسابيع وشهور من الكلامِ اللاواعي والألمِ الموهِن، مات في الثانية والأربعين من عمره وكان قد كتب نقش ضريحه: «اشتهيتُ كلَّ شيء ولم أحصل على المتعة في شيء.»

إنّ دمار حياةٍ كهذه خسارة لا تُقدّر، ليس فقط أنّ حياةً ما قد ضلّت طريقها، بل أنّ حياة عبقريٍّ أُفسِدَت وانتهت سريعًا. فقد كان بإمكان تلك المهارة الفنّيّة، والقدرة على كتابة القصص، تقديم ساعاتٍ من المتعة الشرعيّة لأجيالٍ لاحقة، لكنّها خُنِقت بسبب عقلٍ فشل في دفع ثمن مقاومة المتعة المحرّمة. فإنّ كلاً من غياب هدفٍ نهائيٍّ لحياته واستعداده لتعريض حياة الآخرين للخطر، جعلا من حياته بحدّ ذاتها قصّةً قصيرةً، بل مأساةً في قِصَرها.

على النّقيض من ذلك، كان هناك كاتبٌ أكثر حداثةً يسلك طريقًا مشابهًا من التّشويش وغياب الهدف، وسيرته الذّاتيّة عبارة عن قصّةٍ دنيئةٍ أحد عناوينها الفرعيّة، بكلماته هو: «تاريخُ سنواتٍ ضائعة» *Chronicle of Wasted Years*، إذ كان منقادًا بالمتعة إلى درجة الشذوذ أحيانًا. لكن أخيرًا اجتذبه سموُّ المسيح، إنّه مالكولم ماغريدج Malcolm Muggeridge، أحد أكثر صحافيّي إنكلترا فصاحةً، وإليك كيف لخّص مسعاه للمتعة:

coptic-books.blogspot.com

«يمكنُني على ما أظنّ أن أعتبر نفسي أو أحسب نفسي رجلاً ناجحًا نسبيًّا، فالنّاس يحدّقون إليّ في الشوارع بين الفترة والأخرى – تلك شهرةٌ. أستطيعُ بسهولةٍ أن أكسب ما يؤهّلني لدخول أعلى مراتب الدّخل – ذلك نجاحٌ. ويستطيع حتى المتقدّم بالعمر إن كان مزوَّدًا بالمال وبقليلٍ من الشهرة أن يشارك في أحدث أنواع التّسلية – تلك متعةٌ. قد يحصل من حينٍ لآخر أنّ شيئًا ما قلتُه أو كتبتُه يؤخذ بعين الاعتبار إلى درجةٍ كافيةٍ لإقناع نفسي بأنّي أمثّل تأثيرًا هامًّا في زمننا – وذلك إنجازٌ. مع ذلك أقولُ لكَ وأتوسّلك أن تصدّقني، ضاعف هذه الانتصارات مليون مرّة وسيكون مجموعهم كلُّهم معًا مساويًا لا شيء بل أقلّ من لا شيء. سمِّه عائقًا إيجابيًا، بالقياس مع شربةٍ واحدةٍ من الماءِ الحيّ الذي يقدّمه المسيح للعطشان روحيًّا كائنًا مَن كان.»[٩]

تلك كانت كلمات شخصٍ تذوّق كِلا العرضَين: متع الحياة المتباينة، وشخص المسيح.

كلّ الفرح

نأتي هنا إلى التّطبيق الثاني وهو واقعٌ لا مفرّ منه بالنسبة لنا كبشر. يخبرنا الكتاب المقدّس عن هدف يسوع بينما واجه الصليب «الَّذِي مِنْ أَجْلِ السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ، احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِالْخِزْيِ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ الله» (عبرانيين ١٢: ٢). إنّ الفرح، إلى حدٍّ بعيد، هو أعظم هدف في الحياة، لذا فالتّطبيق هو: إنّ المتعَ وسائلٌ وليست غايةً، والغاية الأعظم يجب أن تكون الفرح.

الفرحُ هو الإشباع النّاتج عن علاقةٍ تستشعر الرِّضا في مجرّد وجودها وليست معتمدةً على فعلٍ ما، ومثل هكذا موقف في الحياة

coptic-books.blogspot.com

يجِد الرّاحة في الأمور العاديّة دون التململ الذي ينتظر الأمور فوق العاديّة.

إنّ المتعة عندما تنتهي تترك وراءها إمّا الكرامة أو الخزي، إمّا الفرح أو الحزن. أمّا الحياة المُعاشة بفرحٍ فتحيا فوق المتعة والألم، وقد تثبّتَت في ضمان مَن يُمكِّنُنا أن نبتهج في أمور الحياة المألوفة.

عندما يكون مسعانا الشخصيّ لأجل ما هو أبديّ وروحيّ، فهذا بدوره يعطي معنًى للروتين وليس فقط لفواصل متفرّقةٍ من لحظات الإثارة. معظم المتع، إن كانت تتجاهل الرّوح وتُرضي الجسد، ستترك وراءها شكًّا ملحًّا فيما إن كانت صحيحةً أم خاطئة، وعندما تكون خاطئة يُسلَب منك الفرح الذي يمنحه الله لأولاده.

كلّ متعةٍ تُطلب كغايةٍ في ذاتها تتوقّف في النّهاية عن أن تُرضي، ويستمرّ الجوع لأجل فرحٍ يسمو فوق كلّ الأشياء.

يبدو أنّ وسائل إشباعِ الحاجةِ إلى متعةٍ تختلف باختلاف مراحل حياتنا. فقد يجد الطفل الرّضا في عالمه الصّغير من ألعابٍ وقصصٍ، لكنّه لا يزال يحتاج إلى فرح حضور أمّه، وإنّ إرضاعها له في معانقة منحٍ وتلقٍّ للحياة، لتزويده بالقوت من جسدها، يُصوِّر إشباعًا للاثنين ويكاد الفرح المحسوس والمتلقّى أن يكون مقدّسًا.

يجد الشابُّ تلك السكينة في الرّومانسية وأحيانًا في الصّداقة، وهنا أيضًا يوجد توقٌ للّمسةِ، للشّعورِ، لوجود الآخر. ويلتمس البالغ ذلك الإشباع الكامل في الزّواج الذي هو أحد أكثر الاتحادات بهجةً في الحياة. والمتقدّمُ في العمر قد يتطلّع إلى ضمّةٍ ثمينةٍ من العائلة أو من شريك الحياة الذي أضناه العمر أيضًا، لكنّ وجوده لا يُقدَّر بثمن. يذكّرُنا علماء النّفس بتأثير فقدان شخصٍ محبوبٍ في قلب حتى أكثر الأشخاص عقلانيّةً، فعندما يموتُ شخصٌ عزيزٌ يموتُ معه شيءٌ داخل مَن خَسِرَه.

coptic-books.blogspot.com

إن تمعَّنَّا في تحديد أيٍّ من المتع يجلب الفرح وأيّها يذهب به، سنكتشف أنّ كلَّ متعةٍ أصيلةٍ وباقيةٍ ترتبط بشكلٍ ما بعلاقةٍ ذات التزامٍ أخلاقيٍّ، وحين تكون العلاقة لا أخلاقيّةً تنفصل المتعة عن الكرامة وتذوي مع الوقت.

لقد انفصلت علاقات سليمان عن الالتزام وأصبح الناس وسائل للإرضاء. ولا ينبغي لأحدٍ أن يُجرَّد إلى تلك الدّرجة، فالإنسان ليس وسيلةً للمتعة، بل كينونةً تستحقُّ الاحترام، ويجب على كلّ العلاقات أن تميّز القيمة العليا للنّفس البشرية.

لكن حتى هذه العلاقات هي أيضًا مؤشّرات، وأفراحها سوف تأفل أو تتصدّع إن لم تتغذّى على العلاقة الأعظم على الإطلاق، ألا وهي العلاقة مع **الله** نفسه، وتشير إليها. باختصارٍ، كلّما تقدّمنا في العمر كلّما لزمنا المزيد لإشباع توق قلوبنا لفرحٍ لا ينطق به، ووحده **الله** فيه الكفاية لذلك. وهنا دعونا ننتبه إلى ما يقوله **الله** عن هذه العلاقة، إنّها إقامة، فقد تحدّث بولس عن: «الْمَسِيحُ فِيكُمْ رَجَاءُ الْمَجْدِ» (كولوسي ١: ٢٧)، وهذا يعني التداخل الكلّي لكينونتَين في علاقةٍ مع **الله**، وهكذا يُشبَع التَّوق إلى متعةٍ دائمةٍ نهائيًا وكليًّا، لأنّ **الله** الذي هو روح يأتي ويجعل مكان إقامته في روح الفرد، ولا تستطيع متعةٌ في الدّنيا أن تماثل ذلك. فهذا فرحٌ نقيّ، وهو فرحٌ لا يمكن فهمه بالنسبة للذين لا يعرفون هذا الحضور الداخليّ أو الذين يتجاهلون أو يهملون الروحيّات. قال سي. أس. لويس C. S. Lewis مرّةً: «كم قليلٌ ما يعرفه مَن يظنُّ أنّ القداسة مملّةٌ.» لا يمكن شرح اكتمال الحبّ الزوجيّ لطفلٍ في حين أنّه لا يملك مفهوم الحبّ الزوجيّ أو حتى القدرة على استيعابه، وعندما يكتسبُ القدرة لكن تُكبَح الفرصة للتعبير عنها، يزداد التَّوق، والإشباع ينتظر.

بنفس الطريقة، إنّ غير الرّوحيّ لا يملك حتى مفهوم الإشباع الروحيّ وهو يسعى وراء بدائل هزيلةٍ من المتعة ويحصل على غلّةٍ متناقصة، أمّا

coptic-books.blogspot.com

الإنسان الروحيّ فيحوز أعظم فرح. ففي المقام الأوّل، إنَّ سُكنى المسيح في الحياة يُثريها بدون قياس إذ تدخل أرواحُنا بفرحه الدّائم، وفي ذلك نعرف أنّه في الحاضر يُعبَّر عن الفرح ضمن مسمَّياتٍ مادّيةٍ وأرضيّةٍ، وأنّ الاختبار النهائي للفرح ينتظرنا في السماء كحالةٍ أبديّة. هذا هو الفرح المُعَدّ لنا عندما تجتمع القدرة على المتعةِ المقدَّسةِ مع الفرصة للتّعبير الكامل لها، في حضن الله.

أحيانًا في لحظاتٍ نادرةٍ نحصل على لمحةٍ وجيزةٍ عمّا سيكونُه ذلك الفرح السماويّ، وها هنا ترنيمة قديمة رائعة تتحدّث عن ذلك:

جالسًا يومًا إلى الأورغ
مرهقًا وقلقًا
تجوَّلت أصابعي بكسلٍ
على مفاتيحه الصّامتة
لا أعرفُ ماذا كنت أعزفُ
أو ماذا كنت أحلمُ حينها
لكنّني عزفتُ نغمةً ما
بدت كصوتِ آمينٍ عظمى.

فاضت لتغمرَ الشّفق القرمزيّ
كخاتمة مزمورٍ ملائكيّ
واستقرّت على روحي المحمومة
كلمسة سكونٍ لامحدود
هدّأتِ الألمَ والحزنَ
كحبٍّ يهزمُ الخصام

coptic-books.blogspot.com

بدت كصدًى متناغم
من حياتنا المتنافرةِ الأنغام.

لقد ربطت كلَّ المعاني الحائرة
إلى سلامٍ كاملٍ واحد
ارتعشت مبتعدةً إلى الصّمت
وكأنّها كرِهت أن تتوقّف.

التمستُ، لكن عبثًا
تلك النّغمةَ الإلهيّةَ الضّائعة
التي جاءت من روحِ الأورغ
ودخلت إلى روحي
قد يكون أنّ ملاك الموتِ الساطع
سيتكلّم بتلك النّغمة ثانيةً
قد يكون أنّني فقط في السماء
سأسمعُ تلك الآمينَ العظمى.[١٠]

يقول المرنّم في المزمور ١٦: ١١، «تُعَرِّفُنِي سَبِيلَ الْحَيَاةِ. أَمَامَكَ شِبَعُ سُرُورٍ. فِي يَمِينِكَ نِعَمٌ (متعة) إِلَى الأَبَدِ.» ماذ يقصد بذلك «سرورٌ في محضرِك ومتعةٌ على يمينك»؟ كيف يمكننا أن نفهم ذلك على أفضل نحوٍ؟

قرأتُ منذ بضعِ سنواتٍ كتابًا أعتبره واحدًا من أفضلِ كتبِ هذا القرن، وهو *Orthodoxy* للكاتب ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton. ومع أنّي لا أتّفقُ مع بعض لاهوتيّات الكاتبِ لكنّه عندما يكتب إلى الشكوكيّين فإنّ مرافعاته عن الحياة المسيحيّة تخطفُ الأنفاس. يتكلّم عمّا ندعوه فرح معرفة المسيح، ويشير إلى أنّ الفرحَ بالنسبة للمسيحيِّ مركزيٌّ وجوهريّ،

coptic-books.blogspot.com

أمّا الحزنُ فمحيطيّ أو سطحيّ، وذلك لأنّ أسئلة الحياة الأساسيّة قد أُجيبت وفقط السطحية لم يُجَب عليها. أمّا بالنسبة لمَن لا يعرف المسيح فالحزن مركزيٌّ والفرح محيطيٌّ، لأنّه ربّما تكون الأسئلة السطحية لديه قد أُجيبت، أمّا الأساسيّة فلا. وفيما يختتم الكتاب يطرحُ سؤالاً عميقًا يتساءل فيه لماذا لا يذكرُ الإنجيل أيَّ شيءٍ مطلقًا عن الضّحك في حياة المسيح؟ فنحن نقرأ عنه باكيًا، غاضبًا، متعاطفًا ومجموعة من المشاعر الأخرى، لكن لا نقرأ عنه مطلقًا «وضحك يسوع». ربّما وحده تشسترتون يتجرّأ أن يطرح السؤال لأنّه يملك عطيّةً نادرةً من المخيّلة المقدّسة والتي لا غنى له عنها في محاولتِه أن يجيب، وها هنا إجابته الرّائعة:

«الفرح الذي شكّل العلانية الضئيلة للوثنيّ، يشكّل السرّ العملاق للمسيحيّ. وإذ أختم هذا الكتاب الشواشي، أفتحُ ثانيةً ذلك الكتاب الصّغير الغريب الذي جاءت منه كلُّ المسيحيّة، وأجدُ نفسي مرّةً أخرى مسكونًا بنوعٍ من الإقرار أنّ الشخص العظيم الذي يملأ الأناجيل يعلو في هذه الناحية، كما في كلِّ ناحيةٍ أخرى، فوق كلِّ المفكّرين الذين ظنّوا يومًا أنفسَهم طوالاً، فعواطفه طبيعيّة، تكاد تكون عرضيّة. يفتخر الرّواقيون، قدماء ومعاصرين، بإخفاء دموعهم، أمّا هو فلم يُخفِ دموعه قطّ بل أظهرها بوضوحٍ على صفحة وجهه بسبب مشاهد يوميّة مثل المشهد البعيد لأورشليم، ومع ذلك فقد أخفى أمرًا. يفتخر عظماء رجال الدّين والدبلوماسيون المَلكيُّون بكبح غضبهم، أمّا هو فلم يكبح غضبه قطّ، فقد رمى الأثاث على درجات الهيكل وسأل الرّجال كيف يتوقّعون أن ينجوا من دينونة جهنّم. لكنّه كبح أمرًا ما.

أقولُ بكلِّ إجلالٍ أنّه كان في تلك الشخصية الهائلة خيطٌ لا بدّ أن يُدعى خجلاً. هناك أمرٌ أخفاه عن كلِّ الرّجال عندما

coptic-books.blogspot.com

صعد إلى الجبل ليصلّي، هناك أمرٌ تستّر عليه باستمرارٍ إمّا بالصّمتِ المفاجئ أو بالانعزالِ المتسرّع، هناك أمرٌ كان بالنسبة لله أكثر عظمةً من أن يُظهره لنا عندما مشى على أرضنا، ويُخيّل إليّ أحيانًا أنَّ ذلك الأمر هو مَرَحُه.»[١١]

ماذا عساه ذلك المرح؟ ربّما تشسترتون على حقّ، لا يوجد في الحاضر مشابهٌ للفرح المطلق والسعادة (أو المتعة) الأبديّة، وأفضلُ مُتَعِنا تشكّل مجرّدَ تلميحاتٍ عمّا ينتظرُنا، يبدأ ذلك بسُكنى المسيح فينا وتلك النّشوة لا يعرفُها العالم.

البقاءُ قربَ المَصدر

يأتي بنا هذا إلى التّطبيق الأخير: الله هو مصدرُ كلِّ متعةٍ جيّدة. وفي الحقيقة، كلّما اقتربنا أكثر إلى المتعة الشرعيّة كلّما اقتربنا إلى قلبِ الله. يقدّم لنا سي. إس. لويس هذا التلميحَ المتبصِّرَ في كتابه «رسائل خربر» *The Screwtape Letters*. أعطى الشيطان الرئيس تعليماته للشّيطان الصّغير عن كيف يُعثر فردًا يبدو أنّه يعرج بين الله والذّات، وكانت المهمّة الموكلة للعفريت الصّغير «امنعه من العبور إلى العدوّ.» وبعد بضعةِ أيّامٍ عاد الشيطان الصّغير إلى الرّئيس وقدّم تقريره أنّه خسر الرجل كلّيًّا لصالح «العدوّ»، قاصدًا بذلك أنّ الرجلَ قطع عهدًا مع الله. فجأر الشيطان الرّئيس: «كيف حصل ذلك؟ ألم تستطِع إغواءه؟» فأتى الجواب: «لا»، « لأنّه فعَل أمرَين أبعداه عنّا: الأوّل أنّه كان يذهب كلَّ يوم في نزهةٍ على الأقدامِ ليس لأجل التّمرين الرّياضيّ بل للمتعة الخالصة، والثاني أنّه قرّر أن يقرأ كتابًا جيّدًا، ليس ليتمكّن من الاقتباس، بل بالأكثر من أجل المتعة الصّرفة في القراءة. وبين النّزهة والكتاب الجيّد أصبح في متناول العدوّ.»[١٢]

coptic-books.blogspot.com

يا له من تبصّرٍ مثيرٍ من قبل لويس. نحن قد تكيّفنا مع تأويلٍ مَرَضيّ للحياة المسيحيّة بحيث سلبنا أنفسنا من المباهج والمسرّات النقيّة التي أتاحها لنا الله. فنحن كلّما اقتربنا من المسرّات الشرعيّة كلّما دنونا من صوته وقبضته، وكلّما دنونا من المسرّات المحرّمة كلّما ابتعدنا عنه.

حين نتمسّك بالمبدأ الذي يقرّبنا من الله سيصبح صوته أوضح وتصبح الحميميّة أغنى. فكما أنّ كلَّ الحقِّ هو حقُّ الله، كذلك فإنّ كلَّ متعةٍ شرعيّةٍ هي عطيّة من الله، فاقبلها مع الشكر واقترب منه كنتيجة.

ملحق

بقيَ أمر واحد لنقوله في خلاصة هذا الموضوع الهامّ عن المتعة وهو أنّ الكتاب المقدّس يخبرنا الكثير عن المتعة الناتجة عن خدمة الله، وأيضًا يذكّرنا بالمدح الأسمى الذي يكافئنا به الله. ففي خطّته السياديّة ونعمته صنعنا الله بحيث أنّنا في خدمتنا له نقدّم له مسرّته العظمى، كما يقول المزمور ١٤٧: ١١ «يَرْضَى (يُسَرّ) الرَّبُّ بِأَتْقِيَائِهِ، بِالرَّاجِينَ رَحْمَتَهُ.» وستلتقي متعة الله ومتعتنا بالتّمام عندما نتلقّى الوسام الإلهيّ: «نعمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ وَالأَمِينُ»، في هذه الكلمات ينحصر الهدف الذي لأجله خلقَنا الله، ويجب أنّ هذا الهدف يحكم متعة حياتنا، فما من كلماتٍ أخرى ستجلب للقلب فرحًا مطلقًا مماثلاً كتلك الكلمات التي إليها اشتياقنا.

أمّا كيف لذلك أن يُتوَقَّع ويُعاش في هذا العالم على أفضل وجهٍ، فقد تركتُه للفصل الأخير.

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل السادس

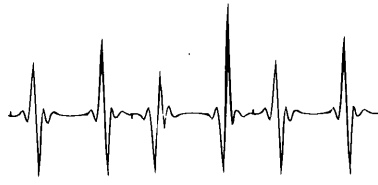

صرخةٌ قلبٍ وحيد

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

عبَّر الروائيّ والكاتب توماس وولف Thomas Wolfe، وكان قد عاش حياةً مضّطربةً عاطفيًا، عن أحد أعمق آلام القلب البشريّ:

«تقوم كامل قناعتي في الحياة الآن على الاعتقاد بأنّ الوحدة، بعيدًا عن كونها ظاهرة نادرة وغريبة خاصّة بي وبقلّة من الناس المُنزوين، هي سمة مركزيّة وحتميّة في الوجود البشري.

كلّ ذلك الشكّ الكريه، اليأس، وارتباك النّفس المظلم الذي لا بدَّ للرجل الوحيد أن يعرفه، لأنّه لا يتآلف مع فكرةٍ إن لم يكن هو مبتكرها، ولا يتقوَّى بمعرفةٍ سوى التي جمعها هو لنفسه برؤيا عينيه وعقله؛ لا حزب يدعمه أو يشجِّعه، ولا عقيدة تريحه، لا ثقة له إلا بنفسه وحتّى هذه غالبًا ما تهجره تاركةً إيّاه مهزوزًا وعاجزًا، وعندها يبدو له أنّ حياته انتهت إلى العدم، وأنّه مدمَّر، ضائع، محطَّم، تخطّى إمكانية الإصلاح، وأنّ ذاك الصباح المشرق المنير مع وعوده ببداياتٍ جديدة لن يأتي أبدًا ثانية كما أتى مرّةً.»[1]

تمشّيًا مع مزاجٍ مشابه، كتب د. هـ. لورنس D. H. Lawrence في روايته «نساءٌ عاشقات» *Women in Love* ما يبدو تعقيبًا كئيبًا حول بحثه الخاصّ عن السعادة، ثم أضاف منعطفًا هامًّا يجبر القارئ أن يفكّر طويلاً ومليًّا قبل التّسليم بنتيجته:

coptic-books.blogspot.com

«نحن نريد أن نوهم أنفسنا أنّ جذور مشكلتنا مع الفراغ ترجع إلى الحبّ، لكنّي أقول أنّ الأمر ليس كذلك. فالحبُّ هو الفروع فقط أمّا الجذور فتذهب أبعد من الحبّ، إلى عزلةٍ عاريةٍ، إلى أنا منعزلة لا تلتقي ولا تختلط بل لا تستطيع. هناك جانبٌ أبعد فيَّ يذهب أبعد من الحبّ، أبعد من مدى النّجوم تمامًا كما أنّ بعض النّجوم أبعد من مدى رؤيتنا، هكذا يمضي بحثنا أبعد من مدى الحبّ.»[٢]

واقعٌ لا هروبَ منه

أوَضَع هذان الكاتبان إصبعهما على العصب الحسّاس لواقعٍ يمسك بنا في قبضته؟ أتراهما تكلّما عن الواقع كما هو، أم أنَّ هذا مجرّد شهادةٍ أدبيّة في أيدي فنّانين ميلودراميّين وغريبي الأطوار؟

قد يميل المتفائل لأن يستبعد هذه الكلمات على أنّها قيلت بتشاؤمٍ في لحظات يأسٍ مظلمة، لكن هناك الكثيرون ممّن يردّدون نفس الشعورَ بالعزلة، وعساي أتجاسر فأقول أنّ الجميع يشعر بهذه الصّرخة وإن كان البعض يُجيد كتمها. وكما قالت إحدى الممثّلات حديثًا «نحن جميعنا في هذا معًا لوحدنا.» أنا أعتقد أنّ وولف ولورانس محقّان: اختبارنا للوحدة عالميّ، والحبّ وحده لا يكفي كجواب، فهناك «أبعد» في كلٍّ منّا، وهذا الأبعد لا يُشبَع بالحبّ. وعلى قدر ما أنّ الحبّ امتياز رائع فأنا أميلُ جدًّا إلى الاعتقاد أنّنا جعلنا من الحبّ أمرًا لم يُقصَد له أن يكونه حتى في أفضل حالاته. وفيما يجري المنحرفُ وراء الملموس ولا يصل أبدًا إلى الإشباع، فإن التطهّريَّ يرفّعُ الحبَّ إلى مستوياتٍ عاطفيّةٍ لا يمكنه مطلقًا أن يقدّمها على نحوٍ مستديم.

هذا الاتّهام نفسه هو ما كان في ذهن الكاتب دينّيس دو روجمون Denis de Rougemonts عندما قال أنّ الحبّ يتوقّف عن أن يكون شيطانًا

coptic-books.blogspot.com

فقط عندما يتوقّف عن أن يكون إلهًا. ومع ذلك ما زلنا نطارده كالصيّادين ونفترض أنّ «ما يدعى حبًّا» هو ميداليّتنا النهائية، نمجّده في أغانينا ونتكلّم عنه بابتذالٍ لا يُضاهى. وعلى قدر ما أنّ الحبّ اختبار عظيم فهو ليس الجواب النهائيّ للوحدة، ويظلُّ القلب كالمسبار يتلوّى ويتثنّى عبر العوائق والفرص مستقصيًا في الأعماق ليجدَ مكانًا يستكين إليه، في بحثه عن ذلك «الأبعد».

أنّى نظرت هناك قصص حبٍّ وعاطفةٍ تتفاوت من جملٍ مكتوبةٍ على قمصانٍ يرتديها شبّان لكي يُسمَع نداؤهم، إلى أفلامٍ عاطفيّةٍ من الحقبة السالفة، وهي أحيانًا تشكّل مهرَبًا، وأحيانًا أخرى تَخلقُ جوعًا. ويستمرّ البحث عن «الأبعد» بشكلٍ لا يلين ولا يكلّ، وهذا التململ ليس فقط مربكًا بل، إلى حدٍّ ما، محطّمًا للأنا الحديثة وما بعد الحداثة. فبعد كلّ شيء لقد ازدادت وتطوّرت مع الوقت كلّ الوسائل المتاحة لنا لنحصل على مزيدٍ من الصّحبة، ومع ذلك وبشكلٍ محيّر، كلّما أتيح لنا أكثر كلّما، على ما يبدو، ابتعدنا عن إيجاد جوابٍ للوحدة. هذا أكثر ما يشبه ولدًا محاطًا بأثمن الهدايا وأكثرها تطوّرًا في عيد الميلاد، وبعد دقائق من فتح الهدايا يجلس محدّقًا بالجدار محبَطًا بأنّه استنفذ الكثير في وقتٍ قصير. وبشكلٍ مشابه، إذ نجرّب كلَّ عرضٍ وكلَّ خبرةٍ متاحةٍ نتساءل بحيرةٍ أين اختفى كلُّ ذلك الإشباع الموعود؟

لقد تحقّقت على الأقلّ أربعة مكاسبٍ في واقعنا الاجتماعيّ والاقتصاديّ الحاليّ، واستُقبل كلّ منها حاملاً معه الوعد بيومٍ جديد، لكنّ خيبة الأمل صاحبت كلاًّ من هذه التطوّرات.

أولاً وقبل كلّ شيء، هذا العصر هو عصر الاتّصالات، لم يسبق لنا أن امتلكنا هذا القدر من الوسائل لنقلِ محتوًى أو تحقيقِ رغبةٍ بشكلٍ فوري. لقد حصل المستحيل فعليًّا، وأَلِف البشر كتابة الرّسائل لأنّها اقترنت بالآلات، وبإبداعِ عُنونَت E-mail، أي ما ترجمته البريد الإلكتروني (لو كانت مجرّد

coptic-books.blogspot.com

mail لضاعَ إغراؤها لكنّ تلك الـ E قبل الـ mail منحَتها جدارةً تقنيّةً). ورغم كلّ إمكانيّات التّواصل التي تحيط بنا، فقد أصبحت الجدران بين الأعراق والثقافات والأجيال أعلى وأصعبَ تسلّقًا، وكثيرًا ما أسمع والدين يشتكون من ابنٍ (أو ابنةٍ) يجلس وحيدًا أمام الكمبيوتر طوال المساء صامتًا وبعيدًا عن بقيّة العائلة.

لا تزال الحساسيّات عاليةً بين الأجيال: Baby boomers, Baby busters, Generation X ألقاب مختلفة للفئات العمريّة المختلفة: جيل ما بعد الحرب العالميّة الثانية، جيل مابعد حرب ڤيتنام...، والسماء وحدها تعلَم ما الألقاب الجديدة التي تنتظر ورثة ما تبقّى. تُرسَم الحدود من قِبَل واضعي النظريات الاجتماعية، وحيث لا توجد حدود ظاهرة يتدخّل عباقرة التّسويق ليخلقوا فواصل جديدةً.

ثانيًا، قدّم عصر التكنولوجيا قائمةً من السِلع قُيِّمت كلفتها بحسب خسارتنا لراحة بالنا أكثر من خسارتنا لحسابنا المصرفي.

كان من المفترض في كلّ اختراعٍ جديدٍ أن يوفّر لنا مزيدًا من الوقت. لكن حين يصِل مسافر ما إلى مدنٍ مثل هونغ كونغ Hong Kong أو سنغافورة Singapore، والتي هي معاقل الأجهزة التكنولوجية والقوّة الاقتصاديّة، يتبيّن سريعًا أنّه حتى هناك تبقى أنوار المكاتب مضيئةً في أعماق الليل. فهناك صفقة واحدة بعد لتُعقد، منافس واحد بعد ليُهزَم، إذ لم يعد يُحسَب لكلٍّ يومٍ حساب بل لكلّ ثانيةٍ، والتأخير قد يعني الإفلاس.

في عصرٍ قُصِد فيه لوسائل الراحة أن تزيد من أوقات الفراغ، يُصرف فعليًّا وقت أقلّ في بناء العلاقات بينما يُستثمَر وقت أطول في استخدامِ تلك الوسائل. والضغط لأجل السرعة الفوريّة المطبّق على الرّجال والنّساء صنّاع قرارات الشركات الضّخمة زاد مستويات القلق، ويُطلَق على هكذا عَيشٍ إداريٍّ مصطلحٌ جديدٌ هو «فوضى اقتصاديّة».

coptic-books.blogspot.com

ثالثًا، قدّم الطبّ وسائل متقدّمةً جدًّا لحفظ الحياة، لكنّنا فقدنا تعريف الحياة نفسها. ونتكلّم الآن عن حقّنا في أن نموت حين نكون بالغين ومتألّمين دون أن نُعطى الحقَّ لنعيش حين نكون هشّين ومعوزين.

تتمّ الآن إعادة تعريفِ كلِّ القيم، وقد جلب تقدّم الوسائلِ معه تراجعًا في الجوهر والفهم. وكما كتب سي. إس. لويس C. S. Lewis مرّةً، هناك وجه شبهٍ بين التكنولوجيا والسحر فصلهما عن حكمة العصور. كان السؤال قديمًا: كيف أشاكل النفس مع الواقع؟ وكان الجواب: في الفضيلة والحكمة. أمّا في الحداثة المعاصرة فالسؤال هو: كيف نُعيد تشكيل الواقع بحيث يشاكل عواطفنا، والجواب: في التقنيّة وعلم التّقنيات.[٣] وعلى الرغم من كلِّ تقدُّمنا، لم يسبق لجيلٍ أن عاش إلى هذا القدر على مضادات الحموضة ومضادات الاكتئاب لتهدئة روحٍ مُنهَكة، كمن يعالج مفصلاً مخلوعًا بلاصقٍ طبّي. وهنا لا بدَّ للطبيب المشعوذ مع مرطباناته المليئة بمفرزات الحيوانات والتلفيقات السحرية أن يشعر بالإطراء لكونه سبق زمانه.

رابعًا، لم يسبق أن دُرِس الجنس وأتيح واتُّجِر به علانيةً أكثر من الحاضر، ومع ذلك لم نكن يومًا أكثر حيرةً حول ما هو صواب، أو بالنسبة إلى هذا الشأن، حتى ما هو طبيعي.

ذُعرت سيّدة في بريطانيا لدى تصفّحها مجلّةً موجَّهةً للشابّات المراهقات حين لاحظت أنّ المجلة قلبًا وقالبًا في مقالاتها وصورها كانت لجعلِ الشابّات مهووساتٍ جنسيًا، إذ تُغرَس في العقول الشابّة شهوات لا تستطيع أيّة تجربة بشرية أن تُجاريها أو تسترضيها.

أمنَ العجب إذًا، مع هكذا تناقضاتٍ مُفسِدة أن نشعر بالوحدة والتشاؤم ونبحث عن «أبعد» يبدو أنّنا لن نبلغه أبدًا؟

coptic-books.blogspot.com

إنّ كلاً من إمكانيّة التواصل الكبيرة، التحسينات التكنولوجيّة، التقدّم الطبّي، والحرّية الجنسيّة بطريقته الخاصّة جعل منّا ثقافةً أكثر أسرًا وأكثر تفاهةً.

تُسمَع صرخة الوحدة من ملايين القلوب، والحبّ وحده لا يقدِّم حلاً.

إذًا، لماذا نعاني الوحدة، وما هو الجواب؟

الرّوابط التي تجمَع

هناك قصّتان مؤثّرتان في العهد الجديد تشيران إلى أنّ في الحياة مسعًى أعظم من الحبّ. وفي هذا السياق أستطيع أن أقول دون تحفّظ أنّ عظمة الأنوثة تقدّم عونًا واضحًا بسهولةٍ أكثر من التكلّف المواربِ للرجولة.

أحد الجوانب الأخّاذة في تعليم يسوع هو ملاحظة الفرق الذي تعامل به مع التركيبة العاطفيّة للمرأة مقابل تلك التي للرجل، إذ بالنسبة لرجال تلك الأيام، وأخشى أنّه في أيّامنا هذه أيضًا، كان أحد أعظم مخاوفهم هو خطر الظّهور بمظهر الضعف. قلّة من الرّجال الذين أعرفهم مستعدّون للاعتراف بحاجةٍ عاطفيّة، فاستلاف المال أو طلب تجيير شيكٍ هو شأن، أمّا الاعتراف بحاجةٍ إلى مساعدةٍ عاطفيّة أو مؤاساةٍ شخصيّة، فهو شأن مختلف تمامًا. وإنّ شبّاننا يوجَّهون علانيةً بأن يكونوا أعلى من ذلك، وهذا لا يشبه بشيءٍ صراحة النّساء.

سافرتُ وزوجتي منذ فترةٍ في رحلةٍ بالقطار لمجرّد الابتعاد عن تطفّل الهاتف والفاكس، ولنكون معًا وحدنا بضعة أيام. وجدنا أنفسنا في اليوم الذي تلا ترجُّلنا من القطار، في مطعم نتشارك الطاولة مع زوجين كانا أيضًا على ذات القطار. وبدأتُ محادثةً مع الرجل كما زوجتي مع المرأة، وفي منتصف محادثتنا نظرتُ باتّجاه زوجتي وكان واضحًا أنّها

coptic-books.blogspot.com

تؤاسي المرأة الأخرى التي كانت دموعها قد بدأت تنهمر، ولم أحظَ بدليلٍ على ما كان يجري إلى أن عُدنا إلى غرفتنا. تحدّث الرجل طوال الأمسية عن المؤسّسة القانونيّة التي كان شريكًا أساسيًّا فيها، وكانت المؤسّسة القانونيّة الأكبر في بلده وإحدى المؤسسات الأكثر نفوذًا في العالم، ودارت المحادثة كلّها حول نجاح ومشغوليّة مهنته.

في نفس الوقت، أخبرَت زوجتُه زوجتي أنّ السبب الوحيد وراء رحلتهم كان تجاوز حزن وفاة ابنهم الشاب منذ بضعة سنوات. بكت قائلةً «نحن لم نتحرّر حقًّا بعد من ذلك الألم... لقد أعوزنا الوقت لنتكلّم عنه ونواجه المأساة.»

أبدى شخصان مجروحان بنفس الشدّة نقطتي تركيز مختلفتين. أحدهما لم يتطرّق إلى الموضوع مطلقًا بل كان مستعدًّا أن يتحدّث إلى ما لا نهاية عن حياةٍ عالية الوتيرة بمصطلحاتٍ اقتصادية، في حين فتحت الأخرى قلبها دون قيودٍ إلى غريبةٍ وتحدثّت عن أحلامٍ محطّمةٍ في حياتها.

إنّ مواجهات يسوع مع الرجال والنساء في الإنجيل تخبر قصّةً مشابهةً. فحين خاطب نيقوديموس، كان يسوع يتكلّم إلى رجل انحصرت هويته بفخرٍ في معرفته الحاخامية، ومع ذلك أفشى جهلاً في المعجزة الرّوحيّة الأكثر أساسيّةً، ألا وهي قدرةُ الله المحوِّلة داخل القلب البشريّ.

في مثال الحاكم الشابّ الغنيّ، كان يسوع وجهًا لوجهٍ مع شخصٍ كانت ثروته هي موضوع عبادته، وبدا التّعامل مع حاجته الحقيقيّة أصعب عليه جدًّا من أن يقرَّ به، ومضى حزينًا لأنّه أراد يسوع أن يؤيِّد مسعاه الرئيسي، أي المال.

coptic-books.blogspot.com

سيبيّن لنا التفاعل مع المرأتين اللتين سنتأمّلهما بإيجاز الآن، كيف أنّ يسوع فتح بلطفٍ وإلى الأبد ينبوعَي قلبيهما، وبفعله ذلك قدّم لنا درسَين موضوعيّين خالدَين.

كثيرًا ما تُكرَّر قصّة المرأة السامرية إذ تبدو من واقع الحياة. فهنا إنسانة عاشت حياةً من اليأس الهادئ، وإنّ الإصغاء إليها تخبر المسيح عن رجائها بمجيء المسيّا يومًا ما، وتحيّرها حول أيِّ جبلٍ ينبغي أن يُسجَد فيه يجعلنا نشتبه في أنّها لم تتطرّق بعد إلى صراعها الحقيقيّ.

ويشكّل انتصار يسوع اللطيف في جعلها تعترف بأنّ حالة الرفض المحزنة هي بلواها الرئيسية، إيضاحًا كلاسيكيًّا عن كيف يُزيل الله الأقنعة عن أوجه اهتماماتنا. لكنّه لم يفعل ذلك كي يحدّق في عينيها ويقول «كشّ ملك»، فمن خلف توتّرها واضطراب أسئلتها الدينيّة لاحَ ألمُها الأعظم – وحدتها.

كانت تلتمس ماءً يشبع عطشها الأعمق، ولم تعرف كم كان ذلك الماء قريبًا من متناولها، وإنّ الرسالة التي تركها معها يسوع ذات مغزًى تعليميّ عميق.

القصّة الثانية أكثر ميلودراميّة، وهي قصّة ألهمَت كتّاب الترانيم على مرّ السنين. جرت أحداثها في منزل فرّيسيٍّ يُدعى سمعان، ولا بدّ أنّها صدمت كلاًّ من الذين في القصّة والذين قرأوها لاحقًا فيما تبلغ ذروةً يُضرَب بها المثل. إليك هذه الكلمات من إنجيل لوقا:

> «وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ الْفَرِّيسِيِّ وَاتَّكَأَ. وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً، إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِ الْفَرِّيسِيِّ، جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِيَةً، وَابْتَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ، وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا، وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَدْهَنُهُمَا

coptic-books.blogspot.com

بِالطِّيبِ. فَلَمَّا رَأَى الْفَرِّيسِيُّ الَّذِي دَعَاهُ ذلكَ، تَكَلَّمَ فِي نَفْسِهِ قَائِلاً: لَوْ كَانَ هذَا نَبِيًّا، لَعَلِمَ مَنْ هذِهِ الامْرَأَةُ الَّتِي تَلْمَسُهُ وَمَا هِيَ! إِنَّهَا خَاطِئَةٌ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: يَا سِمْعَانُ، عِنْدِي شَيْءٌ أَقُولُهُ لَكَ. فَقَالَ: قُلْ، يَا مُعَلِّمُ. كَانَ لِمُدَايِنٍ مَدْيُونَانِ. عَلَى الْوَاحِدِ خَمْسُمِئَةِ دِينَارٍ وَعَلَى الآخَرِ خَمْسُونَ. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَا يُوفِيَانِ سَامَحَهُمَا جَمِيعًا. فَقُلْ: أَيُّهُمَا يَكُونُ أَكْثَرَ حُبًّا لَهُ؟ فَأَجَابَ سِمْعَانُ وَقَالَ: أَظُنُّ الَّذِي سَامَحَهُ بِالأَكْثَرِ. فَقَالَ لَهُ: بِالصَّوَابِ حَكَمْتَ.» (لوقا ٧: ٣٦-٤٣)

ثم تابع يسوع ليلفت نظر سمعان أنّه رغم دخوله إلى بيته كضيف فهو لم يقدّم له أيًّا من الحفاوات التي تُمنَح للضّيف، لا معانقة، لا ماء لغسل الأرجل ولا منشفة لتجفيفهما، ولا اقتراح بتقديم طعام أو شراب بعد رحلة مغبرة. أمّا تلك المرأة بالمقابل فقد تجرّأت على الدخول غير مدعوّةٍ وقدّمت ليسوع أفضل مقتنياتها، ثم سقطت ساجدةً عند قدميه غاسلةً إيّاهما بدموعها وماسحةً إيّاهما بشعرِ رأسِها. وإنّ بادرتها المذهلة وهيئتها المنكسرة تحكي الكثير عن امتنانها وحبِّها وتترك الجميع – ما خلا المتعجرف – عاجزين عن الكلام. لقد تمَّ تجاهل كلَّ ما في كتاب اللياقات الخاصّ بتلك الثقافة في تلك المواجهة بين امرأةٍ تائهة ومخلّصِها الذي وجدته حديثًا.

إنَّ كلًّا من هذه القصّة وقصّة المرأة السامرية ينتهي بملاحظة فعّالة تُبلغنا الأمرَ الإلهيَّ بأن نتبع نفس المنهج.

نجد في كلتَي القصّتَين دلائل متشابهة إلى جوابٍ على صراع القلب مع الوحدة والتّوق إلى «الأبعد»، لكن قبل أن نبلغ تلك النقطة هناك رحلة وجودية لا بدّ لنا من القيام بها.

coptic-books.blogspot.com

الحبّ الذي نحتاجه

بعد سنواتٍ من التأمّل في هذه المسألة والاستماع إلى طريقة التعبير عن هذا الصّراع في ثقافاتٍ عدّة، وجدت في كتابات سي. إس. لويس C. S. Lewis عن موضوع الحبّ بذرة جوابٍ، عندما نشر كتابَه «أنواع الحبّ الأربعة» *The Four Loves* لأوّلِ مرّةٍ حاز استحسانًا نقديًّا وإقرارًا بأنّ لويس حدّد بدقّةٍ وتر أشيل في الحبّ. أظهر لويس ببراعةٍ جوع البشريّة العميق إلى أمرٍ أعظم مهما كان ذلك الحبُّ مُشبِعًا، وبتواضعه النموذجيّ أنهى لويس كتابه بهذه الكلمات: «وهنا حيث لا بدَّ أن يبدأ كتابٌ أفضل، يجب أن ينتهي كتابي.» ولسوءِ حظّ القارئ، إنّ لويس وحده هو مَن كان بإمكانه أن يتفوّق على كتابه، لكنّه تركنا مع أفكارٍ كافيةٍ لتدفعنا إلى أبعد. في مقدّمته، وقبل أن يتوسّع في أنواع الحبّ الأربعة، يركّز لويس على الرّابط بين الحبّ والمتعة متسائلاً عمّا يربطهما وما يفصلهما، ومع أنّه مجرّد تمهيدٍ بالنسبة له لكن، إن درسناه بعناية، يمكن أن يقودنا إلى نتيجة عميقة جدًا.[٤]

يبدأ لويس المفاهيم الأربعة في تلك المقدّمة بالتّوكيد على صنفٍ واسعٍ يدعوه «حبّ – حاجة» Need-Love، مَن منّا لايفهم هذا؟ نحن نتوق إلى العاطفة منذ لحظة تمكّننا من مدِّ أذرعنا أو نُطق كلمتنا الأولى. وقد ألقى علم النّفسِ المُعاصر الضوء على هذا في العقود القليلة الأخيرة إذ بحثَ الدّارسون بشكلٍ أعمق في السلوك البشريّ، وكان أحد الجوانب التي تمّت دراستها والتناظر فيها هو ما يدعى نظريّات – الذّات، أي فهم لماذا نفعل ما نفعله، والذي أفضى فيما بعد إلى فهم ما هي حاجاتنا.

كان أبراهام ماسلو Abraham Maslow رائدًا في هذا الحقل، وهو معروفٌ بأفكاره حول تحقيق الذّات لدى الفرد، أي كيف يصل كلٌّ منّا إلى إمكانيّته القصوى. وعلى مستوى أكثر شعبية يُعرَف ماسلو بـ «التّسلسل الهرميّ للحاجات» الذي قدّمه كمقياسٍ نرتقي عليه لتحقيق تلك

coptic-books.blogspot.com

الإمكانيّة. أمّا القائمة التي أدرجها من الولادة إلى النّضوج فهي: حاجات فيزيولوجية، حاجات أمان، حاجات الحبّ، وأخيرًا الحاجة لتحقيق الذّات.

وممّا يثير الاهتمام أنّ ماسلو مضى فيما بعد ليصنّف هذه الحاجات إلى فئتين، الأولى ناتجة عن إحساسٍ بالعوز، والأخرى عمّا يدعوه «دوافع الكينونة». وصنّف حاجات الأمان والحاجات الفيزيولوجية على أنّها أساسيّة ذات دوافع أدنى، وتوجد بسبب «شعور بالعوز»، وعندما لا تُلبّى يتأثّر سلوكنا وفقًا لذلك. أمّا الدّوافع الأعلى للوصول إلى تحقيق الذّات فتظهر فقط عندما تُشبَع تلك الحاجات الأدنى.

توجد ضمن الإطار الإجماليّ لماسلو افتراضات لا تتوافق مع الرّؤية المسيحيّة، لكن ليست هي سبب رجوعنا إلى نظريّته النفسانيّة، بل بالحري لنشير إلى توافقٍ أساسيّ بين أولئك من مدرسته الذين يصارعون مع نظريّات الدوافع، وبين أمثال لويس الذين يستخدمون تبريراتٍ وجوديّة، فهم ينطلقون من أرضٍ مشتركة هي الحاجة التي نتشاطرها نحن البشر مع بعضنا البعض. لكن هناك نقطة اختلافٍ حاسمة بين الفكر الكتابيّ وماسلو وهي أكثر بروزًا من أن نتجاهلها. الخطأ الفلسفيّ الذي يرتكبه أصحاب النظريّة السلوكيّة في تحديد حاجاتنا كبشر هي في نقطة البداية، ومع أنّ لهم أسبابهم في ذلك لكنّ الاختلاف قائم، هم يراقبون أنماطًا محدَّدةً من السلوك وينطلقون منها رجوعًا ليحدّدوا ما ينبغي أن يكون عليه كياننا، بدل أن يبدأوا من كياننا ويتقدّموا ليشرحوا سلوكنا. هذا الاختلاف الرّئيسي في فهم مَن نحن يُنتج حلولاً مختلفةً جذريًّا للوحدة. إن أدركنا أهمّية هذا التّفريق سنفهم لماذا لن يجد المفكّرون أمثال وولف Wolfe ولورانس Lawrence حلاًّ أبدًا للـ «أبعد» خارج ردٍّ مسيحيّ.

غموضٌ مقصود

إنّ الحياة في صميمها عبارة عن غموضٍ في أفضل معنىً للكلمة، غموضٌ أخّاذٌ، غموضٌ مثيرٌ، غموضٌ متعمَّدٌ. إنَّ لكلِّ فردٍ إمكانيّة رائعة

coptic-books.blogspot.com

بديعة فريدة، وكلُّ إنسانٍ، كونه جُلِب إلى الوجود ليس بناءً على إرادته، يباشر خوض ذلك الغموض منذ البداية.

أعتقد أنَّ الله أعفانا بشكلٍ تحفيزيّ وهادفٍ من ذكريات ولادتنا، وذلك، حسب قناعتي، لأنّ الأمر أعظم من أن يفهمه عقلنا. قال يسوع لتلاميذه مرّةً: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمُ الأَرْضِيَّاتِ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ، فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمُ السَّمَاوِيَّاتِ؟» (يوحنا ٣: ١٢). وهكذا إن كان الكثير من الأمور الواضحة يفوتنا فكيف نجرؤ على التّفكير بأنّنا فهمنا الخفايا بعمق؟

إنّ هذه البداية الغامضة والمهيبة للحياة نفسها مع محدوديّاتها البنيويّة يجب أن تكون دليلنا الأوّل على غموض جوهر الحياة، ودعونا نبدأ من هناك.

تحصل تغيّرات مذهلة منذ بداية الحمل إلى لحظة الولادة، تنمو البويضة الملقَّحة الوحيدة على مدى تسعة أشهر إلى مئة ترليون خليّة، والطبيب الذي يولّد ذلك الطفل لا يمنحه بذلك حياةً أكثر ممّا يفعل الأهل بتسميتهم إيّاه.

إنّ عمليّة الولادة ومنح الطفل اسمًا هي إدراك لوجود حياةٍ موجودةٍ مسبقًا؛ قد يتشارك ذلك الاسم الملايين، أمّا الحياة نفسها فهي خاصّة بذلك الفرد بكلّ تميُّزٍ وفرادة.

يمكن للطّاق الواحد من الـ DNA البشري أن يملأ موسوعةً من ألف مجلَّدٍ تشمل ستمائة ألف صفحة في كلٍّ منها خمسمائة كلمة، لكنَّ الفرد يحوّل تلك المعلومات بشكلٍ رائعٍ إلى شخصٍ وشخصيّةٍ خاصّة به. اسأل أيّ والدٍ لديه توأم متماثل وسيخبرك أنّه حتى التشابه في البنية الكيميائية لا يُمكّن أحدهما أن يحلّ مكان الآخر.

coptic-books.blogspot.com

إذًا هنا نبدأ، لقد منحنا الله رئيس الحياة نفسه في قدرته وحكمته اللّامحدودتَين، ما يجب أن نقف عنده في تهيُّبٍ.

يعلّق الكاتب لويس توماس Lewis Thomas في كتابِه «ميدوسا والحلزون» *Medusa and the Snail*:

> «إنّ مجرّد وجود تلك الخليّة يجب أن يكون من أعظم مثيرات الدّهشة في الأرض. ينبغي على الناس أن يتجوّلوا كلّ النهار طوال ساعات استيقاظهم داعين أحدهم الآخر في تعجّبٍ دائمٍ غير متكلّمين عن شيءٍ سوى تلك الخليّة... إن نجح أحدٌ ما في شرحها خلال فترة حياتي سأستأجرُ طائرةً للكتابة في السماء، وربّما أسطولاً منها، وأرسلها عاليًا لتكتب علامات تعجّبٍ كبيرةً واحدة تلو الأخرى في كلّ السماء حتى تنفذ كلّ أموالي.»[٥]

هناك غموضٌ يجب أن يبقينا في تهيّب، لكن هناك عاملٌ آخر في فرادتنا، فهي ليست فقط فرادةً في الكيان بل أيضًا في الالتحام. فهناك وحدة متكاملة فريدة لا تتجزّأ، ففي كلّ شخصيّةٍ تجمُّعٌ من المقوّمات لا يمكن فصله ويعطي لكلِّ واحدٍ شخصيّته. وضّح اف. و. بورهام F. W. Boreham هذا ببراعة في مقالته «سيف سليمان» *The Sword of Solomon*:

> «هناك منطقٌ... يكون فيه اثنان واثنان يساوي أربعة... هناك خطّةٌ، خطّة دفترِ الحسابات ودفترِ الصّندوق، تكون فيها هذه الافتراضات صائبةً، لكن إن ارتقيت من تلك الخطّة إلى واحدةٍ أعلى ستجد في الحال أنّ تلك الافتراضات واهيةٌ، بل ببساطةٍ لا تنفع، وقد أثبت سليمان ذلك لدى بوّابة المدينة. قد يكون صحيحًا أنّ نصف جنيه مع نصف جنيه يشكّلان جنيهًا، لكن من الواضح أنّ نصف طفلٍ ونصف طفلٍ لا يشكّلان طفلاً. دعِ السيف يفعل فعله، دعه يشطر

coptic-books.blogspot.com

الولد إلى نصفين ولن يقدّم نصف طفلٍ مضافًا إلى نصف طفلٍ إلّا سخريةً رهيبةً ومقيتةً لطفل، إنّ نصفا طفلٍ لا يشكّلا طفلاً مطلقًا.

تنهار قوانين الرّياضيات كلّيًا عند هذه الخطّة الأعلى من العاطفة والخبرة البشريّة. فمثلاً عندما يوزّع رجلٌ ثروته على أولاده، هو يعطي كلاًّ منهم جزءًا، أمّا عندما توزّع المرأة حبّها على أولادها فهي تعطيه كلَّه لكلٍّ واحدٍ... لا يمكن أبدًا إقناعُ رجلٍ وقع في الحبّ بأنّ واحدًا مع واحدٍ هما اثنان فقط، فهو ينظر إلى المحبوبة ويشعر أنّ واحدًا وواحدًا يساوي مليونًا. ولن يقتنع أبدًا زوجان سعيدان أنجبا ولدًا في ظلّ بيتهما العزيز أنّ اثنين وواحدًا هم ثلاثة فقط، فقد اغتنت الحياة آلاف الأضعاف بإضافة تلك الحياة الصّغيرة الواحدة لهما. وأنا متأكّد أنّه لن يوجد زوجان خُطف كنزهما من بين أذرعهما المتمسّكة والحافظة سيجدان التّعزية في الضّمان أنّ غياب واحدٍ من ثلاثة يترك اثنان. في أزمات الحياة الكبرى ينهار إيمان الشخص بالأرقام كلّيًّا.»[٦]

الإنسان ليس كمّيةً، إنّه كينونة. وقد تكون إضاعتنا لهذه الروائع، أي فرادتنا وتكاملنا الفردي، هي سبب رجائنا المضلّل في الافتراض بأنّ الحبّ الآمن والمُشبع سيشبع كلّ أجواعنا.

كثيرًا ما تساءلتُ، لماذا ننتقل إلى المرحلة السلوكيّة مفتونين بمعطياتها، ونترك مجلّد أصلِنا غير مقروءٍ؟ هل ذلك لأنّنا لا نرغب أن ندّعي الاعتماد على أحد، موهمين أنفسنا بالاعتقاد أنّنا صنع أنفسنا؟ لقد قيّدنا توقنا للحبّ فأضعنا رؤية العجب في كياننا خلف الوجود. إنّ تجاوز كينونتنا التي هي مرحلتنا الأولى والانشغال بالسلوك كمرحلة أولى يُنتِج نصًّا من «حبّ – حاجة» دون سياق نصٍّ هو الحبّ. إنّ تلك

coptic-books.blogspot.com

الأتواق حقيقيّة فعلاً، وحبُّ الحاجة حقيقيٌّ، فسواءً وُلدنا أغنياء أم فقراء، أمريكيين أم آسيويين، نحن لدينا حاجة بنيويّة ليس فقط أن نُطعَم بل أن نُحَبَّ أيضًا.

نقرأ بين الفينة والأخرى تعبيراتٍ دراماتيكية عن هذه الحاجة. لكن في المرّة القادمة، إقرأ بعناية بين السطور وستلاحظ أنّ الحاجة ليست إلى مجرّد أيِّ حبٍّ إنّما إلى حبٍّ محدّدٍ، ذلك الحبُّ المحدَّد مبنيٌّ داخل شخصيّتنا الفريدة والتّكامل الفريد الذي وُلدنا به.

استلمتُ منذ بضعة أشهرٍ نسخةً من بريدٍ مُرسَلٍ من خدمةٍ في مدينة نيويورك تعملُ مع الشباب الذين وقعوا في شرك المخدّرات وغالبًا اصطيدوا في شبكة البغاء الجهنّمية. لست أذكر أنّه سبق أن تركَت كلماتٌ من غريبٍ ثقلاً مشابهًا في قلبي. قبل التّحيّة حذّرَت كاتبة الرّسالة القارئ أنّه سيجدُ القصّة صعبة التّصديق لكن تعهّدت أنّ كلَّ كلمةٍ فيها صحيحة، وهاك نصّ تلك الرّسالة:

«صديقي العزيز،

جاءت إلى بابنا الأماميّ صباح الثلاثاء، مرتديةً أسمالاً قذرة وتحضن بين ذراعيها علبة ألمنيوم صغيرة. لقد حيَّرتنا منذ اللحظة التي خطت فيها داخل المأوى، فحيثما ذهبت ومهما فعلت لم تفارق العلبة يديها أبدًا. عندما جلست كاتي Kathy في مأوى الطوارئ، كانت العلبة بين يديها، وفي أوّل صباحٍ ذهبت فيه لتأكل أخذتها معها إلى الكافتيريا، وإلى السريرِ في أوّل ليلةٍ نامت، وعندما دخلت لتستحمّ كانت العلبة على مقربةٍ منها، وحين ارتدت ثوبها كانت العلبة بجانب قدميها. وكلّما سألناها عنها تقول: «أنا آسفة، إنّها لي، هذه العلبة تخصّني.» وعندما تكون كاتي حزينةً أو غاضبةً أو متألّمة، وهذا يحدث كثيرًا، تصطحب علبتها إلى

coptic-books.blogspot.com

غرفةٍ هادئةٍ في الطابق الثالث. ومرّاتٍ كثيرة إذ كنت أمرُّ أمامَ غرفتها كنت أراها تهزُّ نفسها جيئةً وذهابًا والعلبة بين ذراعيها، وأحيانًا تتكلّم معها بهمساتٍ منخفضة.

لقد أمضيتُ حياتي على مقربةٍ من أطفالٍ مضطربين، وأنا معتادة على رؤيتهم يحملون دمى حيواناتٍ محشوّة (إنّ بعض أعنف وأقسى الأولاد لديهم مثل تلك الدّمى). كلُّ ولدٍ لديه شيء، أو يحتاج شيئًا، يتعلّق به، لكن علبة معدنية؟! كنت أشعرُ بأجراسِ إنذارٍ ترنُّ في رأسي.

قرّرتُ هذا الصباح أن أمرَّ بها «مصادفةً» وقلتُ لها: «أتودّين أن نتشارك الإفطار؟» فقالت: «سيكون ذلك رائعًا.»

جلسنا لعدّة دقائق في زاويةٍ من الكافتيريا نتحدّث بهدوءٍ مع صخب ١٥٠ طفل مشرّد نَهِم، ثم أخذتُ نفَسًا عميقًا واقتحمتُ الموضوع...

«كاتي، إنّها علبة ظريفة فعلاً، ماذا يوجد فيها؟» لوقتٍ طويلٍ لم تُجِب كاتي وكانت تهزُّ نفسَها جيئةً وذهابًا وشعرها يتأرجح فوق كتفيها، ثم نظرَت إليَّ والدموع في عينيها وقالت: «إنّها أمّي.»

فقلتُ: «أوه، ماذا تقصدين أنّها أمّك؟»

أجابت : «إنّه رماد أمّي. ذهبتُ وجلبتُه من دار الجنازة، أترين لقد طلبتُ منهم أن يضعوا مُلصقًا هنا على الجانب وعليه اسمها.»

رفعت كاتي العلبة أمام عينيّ ورأيتُ ملصقًا صغيرًا على الجانب مكتوبًا عليه الاسم وتاريخ الولادة وتاريخ الوفاة، ثمّ أرجعَت العلبة إليها واحتضنَتها.

«أنا لم أعرف أمّي فعليًّا أبدًا، أقصدُ أنّها رمتني في القمامة

coptic-books.blogspot.com

بعد يومين من ولادتي» (لقد تحقّقنا من قصّة كاتي، وبالفعل في السنة التي وُلدت فيها كاتي أوردت جريدة نيويورك قصّة عثور الشرطة على وليدةٍ صغيرةٍ في مكبِّ نفاياتٍ... وذلك بالضّبط بعد يومين من تاريخ ولادة كاتي). وتابعت كاتي: «وانتهى بي الأمر بالعيش في العديد من بيوت الرّعاية غاضبةً جدًّا من أمّي، ولكن بعدها قرّرتُ أن أجدَها. وواتاني الحظّ، كان أحدهم يعرف أين تعيش، وذهبتُ إلى منزلها... لكن لم أجدها هناك، كانت في المستشفى، فقد كانت مصابةً بالإيدز وعلى فراش الموت.» ثمّ قالت باكيةً: «ذهبتُ إلى المستشفى وحصل أنّي قابلتُها قبل يوم من وفاتِها، وقد أخبرَتني أمّي أنّها تحبّني، لقد أخبرَتني أنّهَا تحبّني.» (تحقّقنا من قصّة كاتي وتبيّن أنّ كلّ كلمةٍ فيها كانت صحيحة). فاقتربتُ منها وعانقتُها، وبكت مطوّلاً بين ذراعيّ. كان من الصّعب عليّ إحاطتها بذراعيّ إذ أنّها لا تفلتُ العلبة أبدًا لكن لم يبدُ أنّها تهتمّ لذلك، وأنا لم أهتمّ أيضًا.

رأيتُ كاتي مرّةً ثانيةً، منذ ساعتين، تتناول عشاءَها في الكافتيريا، وقد تقصَّدَت أن تأتي وتحيّيني، وأنا تقصّدتُ أن أعانقَها مرّةً أخرى.

أشعرُ الليلة أنّني على وشك البكاء ويبدو أنّني لا أستطيع أن أوقف هذا الشعور. أظنّ أنّ هذه القصّة – كلّ هذه الفوضى الغريبة، الحزينة، والمخيفة – قد نَفذَت إليّ، وأظنّ أنّ هذا ما دفعني لكتابة هذه الرّسالة إليكم.»[٧]

أيمكن أن توجد قصّة مؤلمة أخرى تعبّر عن «حبّ – حاجة» بصورةٍ أكثر تأثيرًا؟

إنّ صرخة كاتي من مكبِّ الرّفض أشارت إلى كلٍّ من ألم الوجود البشريّ ورِفعته.

coptic-books.blogspot.com

أكانت كاتي تبحث عن الحبّ أم كان هناك أمر بعد؟ أنا أعتقد أنّ هناك المزيد، لكن دعونا نترك هذه الخطوة الأولى البالغة الأهمّية الآن ونعود إليها عندما نصبح جاهزين لجمع كلّ أشكال الحبّ معًا.

عطيّة الحبّ

يقول لويس أنّ وجه العملة الآخر لـ «حبّ – حاجة» هو «حبّ – عطاء» Gift-love، وهو الحبّ الذي يسكب نفسه بسخاءٍ، محبّةٍ، لطفٍ، رحمةٍ، نعمةٍ، وتصرّفاتٍ أو أفكارٍ أخرى من العطاء لا تعدّ ولا تحصى. أين عسانا كنّا لولا حبّ العطاء الذي يغنى به القلب من عطيّة وتضحية آخر؟ سواءً في قصّةٍ من ساحة معركةٍ نُفِّذت فيها أعمال إنقاذٍ نبيلة، أو من سجلّات الحبِّ الأبويّ المضحّي حين يضع أحدهم حياته من أجل آخر، نحن نقرأ ونسمع عن عطايا الحبّ وندرك الإحسان الذي تنمُّ عنه تلك الأفعال أو الجهود.

هناك نقطة هامّة لا بدّ من ذكرها هنا. تشير واحدة أو اثنتان من ديانات العالم الرّئيسية إلى حبّ – عطاء على أنّه الفضيلة القصوى. وتُعرَّف حياة نكران الذّات، الحياة المضحيّة، على أنّها النّهاية التي يجب أن تشيرَ إليها كلّ الوسائل.

تحكي إحدى القصص القديمة عن امرأةٍ أرادت أن تتخلّص من بؤسها وفاجعتها، فطلب منها الحكيم أن تذهب من بيتٍ إلى بيت، وعندما تجد بيتًا خاليًا من الهموم، أن تطلب مقدارًا صغيرًا من القمح. وعادت المرأة بعد مدّةٍ طويلة قائلةً أنّها لم تجد بيتًا واحدًا يستوفي الشرط. وفي الواقع لقد انشغلت المرأة جدًّا بالاستماع إلى آلام الآخرين إلى درجة نسيت ألمها. المغزى من القصّة أنّ الإنسان ينسى احتياجاته بالعطاء.

نحن جميعًا نميّز سموّ «حبّ – عطاء» و نعجَب بالذين يسكبون أنفسهم لأجل مَن حولهم، لكنّ النظرية الدينية التي بُنيَ عليها كلٌّ من المثال السابق والمفهوم ذاته تقصُر جدًّا عن تقديمِ جوابٍ مُرضٍ. فالحياة

coptic-books.blogspot.com

أكثر تعقيدًا من أن تُختزَل إلى رحلةٍ لتخفيف الألم، فهنا أيضًا يوجد المزيد ليُقال، لكنّنا نُسلّم بتصنيف لويس الثاني حبّ – عطاء، فجميعنا نحتاج أن نُحَبّ، وجميعنا لدينا امتياز تقديم عطيّة الحبّ أو استقبال عطيّة الحبّ.

المتعة الجذّابة

بعد أن يعرّفنا لويس على نوعي الحبّ، «حبّ – حاجة» و«حبّ – عطاء»، يُطلِعنا على نوعين من المتعة، باحثًا عن رابطٍ بين مُتعِنا وحبِّنا.

يدعو النّوع الأوّل «متعة – حاجة»، والثاني «متعة – تقدير». ويُشار إلى «متعة – حاجة» ببساطة على أنّها الرّضى الذي نحصل عليه من أبسطِ ملذّاتِ الحياة، مثل كأسِ ماءٍ منعشٍ أو الاسترخاءِ في مقعدٍ مُريحٍ والاستمتاعِ بكأسٍ من الشاي، أو أيٍّ ممّا يجلب لنا الاستمتاع. هذه هي «متعة – حاجة» وقليلون يدركون قيمتها أكثر من المسافر البعيد عمّا هو مألوفٌ لديه ويشتاق إلى مباهج البيت الاعتياديّة. يورِد فريدريك بيوكنر Frederick Buechner في كتابه «الشوق إلى البيت» *Longing for Home* مقطعًا يُبرز هذه النّقطة بينما يسترجع أيّام طفولته، وهذا ما يقوله:

> «ما الذي جعل المنزل بيتًا بطريقةٍ لا يمكن أن يُدانيها أبدًا أيّ منزلٍ في طفولتي؟ إنّ استمراره كان جزءًا من الجواب – الإحساس الذي كان لديّ أنّه بينما جاءت وذهبت البيوت الأخرى، كان ذلك المنزل دائمًا وسيبقى هناك لأجلنا بقدر ما يمكنني أن أتخيّل من أيّامٍ قادمة. مع إيلين Ellen تُحضِر لجدّتي كأسها من مخيض اللبن على صينيةٍ فضّيةٍ في الحادية عشرة صباحًا كلّ يوم. وجدّي يغادر إلى مكتبه في وسط المدينة ويعود... قبل العَشاء مع جريدة المساء تحت ذراعه، وربّما شيئًا آخر ابتاعه من المخبز في طريقه إلى البيت. وعشاء يوم السبت، إذ يكون الطبّاخ غير موجود،

coptic-books.blogspot.com

تكون قائمة الطعام دائمًا على شرف النّصف النيوإنغلندي من خلفيّة جدّتي: بقولاً ملوّنةً مخبوزةً مع لحم مملّح ودبس السكر، خبز بوسطن البنّي والمحتوي على زبيب، وقهوة سوداء مركّزة ومحلّاة بقطع السكر، بالإضافة إلى كريمة كثيفة.»[٨]

ستكون قراءة هذا النصّ مؤلمةً لشخص جائع، لكنّه تعبير كلاسيكيّ عن «متعة – حاجة»، يدخل كلُّ استمتاع إلى مخزون الذّاكرة للرّجوع إليه حين تحين الفرصة للاستمتاع به في لحظة ملائمة أخرى.

ثمّ يأخذنا لويس إلى العنصر الأخير في هذه الرباعيّة من أفكاره والذي يدعوه «متعة – تقدير»، وهي متعة تأتي مفاجئةً جدًّا وتتركنا مفتونين. قد يكون أحدهم يقود سيّارته على الطريق السريع وإذ به، بشكل غير متوقّع، يرى بعد منعطف في الطريق حقلاً مليئًا بالذرة أو الخشخاش، والمنظر رائع جدًّا بحيث تبدو عبارات مثل «كم هذا جميل»، «كم هذا محبَّب» أضعف بكثير من حقيقة الاستمتاع المُتَلقّى، ويبدو من المستحيل تقريبًا وصف ذلك النّعيم العابر. وتترك لدينا تلك اللّمحة الوجيزة من المتعة توقًا وذاكرةً دائمةً.

«حبّ – حاجة»، «حبّ – عطاء»، «متعة – حاجة»، «متعة – تقدير»، هذه هي أنواع الحبّ والمتعة التي نعيش معها، وكلّما رقّشت حياتنا أكثر كلّما ازدادت حتميّة الاستمتاع في حياتنا.

بعد وضع كلِّ ما سبق معًا يبرز سؤال الآن وهو: هل يمكننا من خلال الحاجة إلى الحبّ ومنحه، من خلال العثور على المتعة وتقديرها، أن نجد جوابًا للوحدة؟

أهناك كمال في هذه العناصر الأربعة؟ أم ينقص أمر بعد؟

coptic-books.blogspot.com

فجوةٌ مدهشةٌ

شعر لويس، مُحقًّا، بعدم وجود توازنٍ تامٍّ بين الحبِّ والمتعة، وهو يقترح أنّ «متعة – حاجة» تشير إلى «حبّ – حاجة»، فكأس ماءٍ بارد في يومٍ حارٍّ يسبّب لنا المتعة، ومتعة – الحاجة تلك هي مجرّد بذرةٍ صغيرةٍ مقارنةً بالإزهار الكامل للمتعة الذي يجده الشخص بين ذراعيّ المحبوب، فعندما نحتاج حبَّ أحدهم ويُقابَل ذلك الحبُّ تنتج متعة فريدة. هناك إذًا رابط بين «حبٍّ – حاجة» و«متعة – حاجة»، وهما يسيران جنبًا إلى جنب رغم تبدّلات الحياة. لكن هل تشير «متعة – تقدير» إلى «حبّ – عطاء» بنفس الطريقة؟ هناك تفكّك في هذا الرّابط. في حين تسهُل رؤية العلاقة بين «متعة – حاجة» و«حبّ – حاجة»، فإنّ الرّبط بين «متعة – تقدير» و«حبّ – عطاء» ليس بنفس السهولة، بل تقصر «متعة – تقدير» بحدّ ذاتها لسببَين على الأقلّ.

أولاً، إنّها لا تعبّر بالكامل عن تجاوبنا مع عطاء الحبّ الذي نصادفه، وثانيًا، لا تكون متعة التقدير استجابةً فقط لعطيّة الحبّ بل أيضًا لأمورٍ مثل الجمال والصلاح، وتكون دهشةً وتهيُّبًا وافتتانًا. عندما نُعجَب بقطعةٍ موسيقيّةٍ جميلةٍ نرغب في أن نتجاوب بطريقةٍ ما، فنحن نتمتّع بروعة منظرٍ ما أو صوتٍ ما أو شعورٍ لا يمكن كبحُه، ولا يبدو وافيًا القول بأنّ متعة التقدير تصِف بالكامل مزاجنا في تلك الحالة.

أتذكّر من زيارتي إلى كايپ پوينت Cape Point في جنوب أفريقيا، الوقوف عند رأس المثلّث في لاندز إند Land's End حيث امتدَّ جسم الماء الواسع، الذي امتحن خيرة المستكشفين الأوائل، إلى أقصى ما يمكن للعين أن تنظر. واصطخب من جهةِ المحيط الأطلسيّ ومن الجهة الأخرى المحيط الهنديّ، وفيما التقى المحيطان مُدوّمَين بشدّةٍ مُرهبةٍ نظرنا إلى الأبعد الأزرق العاتي وكان المنظر يخطف الأنفاس. وبينما راقبتُ مع زميلي تلك العظمة بصمتٍ، كانت لدينا رغبة غامرة بالاستجابة بطريقةٍ ما، لكن

coptic-books.blogspot.com

كيف؟ ماذا تستطيع متعة التّقدير أن تفعل؟ بالتّأكيد لم نتوقّف لنعانقَ جبلاً قريبًا، أو نتركَ هديّةً أسفل تشكيلٍ صخريّ، أو نقبّل الماء، فمتعة التقدير تصل إلى طريقٍ مسدود وتختنق داخل ذاتها.

كيف يتوافق إذًا «حبّ – عطاء» مع «متعة – تقدير»؟ كيف يرتبط الجمال مع «متعة – تقدير» التي تحتاج أن تتجاوب ولا تستطيع؟

لقد فهم لويس كلّيًا ذلك الافتتان الخانق وأنّه لا بدّ من وجود أمرٍ ما بعد، مفهومٍ خامسٍ يحلّ تلك المعضلة، وهو يدعوه ببساطةٍ «الحبَّ التقديريَّ». ومع هذه العاطفة التي لا تُكبح فتح أخيرًا الرّزمة التي كانت لا تزال مختومةً بعد، ونستطيع الآن أن نجيب لماذا هناك حبٌّ أعمق من استخدامنا العاديّ للكلمة حتى بأفضل وجهٍ له. ويعبّر لويس عن ذلك في الآتي:

> «في متع التّقدير من أدناها فصاعدًا حتى تبلغ التقدير الكامل لكلّ الجمال، نحصل على أمرٍ بالكاد نستطيع ألّا ندعوه حبًّا. إنّه الشعور الذي يجعل رجلاً ما غيرَ راغبٍ بمحوِ لوحةٍ رائعة حتى لو كان آخر رجلٍ حيٍّ وهو نفسه على وشك أن يموت. إنّه الشعور الذي يجعلنا سعداء بالغابات البِكر التي لن نراها أبدًا، الشعور الذي يجعلنا نقلق على استمراريّة حديقةٍ أو حقل بازلاء. نحن لا نُعجب بتلك الأمور فحسب بل ننطق فيها في حسٍّ إلهيٍّ لحظيٍّ، «حسنٌ جدًا».»
>
> هنا يتجاوب القلب والعقل بحبٍّ يمضي أبعد من المتعة، إنّها توليفة للقلب والإرادة تُثري الحياة، اندماج للحبِّ والامتنان، لكن لمَ؟ أو لمَن؟
>
> «لقد تكشّف لي نقصٌ في تصنيفنا السابق للحبّ إلى «حبّ – حاجة» و«حبّ – عطاء»، فهناك عنصرٌ ثالثٌ في الحبِّ ليس أقلّ أهمّيةً من هذه، وتشير إليه متع التّقدير. فهذا الحُكم على

coptic-books.blogspot.com

أمرٍ بأنّه جيّد جدًّا، هذا الاكتراث (الذي يقارب الولاء) المُقدّم له كنوعٍ من دَينٍ، هذه الأمنية بأن يكون ويستمرَّ في كونه ما هو عليه حتى لو لن يتاح لنا أن نتمتّع به أبدًا، كلّ هذا يمكن أن يُقدَّم ليس فقط للأشياء، بل للأشخاص أيضًا. عندما يُقدَّم لامرأةٍ ندعوه إعجابًا، وإلى رجلٍ ندعوه تمجيد البطل، وعندما يُقدَّم لله ندعوه ببساطة عبادةً.»

أخشى أنّ لويس، ربّما بسبب تواضعه، قلَّل بوضوح من وزن ما قاله هنا، فأن تُعرِّف الحبَّ التقديريّ على أنّه ليس أقلّ أهَمّيةً من «حبّ – حاجة» و«حبّ – عطاء»، يعني أن تضعهما على مستوىً مساوٍ له، بينما في الواقع إذا فُهِمَ الحبُّ التقديريّ بصورةٍ صحيحة فهو يشكّل قاعدةً للبقيّة ويؤثّر فيها ويثقّفها.

إنّ النصّ الذّروة الذي كتبَه لويس حول هذا الموضوع رائعٌ بكلّ معنى الكلمة ومنه سأبني قضيّتي:

«يصرخ «حبّ – حاجة» إلى الله من الفقر، ويتوق «حبّ – عطاء» أن يخدمَ بل حتى أن يتألّم لأجل الله، ويقول الحبُّ التقديريّ: «نقدّم لك الشكر لأجل مجدك العظيم.» يقول «حبُّ – حاجة» في المرأة: «لا أستطيع العيش بدونها»، ويتوق «حبّ – عطاء» ليقدّم لها السعادة، الرّاحة، الحماية وإن أمكن الغنى. أمّا الحبّ التقديريّ فيحدّق ويحبس أنفاسَه ويبتهج بصمتٍ لوجود هذه الرّوعة حتى إن لم تكن لأجله، ولن يغتمَّ كليّةً بفقدانها بل يفضّل ذلك على ألّا يكون قد رآها أبدًا.»[٩]

باختصار، يصمد الحبُّ التقديريّ لأنّه متأصّلٌ في مصدر كينونتنا وليس في مجرّد سلوكنا، نحن لا نعانق الجبل لكن يمكننا أن نتوقّف ونشكر مَن صنعه ونحبَّه بكلّ قلوبنا. هناك دمجٌ للحبِّ مع الامتنان في طرازٍ سامٍ من العلاقات البشريّة لا يمكن دعوته إلّا عبادة.

coptic-books.blogspot.com

قال ج. ك. تشسترتون G. K. Chesterton حول هذا المضمون أنّه إن كان ابني يشكر بابا نويل لوضعه الحلوى في جرابه، أليس لديّ أنا أحدٌ أشكره لوضعه قدمَين في جرابي؟ هذا ليس مجرّد «متعة – تقدير» هذا حبٌّ – تقديريّ. فكلمة «شكرًا لك» لا غنى عنها في أعلى صيغة للحبّ، وربّما لهذا السبب أنّه تمامًا كما أعيدت تسمية احتفالنا في أمريكا الشمالية بعيد الشكر ليصبح يوم الدّيك الرّومي، هكذا وَلَدَت ثقافة عدم الشكر جيلاً يعاني الوحدة.

أعتقد أنّ هذا هو حجر الزاوية في الجواب على الوحدة. ينبثق الحبّ التقديريّ من الامتنان ويتقدّم بإدراك تامٍّ لغموض كينونتي أمام مَن هو سببُ كينونتي – الكائن الأزليّ الأبديّ.

إنّ الحبَّ التقديريّ، فيما يتعلّق بتجاوبنا مع الله، هو حبٌّ نابعٌ من امتناننا له، إنّه حبٌّ يُخضِع القلبَ والإرادةَ في العبادة، ذلك هو «الأبعد» في حياتنا.

لديّ صديق عزيز هو واعظٌ معروف، عمره الآن في أوائل الستّينيّات، وكان والداه قد تخلّيا عنه عند ولادته لأسباب شخصيّة. وطوال تلك السنوات كان يتساءل إن كان عليه إيجاد والدَيه ومقابلتهما. ومنذ سنواتٍ قليلة، بعد أن عمل بلا كلل استطاع تحديد مكان والدته، وهي بالطبع قد أصبحت في عمر الشيخوخة. وعندما اتصل بها وسأل إن كان ممكنًا أن يأتي ويزورها، غُمر قلبُها بفرحٍ لم تستطع احتواءه، فقد كان هذا بالنسبة لها بهجةً لم تعتقد أنّها ستختبرها في حياتها التي انقضى معظمها حتى الآن، وبالكاد استطاعت انتظار يوم وصوله.

عندما جاء ذلك اليوم، كان يومًا عاصفًا مثلجًا، وفيما قاد سيّارته ببطءٍ في الشارع القريب، باحثًا عن المنزل، رأى امرأةً تقف خارجًا في البرد تنتظر. كان جمع شملهما بعد خمسة عقودٍ أمرًا أكثر حساسيّة من أن يوصف، لكنّه أخبرني أنّه عندما ودّعها سألها: «أمّي، هل هناك أيّ

coptic-books.blogspot.com

شيء يمكنني أن أفعله لأجلك؟» فقالت والدّموع تنحدر على وجهها: «فقط أحبِبني بنيّ، فقط أحبِبني.»

لماذا ذلك التوسّل؟ لأنّها لا بدّ قد تساءلت في قلبها كيف بإمكانه أن يحبّها بينما لم تمنحه شيئًا. كيف يمكن أن يحبّها دون أيّ سببٍ لديه ليحبّها؟ لكن بالنسبة إليه هي قد أعطته هبة الحياة وتلك عطيّة كافية لتجعل الحبَّ التقديريّ يبحث عن طريقةٍ ليعبِّر عن نفسه.

أليس هذا هو السبب وراء بحث كاتي أيضًا؟ فرغم أنّ لقاءها بأمّها كان وجيزًا، وكانت تفصل أمَّها عن الموت ساعاتٍ قليلة، لكن بالنسبة لكاتي فإنّ مجرّد سماع أمّها تقول: «أنا أحبّك»، قد منحها شفاءً. كان بإمكان كاتي أن تجد الحبَّ في مكان آخر، لكن حتى لو فعلت فسيبقى ذلك التّوق يحفر في قلبها: ليتني استطعتُ إيجادها.

إنّه أكثر من بحثٍ عن الحبّ، إنّه بحث عن حبٍّ محدّد.

إنّه أكثر من «حبّ – حاجة»، إنّه الحاجةُ إلى حبٍّ محدّد يخضع تجاهه القلب، مولود من حبّ تقديريّ لأجل الوجود.

إنّ الموضوع المطلق والمصدر المطلق لذلك النّوع من الحبّ هو **الله** نفسه، صانعنا. وإنّ ذروة تجاوبنا أكثر من مجرّد حبٍّ، إنّها التجاوب بالتقدير، بالامتنان، بالتهيّب، بالتّسليم، بالجوع لنُكَمَّل بالرّوح، وهو ما ندعوه عبادة. وإلى أن نجد مَن هو وحده يستحقّ العبادة سيظلُّ القلب يبحث في عزلة.

تمامًا كما يسبح سمك السلمون بتصميم مقاومًا الموج والصخور عائدًا إلى حيث تمّ تفريخه، وبعودته إلى هناك يضع هو فراخه الخاصّة، هكذا أيضًا تنبعث الحياة ممّن عاد إلى مصدرِه – أي **الله** نفسه – في العبادة.

إنّ كلاً من المحادثة مع السامرية على البئر، والتفاعل مع المرأة ذات قارورة الطيب، انتهى بموضوع العبادة. فكلتا المرأتين أحبّتا وخسرتا،

coptic-books.blogspot.com

كلتاهما عرفتا خداع الحبِّ، كلتاهما اختبرتا حبَّ الحاجة وحبَّ العطاء، كلتاهما عرفتا محدوديّة المتعة، والآن جاءتا بحبٍّ تقديريٍّ ليس له مثيل، انحنتا أمام مخلّصِهما وحملتا رسالته إلى كلِّ مَن تعرفانه.

العودة إلى جذورنا

إنّ ما سبق لا يرجع بنا إلى سلوكنا بل إلى كياننا الذي منه نسترشد سلوكنا. إنّ أصحاب نظريّاتِ الذّات معذورون لأنّ دراستهم تبلغ بهم فقط إلى ما يمكن ملاحظته، وهم يتوقّفون حيث تجبرهم المسلّمات العالميّة أن يتوقّفوا، لكنّهم يَقصُرون بوضوحٍ عن نقطة البداية. فنحن لسنا مَن نحن لأنّنا نفعل ما نفعل، بل بالحري نحن نفعل ما نفعل لأنّنا نحن مَن نحن. ويذكر الكتاب المقدّس بأنّنا مصنوعون من قِبَل إلهٍ محبٍّ يدعونا لعبادته.

قرأتُ حديثًا قصّةً رائعةً جدًّا عن رحلة زوجين شابّين إلى رومانيا ليتبنّيا صبيًّا صغيرًا وُلِد بدون ذراعين. حين زاراه في الميتم لاحظا أنّ لا أحد ينظر باتّجاهه إذ اعتُبِرَت إعاقته نذير شؤمٍ ولعنةً حلّت بعائلة. لكنّ الزّوجين الشابّين استمرّا بالنظر إلى هذا الصّبي الصّغير، وكانا مصمِّمَين على إحضاره معهما إلى الولايات المتحدة وتربيته كابنٍ لهما إن سمحت أمُّه بذلك. عندما تكلّما إلى الأم نظرت إليهما وسألتهما لماذا يريدان هذا الطفل وقالت: «سمعتُ أنّه في أمريكا يستخدمون الأطفال لأجل الأبحاث الوراثيّة، ألهذا السبب تريدون أن تأخذوا ابني؟»

كان الأبوان المستقبليّان حكيمَين بقدرِ ما كانا غير أنانيّين، وبسبب العائق اللّغوي فعَلا ما لا بدّ أن يكون بإلهامٍ من الله. كانا قد أحضرا معهما كتابًا مقدّسًا باللّغة الرّومانية، فناولاها إيّاه مفتوحًا على المزمور ١٣٩، فأخذته المرأة بين يديها وبدأت تقرأ:

coptic-books.blogspot.com

«يَا رَبُّ، قَدِ اخْتَبَرْتَنِي وَعَرَفْتَنِي.

أَنْتَ عَرَفْتَ جُلُوسِي وَقِيَامِي.
فَهِمْتَ فِكْرِي مِنْ بَعِيدٍ.
مَسْلَكِي وَمَرْبَضِي ذَرَّيْتَ،
وَكُلَّ طُرُقِي عَرَفْتَ.
لأَنَّهُ لَيْسَ كَلِمَةٌ فِي لِسَانِي،
إِلاَّ وَأَنْتَ يَا رَبُّ عَرَفْتَهَا كُلَّهَا.
مِنْ خَلْفٍ وَمِنْ قُدَّامٍ حَاصَرْتَنِي،
وَجَعَلْتَ عَلَيَّ يَدَكَ.
عَجِيبَةٌ هذِهِ الْمَعْرِفَةُ،
فَوْقِي ارْتَفَعَتْ، لاَ أَسْتَطِيعُهَا...
لأَنَّكَ أَنْتَ اقْتَنَيْتَ كُلْيَتَيَّ.
نَسَجْتَنِي فِي بَطْنِ أُمِّي.
أَحْمَدُكَ مِنْ أَجْلِ أَنِّي قَدِ امْتَزْتُ عَجَبًا.
عَجِيبَةٌ هِيَ أَعْمَالُكَ، وَنَفْسِي تَعْرِفُ ذلِكَ يَقِينًا.
لَمْ تَخْتَفِ عَنْكَ عِظَامِي
حِينَمَا صُنِعْتُ فِي الْخَفَاءِ،
وَرُقِمْتُ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ.
رَأَتْ عَيْنَاكَ أَعْضَائِي،
وَفِي سِفْرِكَ كُلُّهَا كُتِبَتْ يَوْمَ تَصَوَّرَتْ،
إِذْ لَمْ يَكُنْ وَاحِدٌ مِنْهَا.
مَا أَكْرَمَ أَفْكَارَكَ يَا اللهُ عِنْدِي!
مَا أَكْثَرَ جُمْلَتَهَا!

coptic-books.blogspot.com

إِنْ أُحْصِهَا فَهِيَ أَكْثَرُ مِنَ الرَّمْلِ...
اخْتَبِرْنِي يَا اللهُ وَاعْرِفْ قَلْبِي.
امْتَحِنِّي وَاعْرِفْ أَفْكَارِي.
وَانْظُرْ إِنْ كَانَ فِيَّ طَرِيقٌ بَاطِلٌ، وَاهْدِنِي طَرِيقًا أَبَدِيًّا.»

(المزمور ١٣٩: ١-٦، ١٣-١٨، ٢٣-٢٤)

بكت الأمّ أثناء قراءتها للنصّ وضمّت الكتاب المقدّس إلى قلبها ثمّ قدّمت ابنها إلى أذرع مَن رأوا كيانه الممتدّ عوضًا عن غياب ذراعيه الممدودتَين.

إنّ كياننا يتوق لله فهو صاغ أجواعنا، وفيه فقط يُلَبَّى جوع وحدة النّفس، ليس في مجرّد الحبّ إنّما في العبادة.

عرفت هذه الأمّ أنّ ابنها سيكبر وسيريد أن يراها، وعرفت أيضًا أنه سيُرشَد ليس فقط إلى مصدر حياته بل إلى مصدر حياتها أيضًا، وكان تمسّكها بالكتاب المقدّس تعبيرًا عن حبٍّ تقديريٍّ لله نفسه.

العبادةُ أكثرُ من حبّ

عندما تُفهَم العبادة فهمًا كاملاً، تجلب على الأقلّ ثلاثة أمورٍ تواجه ألمَ الوحدة.

أوّل إدراكٍ للعبادة هو الإحساس الحقُّ بالغموض والتّعبير الملائم بالتهيّب، وهذا الإدراك الآسر للغموض من أعظم ما يحقّقه القلب البشريّ. تمعَّن في مساعينا في كلّ سبل المعرفة، لماذا تستمرّ آفاق العلم بالتوسّع؟ فقط بسبب الرّغبة في المعرفة، وما لا مفرّ منه أنّنا كلّما اكتشفنا المزيد كلّما وجدنا أنّ الطبقات المتبقّية أكثر عمقًا. تكشف حفريّاتنا أعجوبةً تلو الأخرى، ونحن لا نعلم ماذا يوجد تحتها جميعها. يمزح البعض ساخرين

coptic-books.blogspot.com

أنّ هذا كلّه DNA، ويمضي آخرون إلى النّهاية الاختزالية وللأسف يقولون أنَّ هذا كلّه كيمياء، ولا يزال البعض يشير إلى الحساء الأوليّ. لكن حتى أكثر المفكرين العلمانيّين ثقافةً يعترفون أنّ كتاب الأصول صامت فيما وراء جزءٍ محدّدٍ صغيرٍ من الزّمن.

عندما بُثَّت مؤخّرًا صورةٌ مأخوذةٌ عن قربٍ لسطح المرّيخ على شاشاتِ التّلفزة، أعطى العاملون على المشروع أسماءً للصخور التي رأوها والآلات التي صنعوها بأنفسهم، ووقفوا في تهيّبٍ لذلك الشيء لأنّه يبعد ١٢٠ مليون ميلاً. لكنّ ذاك الشيء لا يمكن أن يُشكَر.

كم باكرًا ماتت دهشتنا الأولى بالاكتشاف! أنسينا ماذا شعَر الفلكيّون الذين تجوّلوا على الجانب المظلم للقمر واختبروا لأوّل مرّةٍ «شروق الأرض» فوق أفق القمر؟ كان التّعبير الوحيد الذي رأوه مناسبًا «في البدءِ... الله».

نحن الآن نعزف الموسيقى تهليلاً بالآلات التي بنيناها، لذا لم يعد مدهشًا أنّنا تعلّمنا أن نعيش مع الوحدة لأنّ للغموضِ عندنا حياةً قصيرة الأمد. أمنَ الممكن أنّ الله الذي هو روحٌ نقيٌّ وضَع في داخلنا نوعًا محدّدًا من الغموض بحيث أنّنا فقط في مهابته نستطيع أن نجِدَ جِدَّةً أبديّة؟

نحن أشخاص محدودون، وعندما تفقد تلك المحدوديّة الامتنان وتكون في تهيّبٍ للّاشخصيّ، تفقد أغصان الوجود ارتباطها بجذور الكيان، ويُدرَس السلوك مفصولاً عن غموض الحياة نفسها، وتصبح متعة التّقدير بديلاً هزيلاً ومتلاشيًا للحبّ التقديريّ.

لقد حذّر الله الشعب القديم تكرارًا في النّاموس أنّ أسوأ ما قد يحصل لهم هو أن يصبحوا شعبا غير شاكر، ظانّين أنّهم بأيديهم زرعوا وحصدوا، وقال لهم في طفولة أمّتهم: «وَأَعْطَيْتُكُمْ أَرْضًا لَمْ تَتْعَبُوا عَلَيْهَا، وَمُدُنًا

coptic-books.blogspot.com

لَمْ تَبْنُوهَا وَتَسْكُنُونَ بِهَا، وَمِنْ كُرُومٍ وَزَيْتُونٍ لَمْ تَغْرِسُوهَا تَأْكُلُونَ» (يشوع ٢٤: ١٣).

وقد ذكّرهم الله تكرارًا: «أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ.» إن كان الله قد نبَّههم إلى حقيقة أنّ الأرض التي عاشوا فيها قد ورثوها دون استحقاق فيهم، وإن كان ذكَّرهم أنّ المحصول الذي تمتّعوا به هو من كروم لم يزرعوها، فكم بالأكثر يريدنا أن نتذكّر أنّ حياتنا نفسها هي عطيّة؟

هذا التّذكير لأنفسنا مرّةً بعد مرّة يشكّل قلب العبادة، ولا يمكن لأحدٍ أبدًا أن يعبد الله بالحقيقة دون هذا النّوع من الحبِّ التقديريّ. ومن العبادة النقيّة تكتسب كلُّ أنواع الحبِّ الأخرى تعريفها.

ثانيًا، لا يقودنا هذا النّوع من الحبِّ التقديريّ إلى عبادةٍ حيّةٍ مع تهيُّبٍ وتعجُّبٍ فقط، وإنّما يمضي أبعد من ذاته ويعطي لآخرين، فتأثير العبادة المضادّ للوحدة في حياة الإنسان لا يتوقّف مع ذات الإنسان بل لا بدّ أن يصل إلى الآخرين في حاجاتهم وصراعاتهم. فلولا الحبّ التقديريّ لله لا يمكن لأحدٍ أن يحبَّ عدوّه أو حتى يحبّ لأجل خاطرٍ آخر.

إنّ حبّ العطاء الحقيقيّ ينبعُ من الحبِّ التقديريّ ويُمنح بالأخصّ لمَن هم في أوجاع حبٍّ – حاجة.

بسبب حبِّنا لله نحن نتحمّل كلَّ شيءٍ، ومن الحبِّ الذي يُغنينا به ينبع منّا حبٌّ ليس مِلكَنا، بل يأتي من وديعةٍ جعلَها في قلوبنا ونحن نسحَبُ منها.

يا له من دورٍ مميّزٍ يستطيع المسيحيّ أن يلعبَه في عالمٍ مليءٍ بالكره والرّيبة، هذه هي الطريقة الوحيدة التي بها يُقَيَّد انتشار العزلة ويصبح قرب محبّةِ المسيحِ أكثر قربًا لكثيرين ممّن يعانون الوحدة.

إنّ كلَّ الكره الظاهر في عالمنا نتَجَ عن عالمٍ لا يعرف حبًّا تقديريًّا تجاه رئيس الحياة.

coptic-books.blogspot.com

أخيرًا، إنّ الحبّ التقديريّ أو العبادة ليس فقط ينبع من الامتنان لله وينشرُ حبَّ الله في عالمٍ عدائيٍّ، بل أيضًا يجمع الحياة العابدة إلى تركيزٍ وحيدٍ يؤثّر في كلّ نواحي الحياة. يشعر الكثير من الفنّانين والكُتّاب الموهوبين بألم الوحدة لأنّ عبقريّتهم ممزّقة، لقد فعل «سيف سليمان» فعله في أرواحهم مجزِّئًا إيّاها، إنّهم أولاً أشخاصٌ قبل أن يكونوا فنّانين، والحياة التي تبتغي الإشباع في مهارتها قبل أن تجد الإشباع في كيانها لا بدّ ستشعرُ عميقًا بألم التجزّؤ.

تمامًا كما لا يمكن تمزيق الولد جسديًّا ومع ذلك يستبقي كمالَه، كذلك لا يمكن أن نمزّق أنفسنا جوهريًا دون أن ينتج إحساس بالعزلة. العبادة تجلب التحامَ الكيان.

خاتمة

لقد كان توماس وولف Thomas Wolfe محقًّا، فمشكلة الوحدة عالميّة، وكاتب التّرانيم الذي وضع ترنيمة الميلاد المحبّبة «يا قرية بيت لحم الصغيرة» *O Little Town of Bethlehem* صوّر الفكرة حسنًا إذ قال: «التقت فيكِ الليلة آمالُ ومخاوفُ كلِّ السنين.» وإنّ د. هـ. لورانس D. H. Lawrence محقٌّ أيضًا، فالحبُّ ليس الجذور، إنّه مجرّد الأغصان. وعندما نرجع إلى مؤلّف الحبّ لنعرِّف مصدر جذوره وامتداد أغصانه، حينها يُفهَم الحبُّ بشكلٍ صحيح ويُرفَع إلى أعلى قمّةٍ، إنّما يَعبُدُ على مذبحٍ مختلف.

كلّ فردٍ هو تقدمة فريدة ومميّزة تُحضَر إلى الله بامتنان، ولنعدِّل قليلاً على قول القدّيس أوغسطينوس – قلوبُنا لا تهدأ حتى تجِد عبادتها في الله.

يمزج كاتبُ التّرنيمة الآتية هذه الحقائق بشكلٍ جميل مرتكزًا على المزمور الثاني والأربعين:

coptic-books.blogspot.com

كما يتوق الإيّلُ إلى المياه

هكذا تشتاقُ نفسي إليك يا الله

أنت وحدك رغبة قلبي

وأنا أتوق لعبادتِك

أنت وحدك قوّتي وترسي

إليك وحدك تنحني نفسي

أنت وحدك رغبة قلبي وأتوق لعبادتك.[١٠]

coptic-books.blogspot.com

الفصل السابع

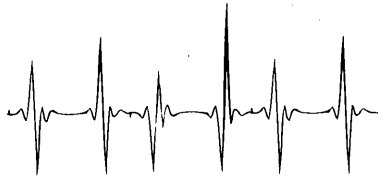

صرخةٌ اللّه لأجل شعبه

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

إنَّ للكلماتِ الافتتاحيّة في أيّ حديثٍ قيمةً استراتيجيّة، ويُطالَب تلاميذ فنِّ الخطابة أن يتعلّموا فنَّ كسب انتباه المستمعين. يُلجأ إلى حِيَلٍ وأساليب معيّنةٍ لأجل ذلك الغرض، ثمَّ بعد كسب الأسماع ونَقل كلِّ المقصود، تصبح كيفيّة اختتام الكلام ذات أهمّيةٍ عظمى. ففي الأفكار الختاميّة، يوضع جانبًا كلُّ ما هو سطحيٌّ وما قُصِد به جذب الانتباه، لصالح ما ينبغي أن يبقى وما هو لبّ الموضوع. يجب أن يُترَك المستمع في الختام مع التّضمينات النهائيّة والتعليمات الضروريّة المستنتَجة ممّا قيل.

إنّ هذه الأهمّية التي نوليها للكلمات الختاميّة لا تنحصر قيمتُها في الإطار العموميّ فقط، فنحن جميعًا نهتمُّ سواءً بشكلٍ مقصودٍ أم غير مقصود إلى ما نقوله في محادثاتنا الخاصّة، أو كلَّما ودَّعنا أحدَهم، نهتمّ جيّدًا بكيفيّة افتراقنا، حتى لو لبضعة ساعاتٍ، وبماذا نقول حين سيكون الغياب طويلاً. غالبًا ما يسبقنا أولادنا، مع تعبيرٍ مُداعبٍ على وجوههم، بقَول كلماتنا بينما هم يغادرون لأنّهم يعرفون ماذا سنقول: «نحن نحبّكم ... اهتمّوا بأنفسكم.»

في جنوب الولايات المتّحدة يقولو: «عودوا جميعًا، الآن.» في الإسبانية «أديوس» adios التي تعني «في رعاية الله». ونفس الأمر في الفرنسية «آديو» adieu، وفي الإنكليزيّة good-bye، وهي إدغام مُشتقّ من «ليكن الله معكم.» ففي كلّ مرّةٍ نودِّع أحدهم نحن نعهدُ به إلى أملٍ ورعايةٍ وتوقّعِ اللّقاء ثانيةً.

coptic-books.blogspot.com

ليس في كلمات الله الافتتاحيّة أو الختاميّة أيّة خدع ولا أساليب تحايل، بل فقط حقّ مُعرِّف للحياة، والأفضل أن نصغي بانتباه، لأنّنا إن لم نكن في رعايته وحفظه إذ يقول كلمات الوداع، لا أمل لنا في أن نرتحل بخير. وتتبادر للذّهن كلمات يسوع عندما بكى على مدينته المحبوبة: «هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ لاَ تَرَوْنَنِي مِنَ الآنَ حتى تَقُولُوا: مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ!» (متّى ٢٣: ٣٨ و٣٩). يا لها من «حتّى» هامّة جدًّا، وحسب التحذير لا بدَّ أنّ المستقبل سيكون قاتمًا.

يبدأ الكتاب المقدَّس بالكلمات «في البدء... الله.» لا توجد بداية منطقيّة أخرى للحياة سوى الله، ذلك هو المحور الذي تدور حوله الحياة، ذلك هو المصدر الذي تبدأ منه الحياة، ذلك هو المرجع الذي تنبثق منه كلّ التّعريفات.

ما يبرز مباشرة في قصّة التكوين هو قصد الله الأصليّ أن يمشي ويتحدّث مع خليقته، أن يتناجى معها، ثم انقطعت تلك الشركة باختيار آدم وحواء شروطهما الخاصّة للعلاقة.

عندما تنظر إلى لوحة مايكل أنجلو Michelangelo التي تصوّر الله محاولاً الوصول إلى آدم، ترى كم أنّ يد الله ممدودة وكيف أنّ كلّ عضلة في وجهه التَوَت من الألم، ويده ممدودة إلى أبعد ما يمكن ليتلامس مع آدم. في حين أنّ آدم يترك يدَه المرتخية تتدلّى بخمول في موقف يبدو وكأنّه يقول: «إن وصلَت، وصلَت»، وذلك يعكس جيّدًا الميول المتباينة للقلب.

مع مرور الأجيال طلب الله إنسانًا من الخليقة يفهم قلبه ويرغب بالتمسّك بيده، وكان إبراهيم ذلك الإنسان الذي رغب بترك كلّ شيء في بحث عن مدينة بانيها وصانعُها الله. وقد أسبغ عليه الله المديح الأعظم إذ دعاه «خليل الله». لكنّنا نلاحظ خطَّين حاسمَين رسمَهما إبراهيم لحياته،

coptic-books.blogspot.com

فقد عُرِف كرَجل الخيمة ورجل المذبح – وقتيَّة الحياة وقدسيَّة الحياة.

باختصار، كان المذبح هو النّقطة المركزيّة في كلِّ وجوده، وكلّ عيشه لم يكن شيئًا أكثر أو أقلّ من امتدادٍ لعبادته.

فعلت الأجيال اللاحقة نفس الأخطاء التي فعلتها الأجيال السابقة إذ أفسحت الخيمة والمذبح مكانًا للمسعى العالميّ، بابتغاء المؤقّت ومعانقة الدنيويّ، وكانت النتيجة النهائيّة مذبحًا ضائعًا للجماعة وعبوديّة مُرَّة في مصر. لكنّ الله سمع صراخهم وهيَّأ لهم طريقًا لينجوا من العبوديّة، وقادهم إلى أرضٍ خاصّة بهم، أرضٍ تفيض عسلاً ولبنًا. في تلك الرّحلة بعد افتدائهم وإعطائهم الناموس، كان أول ما أرشدهم الله لفعله هو بناء خيمة الاجتماع، مع اهتمامٍ خاصّ بالمذبح. هذه الخيمة المؤقّتة لم تكن بُنيةً ثابتةً، بل مكانًا للاجتماع يمكن أن يُفكّك ويُؤخَذ معهم حيثما ارتحلوا.

ثمّ بعد حوالى أربعة قرون من تحريرهم، إذ استهل ما يُسمّى العصر الذهبيّ لإسرائيل، واحد من أهمِّ تطوّراتهم أنذر بانهيارهم.

رغب داود في أن يبني هيكلاً. لقد كان داود مغنّي إسرائيل الحلو ورجلاً حسب قلب الله، وتشوّق لشيءٍ جليلٍ يحيط بعبادة الأمّة، وتخيّل بناءً أكثر ثباتًا من خيمة الاجتماع الهزيلة والمتنقّلة. القصّة مرويَّة في الأصحاح السابع من سفر صموئيل الثاني، استمع إلى جواب الله الجافّ نوعًا ما لداود:

> «أَأَنْتَ تَبْنِي لِي بَيْتًا لِسُكْنَايَ؟ لأَنِّي لَمْ أَسْكُنْ فِي بَيْتٍ مُنْذُ يَوْمَ أَصْعَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، بَلْ كُنْتُ أَسِيرُ فِي خَيْمَةٍ وَفِي مَسْكَنٍ. فِي كُلِّ مَا سِرْتُ مَعَ جَمِيعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، هَلْ تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ إِلَى أَحَدِ قُضَاةِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَمَرْتُهُمْ أَنْ يَرْعَوْا شَعْبِي إِسْرَائِيلَ قَائِلاً: لِمَاذَا لَمْ تَبْنُوا لِي بَيْتًا مِنَ الأَرْزِ؟»

coptic-books.blogspot.com

أصبح التّغيير الكبير الذي حصل في تاريخ إسرائيل حين أُقيم الهيكل نقطة تحوّلٍ في كامل موقف الشعب تجاه الله. فبدل أن يكونوا ملكًا لله بدا الآن وكأنّهم هم يملكونه، بدَلَ الارتحال مع الله، عليهم الآن أن يرتحلوا إليه. وإذ أصبح الله يسكن منزلاً لا يتحرك، أصبح للرّوحانية مكانًا محدّدًا وأصبحت الحياة مفصولة عن العبادة، وكانت النتيجة المأساويّة تمجيد الوسائل مع فقدانٍ كلّيٍّ للغايات.

أتذكّر في إحدى المناسبات دعيتُ للكلام في مركز استراتيجية الجغرافية السياسية في موسكو (Center for Geopolitical Strategy) الذي درسَ وعَلَّمَ فيه بعض أكبر الأسماء في روسيا في وقتٍ ما.

أخذني الجنرال المرافق لي بدايةً إلى قاعةٍ كبيرة مجهّزة بتباهٍ بألوانٍ ملكيَّة، معظمها مطعَّم بالذهب، ومزيّنةٍ بغنًى من الفن. ارتفعت أسقفها كأسقف كاتدرائيّةٍ، وعلى محيط جدرانها صورٌ لجنرالات روسيا العظماء، من بطرس الأوّل Peter the Great، إلى كوتوزوف Kutuzov المشهور خلال حروب نابليون Napoleon. ما من شكٍّ أنّ كامل البناء قُصِد به تمجيد أبطال روسيا وبالتالي تقزيم الشخص العاديّ عند دخوله.

وفكّرتُ في نفسي، يا للسّخرية، كيف أنّ أمّةً يُفترض أنّ صرختها الإيديولوجيّة هي لأجل أولويّة العامل، قد زخرفت مبانيها إلى درجةٍ يشعر فيها العامل بعدم الأهمّية. كم هي ماكرة ومتناقضة نواتج أفضل نوايانا. وبشكلٍ مشابه، كان هناك دافع صائب في تفصيل الهيكل، لكنّ ملحق برنامج العمل أخبرَ قصّة نوايا خربة – لقد فُقِدَ الله وضاع الشعب. كان كلّ ما يتعلّق بالهيكل فاخرًا، أنيقًا، مذهلاً، لكن فيه بدأ كلّ ما شوَّه العبادة، فيه ضاع كتاب النّاموس، فيه فسَدَ نظام الذبائح، فيه فقَدَ الكهنة نُبل دعوتهم، فيه فَقَد الشعب الله إذ فارق مجدُه المكان. استُبدلت الخيمة والمذبح بسلطةٍ كهنوتيّة مُحِبَّةٍ للنّفوذ حرَمَت في تنميقها الشعب من كهنوته الخاصّ.

coptic-books.blogspot.com

أراد الله أن تكون خيمته داخل كلِّ عابدٍ فردٍ قبل أن يجتمعوا للعبادة مع بعضهم البعض. لكنَّ الهيكل قد تولَّى الأمور ووقف في الطريق. وهذا كان كلَّ الدافع وراء عظة استفانوس في الأصحاح السابع من سفر أعمال الرّسل، ودفَعَ حياتَه ثمنًا لجرأته، قال: «الْعَلِيَّ لاَ يَسْكُنُ فِي هَيَاكِلَ مَصْنُوعَاتِ الأَيَادِي» (آية ٤٨). وكان ذلك مذكّرًا أساسيًّا أنّه ليس على الشعب أن يذهبوا إلى الهيكل للعبادة، وإنّما عليهم أن يأخذوا هياكلهم معهم، إذ يجب أن تكون أجسادهم هي هياكل لله.

بالتأكيد ليس المقصود ممّا سبق القول أنّ لا أهمّية لجمال وبنيان مكان العبادة، بل التنبيه بأنه حينما يُبنَى صرحٌ عظيم وتجتاحه الأيقونات الضّخمة، حرفيًّا أم مجازيًّا، هناك دائمًا خطورة بفقدان رؤية القيمة الأعظم لمَن يدخلونه ونسيان أنّ الأبراج تشير إلى الأعلى وليس إلى الأرض. كلُّ شيءٍ في مكان العبادة يتكلّم لغةً، البعض يتكلّم صامتًا، والبعض يتكلّم متدخّلاً، ولذلك كانت كلمات الله الأخيرة في العهد القديم، من خلال النّبي ملاخي، توسّلاً قلبيًّا للشعب أن ينظروا جيّدًا كيف فقدت العبادة قيمتَها. لقد خابَ تَوقُ الله لأجل شعبه وحلَّ التثقّل.

ممّا يثير الاهتمام فعلاً، أنّ الرسول يوحنّا ختم سفر الرؤيا، وهو آخر سفر في العهد الجديد، بموضوع العبادة أيضًا، وهو رأى ذروة العبادة الأصيلة وقال، مثلما ذُكِرَ سابقًا، أنّه لم يَرَ هيكلاً في المدينة الأبديّة، فالله ليس «مقيَّدًا بهيكل» فيما بعد.

معضلة عصرية

لقد أجَلنا النظر في عدّة مواضيع إلى الآن: الدّين، المتعة، الألم، الله، المشاعر، الوحدة، ووصلنا إلى فهم كيف يُجَاب نهائيًا عليها كلّها بذلك الالتزام الذي ندعوه العبادة، ولماذا تشكّلُ العبادةُ الجواب الكامل لصرخات القلب.

coptic-books.blogspot.com

في العبادة تتلاقى صرخاتنا مع صرخة قلب الله لأجل شعبه، لأنّ ذلك هو ما يبتغيه فينا (يوحنا ٤: ٢٣)، وبدون فهم هذا سيخيبُ أملُنا في الاختبار المسيحيّ. أشار الكاتب الشهير أ. و. توزَر إلى العبادة على أنّها جوهرةُ الكنيسة المفقودةُ. عندما كنتُ مع عائلتي في إنكلترا منذ بضع سنوات، ضربَت عاصفةٌ رهيبةٌ قسمًا كبيرًا من البلاد وسقطت آلافُ الأشجار تلك الليلة. وبعد بضع أيّام كنّا نمشي خارج قصر باكينغهام فلاحظَت زوجتي أمرًا لافتًا جدًّا، كانت الأشجار ضخمةً وطويلةً جدًّا لكنّ جذورَها سطحيّة بشكلٍ لا يُصَدَّق، حدَّقنا في ذلك التّفاوت وتابعنا سيرَنا.

وبعد ذلك حدَثَ أن زُرنا بعض الأصدقاء وعبَّرنا عن دهشتنا من الأشجار العملاقة ذات الجذور القصيرة، وكان ما سمعناه درسًا مذهلاً للحياة.

إنّ مستوى المياه تحت التّربة في إنكلترا قريب جدًّا من السطح بحيث أنّ الجذور لا تحتاج أن تنفَذَ عميقًا لتجدَ التّغذية، ونتيجة لذلك تبقى الجذورُ سطحيّةً. ومع أنّ الأشجار تبدو ضخمةً ومتينةً في الظاهر، إلاّ أنّ أول عاصفة شديدة تقتلعها دون مقاومةٍ تُذكَر.

يا له من درسٍ! إنّ امتلاك الجذور غيرُ كافٍ، بل لا بدّ أن تكون الجذور عميقة، وهذا هو الهدف الذي سنسعى إليه الآن: كيف نبني منظوماتٍ من الجذور قادرةً أن تنجو من العواصف التي تلتمس جَرَّنا إلى ما هو مؤقّت ودنيوي؟

قلنا سابقًا أنّ الحبّ ليس هو الجذور، بل فقط الأغصان، وقد أشرنا إلى أنّ الجذر هو العبادة. لكن إن كانت عبادتنا سطحيّة فإنّ مشغوليّة الحياة وتشتّت الفكرِ ستُسقطُ أقوانا مهما بدا متماسكًا ظاهريًا.

ما من موضوعٍ في الوقت الحاضر أكثر ضرورةً للكنيسة التي دعاها الله لنفسه من هذه الدّعوة للعبادة، إذ ربّما حتى نحن فقدنا الله هنا. فهناك

coptic-books.blogspot.com

الكثير من الفساد في العبادة في زمننا لدرجة أنّه لو أرادَ أحدُهم أن يكتبَ نظامًا لاهوتيًّا إنجيليًّا بناءً على ما نراه في العبادة، فسيبدو الله كحزمة غافلةٍ من التناقضات منطقُها الوحيد للوجود هو جلبُ نوعٍ من الحماسة البَدَنيّة لحياتنا.

ما لم تستعد العبادة نزاهتها في كلٍّ من حياتنا الشخصية ومن ثمّ في جماعة المؤمنين، لن تجدَ صرخاتُ القلب راحتَها أبدًا ولن تلتقي يدُ الله الممدودةُ مع يدنا.

صوتٌ منددٌ بالبرّية

أتى صوتُ ملاخي في نهاية ألفيّة تَلَت الخروج، وانقضَت بعدَه أربعمائة سنة إلى أن سمعت الأمّة مرّةً أخرى صوتًا نبويًّا. وهو وقتٌ طويلٌ جدًّا في تاريخ أمّة فتيّة، لا بدّ أنّ العيش طوال عشرين جيلاً دون صوت جديد ينبّه الشعب كان محبطًا جدًّا لمَن اشتاقوا أن يجري البرُّ كالمياه. لكن ما قُصد فعلاً بصوت ملاخي هو أن يتوقّفوا وينظروا للوراء أكثر ممّا أن ينظروا للأمام.

لقد تلاقى الله مع الشعب بشكلٍ متكرّر خلال تلك القرون، ليس فقط في حدثٍ تلو الآخر، وإنّما في تكرارٍ واضحٍ للفكر. منذ أيّام الآباء وطوال أيّام القضاة والملوك، كان صوت الله يدعو شعبه ليكونوا جماعةً عابدة.

لقد تمّت دعوتهم من تَعاقُبِ وجموعِ الوجودِ البشريّ ليثمّنوا المذبحَ ويفهموا ما معنى لقاء الله.

يمكننا أن نتذكر الاهتمام والدقّة اللذين بهما أعطى الله تفاصيل تصميم خيمة الاجتماع. لقد أُعطيت كلّ التفاصيل بما فيها نوعيّة وكميّة المواد، قياسات المكان، ألوان المواد، أسماء الحرفيّين، وأمكنة الخطوط الفاصلة بين الغرف، ولم تُعطَ التفصيلات فحسب، بل كُرِّرت. لماذا كلّ تلك

coptic-books.blogspot.com

الأهمّية؟ لماذا حتميّة القياسات؟ كلّ ما نستطيع استنتاجه هو أنّ الأمر عائدٌ إلى الغرض من ذلك الصّرح «حَيْثُ أَجْتَمِعُ بِكُمْ» (خروج ٢٩: ٤٢). من الواضح أنّ الله يهتمّ بدقّة في كيفيّة اجتماعنا به وأين نجتمع به.

تتكوّن كامل نبوّة ملاخي من خمس وخمسين آية. لقد لُخِّصت إرساليّة ذلك النبي بحفنةٍ من الكلمات، لكن عُوِّضَ الإيجازُ بفعاليّة ونهائيّة الرسالة. لم يوجَد في ذلك الوقت أيّ أمرٍ جسيم يهدّد المشهد التاريخيّ، ولذلك لم يبدُ الله كشخصٍ قد يحتاجون إليه، فالوضع الرّاهن لا يبدي أيّة مخاوف كبيرة.

يُقال عن سفر أستير أنّه السفر الوحيد في الكتاب المقدّس الذي لم يُذكر فيه الله، رغم كونه حاضرًا بشكل لا يمكن تفويته. ويمكن القول عن سفر ملاخي أنّ الله كان وافرَ الحضور ذِكرًا (ذُكِرَ الله في ثلاثٍ وخمسين من الخمس والخمسين آيةً)، لكن كان غائبًا بوضوح في حياة الشعب. لو تمسّك كلُّ مؤمنٍ بهذا السفر لربّما حدث تغييرٌ ثوريٌّ في تفكيرنا، لأنّ هذا السفر هو الكلمات الختاميّة لله في نهاية فترةٍ معيّنة، وفيها أُعطيَ الجواب لكلِّ صرخةٍ بشريّةٍ بالطريقة الأكثر إفحامًا، إذ هنا أُعطينا صرخة قلب الله، وما يلتمسه فينا هو العبادة الحقيقية: «السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا» (يوحنا ٤: ٢٣ و٢٤).

العنصر الأول

دعونا نتابع فكر الله بينما تبدأ الرسالة. «أحببتكم» قالَ الرب، وقلتم «بِمَ أحببتنا؟» يتكرّر هذا النّمط من الحوار في كلِّ السفر «أنا أقول أمرًا، وأنتم تقولون (كيف)؟» «أنا أضع وصايا محدّدة، وأنتم ترفضونها.»

إنّ طريقة التّفكير هنا صعبةُ الفهم، فقد قدّمَ الله توكيداتٍ يقينيّة على مدى ألف سنةٍ من التاريخ، ولا يزال الشعب يسأل إيضاحًا، تخيَّل

coptic-books.blogspot.com

جرأتهم ليسألوا «بمَ أحببتنا؟» لا أعرفُ طريقةً أفضل في وصف غرابة هذا من سرد قصّتَي نبيَّين وضَّحا محبّة الله بشكلٍ نابضٍ بالحياة، قبل أيّام ملاخي بزمنٍ طويل. خاطبَ أحدُهما المملكة الشماليّة لإسرائيل والآخرُ المملكة الجنوبيّة ليهوذا، وإنّ الطريقة التي عبَّر الله فيها عن محبّته من خلال هذين النبيَّين استفزازيّة نوعًا ما. وإن كنّا صريحين كلّيًا، فإنّ اللغة والمجازات مُربكة تمامًا بل وأحيانًا محرجة، لكن هناك سبب وجيه وراء ذلك.

النبيّ الأول هو هوشع الذي عاش في أواخر القرن الثامن قبل المسيح، وقد اجتاز إحدى أكثر تجارب الحياة إيلامًا. لقد أمره الله أن يحبَّ امرأةً تدعى جومر التي هجرَته في النهاية، ثم أضافت إلى خيانتها خزيًا ببيع نفسها للبغاء. نتَجَ عن هذا الزواجِ ثلاثةُ أطفالٍ، الأولُ صبيٌّ أطلقَ عليه هوشع اسمَ جزريل الذي يعني «دينونة»، والذاكرة التي يستدعيها استخدامُ ذلك الاسم إلى الذّهن العبرانيّ هي عن يوم الحساب، ويا له من يومٍ مروِّع.

زرتُ مع ابني منذ بعض الوقت بناءَ البرلمان في لندن، وفي إحدى القاعات الكبيرة حيث يُستضاف النّخبة من الأجانب، عُلِّقت لوحتان فنّيتان رائعتان. وقد أُخبِرنا أنّه عندما استُضيفَ الرئيس الفرنسي شارل ديغول Charles de Gaulle إلى مأدبةٍ هناك، اعترضَ على جلوسه مواجهًا لإحدى هاتين اللوحتين والتي تصوّر معركة واترلو Waterloo، وطلب أن يغيّر مكانَه بحيث يكون ظهره إلى تلك اللوحة، فأذعن البريطانيّ لطلبه. لكن ولألمه الأعمق وجد نفسَه ينظر إلى اللوحة المعلّقة على الجدار المقابل، والتي كانت عن هزيمة فرنسيّة أخرى – معركة ترافالغار Trafalgar.

لن يزيِّنَ أيُّ فرنسيٍّ بيته بتذكاراتٍ فنّيةٍ عن تلك اللحظات المخزية، ناهيك عن تسمية ابنه «واترلو» أو «ترافالغار».

coptic-books.blogspot.com

هناك أمثال واترلو وترافالغار في تاريخ كلِّ أمّةٍ، وتصبحُ الأسماءُ والأماكن المرتبطة بها تذكاراتٍ غير سارّة. لكن في بيت هوشع دُعي المولود الأوّل «جزريل» كتحذيرٍ بأنّ شبح الدينونة يتهدّدهم، ففي جزريل لاقت إيزابلُ نهايتَها المحزنة والرهيبة.

كان الطفل الثاني لهوشع بنتًا أسماها «لورحامة» والتي معناها «لا رحمة بعد». لقد عاش الشعب بعيدًا عن وفرة نعمة الله التي ازدروها لوقتٍ طويلٍ جدًّا، وهكذا كان الله يقول لهم: «لقد نفَذَ الوقت»، لم تَعُد تبقَ رحمةً لأجلهم.

حتّى الحبّ لا يستطيع أن يتجاوز هذا المدى دون أن يجعل نفسَه عاهرًا في السياق.

كان الطفل الثالث لهوشع صبيًّا وقال الله أن يُسَمَّى «لوعمّي» والذي معناه «ليس شعبي»، وبتعبير أشدّ كان الله يقول: «أنا أتبرَّأ منكم.»

تخيَّل المزاج في ذلك البيت مع ثلاثة أطفالٍ فحوى أسمائهم: دينونة، لا رحمة بعد، ليس شعبي. في كلّ مرّة يُدعى أحدهم كان هناك تذكيرٌ قاسٍ بزنى الأرض. «دينونة، تعال إلى العشاء»، «لا رحمة بعد، نظّفي غرفتك»، «ليس شعبي، أكمل وظيفتك.»

لكن دعونا لا نغفل الشخص الذي حمل الوطأة العظمى لهذه الخيانة، فلا بدّ أنّ الألم الأسوأ في ذلك البيت كان الألم داخل قلب هوشع، فبالنسبة له لم تكن الرسالة مجرّد عظة تؤدّب الشعب وتدعوهم للعودة إلى الله، فهو الآن يعرف أفضل من أيّ أحدٍ آخر ماذا شعَرَ الله، إذ كان حبُّه خائبًا أيضًا. لقد تركَته زوجتُه واختارت أن تعيش في فظاعة عالم بيع النّفس للغرباء لأجل المال. لقد كان هوشع بالتأكيد يحدّق في أولاده الذين غابت أمّهم وبلسموا قلبَه المكسور من حبٍّ بلا مقابل، وأفسَحَ الصّراعُ طريقًا لسؤالٍ حتميّ «إلى متى أبقى على حبّها؟»

coptic-books.blogspot.com

لقد كانت مسألة وقتٍ فقط قبل أن يخرجَ السؤال من بيت النبيّ إلى شوارع المدينة التي وعظ فيها. فقد كان النبيّ الذي يعظ عن النّجاسة متزوجًا من عاهرة، وتساءل الناس وتجادلوا: «كيف يمكن لرجل الله القدّيس أن يرتبط بامرأة زانية؟» لا نستطيع إلّا أن نتخيّل التّعيير الذي تلقّاه هوشع ممّن كانت كلّ القصّة بالنسبة لهم تفكّهًا هازئًا.

تصوَّر هذا المشهد للحظة، مجموعةٌ من العابدين تمشي إلى مكان الاجتماع ويصدف أن يمرّوا بجوار بيت الدّعارة حيث يتسكّع الفاشل والضّال، ويصيحُ أحدهم باستهزاء إلى الحشد المتّجه لسماع رسالة هوشع: «عندما ترونه أخبروه أنّ بعضنا قد اشترى خدمات زوجته وسُرَّ بها ونحن نقف في الصفّ لأجل المزيد.» قد يتجرّأ أحدُهم لانزعاجه الشديد من هذا الواقع الكريه أن يفتح الموضوع مع هوشع ويقول: «رجاءً، أخبرنا كيف يمكن لرجلٍ قدّيسٍ مثلك أن يكون متزوجًا من امرأة زانية كتلك؟»

فيصمتُ هوشع لعدّة لحظات ثمّ يقول: «كنت أنتظر سؤالك، ويسرّني أن أخبرك كم من السهل محبّة امرأة كتلك إن شرحتَ لي أولاً كيف يمكن لإلهٍ قدّوسٍ أن يحبّ أمّةً زانيةً مثلنا.»

إن كان صمتُ هوشع قبل جوابه استمرَّ بضع لحظاتٍ، فلا بدّ أنّ صمتَ السائل بدا كالأبد. كيف يمكنُ لشعبٍ أن يفوته ذلك النوع من الحبّ الذي أحبَّ من لا يُحَبّ، نوعٌ من الحبّ أحبَّ غيرَ المستحِقّ، بل في الحقيقة المُقرِف؟

تمامًا منذ البداية ذكَّرهم الله أنّ محبّتَه لهم لم تكن مرتكزةً على حجم الأمّة أو قوّتها أو ميزةٍ خاصّة فيها، بل كانت بالكامل محبّةً غير مستحَقّة، مسكوبةً بدون قياسٍ على شعب بدّدها.

كان بإمكان الله أن يعطي ذلك الامتياز لليونان، لكنّه لم يفعل. كان بإمكانه أن يقدّمه لروما، لكنّه لم يفعل. كان بإمكانه أن يمنحه

coptic-books.blogspot.com

لبابل، لكنّه لم يفعل. لقد نظَرَ إلى هذا الشعب الضّئيل الذي سخِرَت به اليونان وتجبّرت عليه روما، واستعبدَته بابل، وله قال الرّب: «وحدك أحببتُ من بينِ كلِّ شعوبِ الأرض.» لقد أفاض الله عليهم إحسانَه رغم عدم استحقاقهم.

سُئِل بيلي غراهام Billy Graham مرّةً لماذا اختاره الله ليكون مبشِّرًا للعالم، فأجاب: «عندما أصِلُ إلى السماء سيكون ذلك هو سؤالي الأول.»

نحن جميعًا لا نستحقّ محبّته، ومع ذلك يحبّنا.

منذ عدّة سنوات، كان هناك مقالة في *The Christian Century* عن شابٍّ مدمنٍ للمخدّرات في هارلم Harlem، كُتِبَت من قِبَل عامل اجتماعيّ، قال:

> «إنّه وسخٌ، جاهلٌ، مغرورٌ، كذوبٌ، غيرُ صالحٍ للاستخدام، محطَّمٌ، غيرُ موثوقٍ به، بشعٌ، مرفوضٌ، وحيدٌ. وهو يعرف ذلك ويعرف أنّه ليس لديه ما يزكّي به نفسه أمام إنسانٍ آخر، ليس لديه ما يقدّمه، ليس فيه ما يسمح بمحبّة شخصٍ آخر له. إنّه لا يُحَبّ، ولكن تمامًا كما أنّه، وحسب اعترافه، لا يستحقّ حبَّ آخر، فهو يمثّلنا جميعًا إذ لا أحدَ فينا مختلف عنه في هذا الخصوص، فنحن لا نُحَبّ. لكن أكثر من ذلك، إنّ أداءَ حياة هذا الصبيّ يشيرُ إلى الإنجيل، إلى الله الذي يحبّنا رغم كرهِنا له، يحبّنا رغم أنّنا لا نُرضي محبّته، يحبّنا رغم أننا لا نُسرّه، يحبّنا مجانًا، يحبّنا رغم أنّه ليس لدينا ما نقدّمه له. ينطوي في الوجود الذّميم لهذا الصبيِّ السرُّ الفاضحُ الموجودُ في كلمة الله.»[1]

هناك نوعٌ من الخزي في حبٍّ مماثل، أليس كذلك؟ حبٌّ يحبُّ الفاسقَ المستهترَ، حبٌّ يرغبُ في أن يُحِبّ رغم ازدرائه.

coptic-books.blogspot.com

النقطةُ التي تستحقُّ التذكّر في هوشع هي التالية: مُثِّل حبُّ **الله** المرفوضُ والمُساءُ إليه بشكلٍ سافرٍ بالنّظير البغيض في امرأةٍ هجرَت زوجها لتتمرّغ وتعربد في حياة البغاء، ومع ذلك بقيت محبوبةً من قِبَله. ذلك هو لبُّ رسالةِ هوشع في أواخر القرن السابع قبل المسيح إلى المملكة الشماليّة بشكل رئيسيّ.

دعونا الآن ننتقل إلى ما بعد مئتي سنة ونرى ماذا كان لدى **الله** ليقوله حينها. ومرّةً ثانية سنسأل في النهاية، لماذا هذه التشبيهات القاسية. في عشيّة سقوط مملكة يهوذا الجنوبيّة أعطى **الله** من خلال نبيّه حزقيال وصفًا أكثر حدّةً من السابق. فقد قدّمَ في الأصحاح السادس عشر من سفر حزقيال المثَلَ التالي:

ذاتَ يومٍ رأى رجلٌ عابرٌ وليدةً مرميّةً بجانب الطريق، سمعَ صرختَها فالتقطها وأخذها إلى المياه المجاورة حيث نظّفها من وسخِها ثمّ لفّها بقماشٍ ناعمٍ وتركها في رعايةٍ رؤوفة. وبعد مرور سنواتٍ عديدة عبَرَ الرجلُ في تلك الأرض ثانيةً، ورأى شابّة جذّابة رائعة فعرض عليها الزّواج به فتعهّدت له ولحبِّه، وتزوّجا ومرّت السنون.

وقال **الله** للشعب: «أنا الذي مرَّ ورآكِ في فقرِك المدقع، أنا أنقذتُك، واتّخذتُك كعروسٍ لي وأحببتُك. والآن بعد سنواتٍ من زواجي بكِ تخلّيتِ عن حبّي.»

ثمّ يقول التالي: «لِكُلِّ الزَّوَانِي يُعْطُونَ هَدِيَّةً، أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ أَعْطَيْتِ كُلَّ مُحِبِّيكِ هَدَايَاكِ، وَرَشَيْتَهُمْ لِيَأْتُوكِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلزِّنَا بِكِ. وَصَارَ فِيكِ عَكْسُ عَادَةِ النِّسَاءِ فِي زِنَاكِ، إِذْ لَمْ يُزْنَ وَرَاءَكِ، بَلْ أَنْتِ تُعْطِينَ أُجْرَةً وَلاَ أُجْرَةَ تُعْطَى لَكِ.»

في الواقع، إنّ **الله** يقول أنّ إسرائيل أسوأ ممّن بِعنَ أنفسهنّ لأجلِ المال. فعلى الأقلّ تدافعُ العاهرةُ عن نفسِها بأنّها يُدفَع لها من قِبَل

coptic-books.blogspot.com

محبّيها ليكونوا معها. «أنتِ أسوأ» قال الرّب «فأنتِ دفعتِ لمحبّيكِ ليكونوا معكِ.»

ما من صورةٍ عن الفساد أكثر تعبيرًا من هذه. ففي مرحلةٍ ما كان البغاء هو النقطة الأدنى، ثمّ وجدَت قلوبهم ما هو أدنى إذ لم يَعُد الإغواء لهدف الرّبح اللّحظي الذي يمكن أن يبرّروا به ذواتَهم، وإنّما انغماس بهيميّ مَحض، خطأٌ لأجل خاطر الخطأ، حياةٌ وقحةٌ مستهترة غير شرعيّة. أيمكن للمرء أن يتردَّى أدنى من ذلك؟ نعم ولدهشتنا البالغة، كان هناك مرحلة أخرى بعد، من هوشع إلى حزقيال نَصِل إلى ملاخي.

بعد انقضاء مئتي سنة أخرى، قال **الله** لهم: «أحببتكم.» فأجابوا بالقول: «بِمَ أحببتنا؟»

أتراهم نسوا ماذا قال هوشع؟ أتراهم نسوا ماذا قال حزقيال؟

من بين كلّ القوى في العالم، الحبّ هو الأكثر فعاليّة والأكثر حساسيّة، وعندما ينفقُ الحبُّ ذاتَه ولا يتمُّ تمييزُه، ماذا يبقى ليُفعَل أو يُقَال سوى تحمُّل الحسرة والرّفض؟ لقد تردّى الشعب جدًّا إلى درجة أنّهم فقدوا المقدرة على تمييز الحبّ حتى وهم في غمرةِ الإساءة إليه.

تحضرُ للذّاكرة كلماتُ النبيّ إشعياء الذي من خلاله كلّم **الله** شعبه: «مَاذَا يُصْنَعُ أَيْضًا لِكَرْمِي وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْهُ لَهُ؟» وإن كان **الله** قال هذا قبل قرونٍ من الصليب، لا يمكننا إلا أن نتساءل ماذا عساه يسألُ العالمَ المعاصرَ الذي رفضَه حتى بعد الصليب. ماذا يمكن القول لقلبٍ لا يميّز الحبّ في تضحيته الأسمى؟

منذ بضع سنواتٍ كنتُ أزور أحدَ بيوت الأمّ تريزا Mother Teresa والتي تدعى نيرمل هرايداي Nirmal Hriday في كالكوتا Calcutta – الهند India، وتعني حرفيًّا «القلب الطاهر» Pure Heart. وعلى اللوحة خارج الباب تعليمات لسائقي سيارات الإسعاف أن يُحضِروا فقط المعدَمين،

coptic-books.blogspot.com

أولئك الذين رُفِضوا من قِبَل المشافي لأنّهم أقرب إلى الموت من أن يستطيعوا مساعدتهم. وفيما تجوّلتُ في ذلك البيت رأيت رجلاً كان على الأرجح شابًّا لكنّه بدا وكأنّه يموت من كبر العمر، مهزولاً ويحملُ على وجهه تعبيرًا متعَبًا كلّيًا. وكانت امرأة أوروبية تسنده بذراعها وتطعمه بقطّارة، فالتفتُّ إلى زوجتي وقلتُ: «ربّما هذه أول مرّة منذ طفولته يمسكُه أحدُهم بهذا القرب»، وإذ كان يتفرّس في الممرّضة نمَّت عيناه عن امتنانٍ غير محدود.

أليس أمرًا يدعو للتأمّل أنّ الحبّ عبرَ الثقافاتِ، والمعتقداتِ، والعرقيّات، واللّغات يحملُ وجهًا مميّزًا جدًّا بحيث نجزم بجماله؟

مع ذلك، لقد أمضى **الله** ألفَ سنةٍ يوضّح حبَّه لشعبه، ونجدهم قد صرخوا بقلوبٍ مُقسَّاة وبصوتٍ واحد تقريبًا: «بمَ أحببتنا؟»

لا بدّ أن أعترف أنّي في بداية دراستي للعهد القديم، لطالما تساءلت لماذا الحاجة إلى هكذا تشابيه قاسية ومع ذلك عطوفة، شديدة وإن تكن مؤثّرة، لتبيان ما جرى بين **الله** وشعبه. لماذا هكذا تصويرات دراميّة كالتي في هوشع وحزقيال؟ ما المغزى منها كلّها؟ أليس هناك طريقة أكثر تنميقًا وأناقةً وأقلّ ميلودراميّة لقول الأمر نفسه؟ هل أراد **الله** أن يلجأ إلى المبالَغِ فيه ويثير الصّدمة لدى القارئ؟

توالى هذا التّعبير الخام عن الحبّ حتى الصليب، وقد كانت صحوةً بالغةَ التأثير في داخلي حين تنبّهت إلى أنّ **الله** يريدنا أن نفهم ليس فقط الحقيقة العقائديّة لمحبّته، بل أيضًا الشدّة العاطفيّة لمحبّته. فالمحبّة ليست فقط كلمةً تصفُ تعهّدًا، على قدر ما أنّ هذا حيويّ، بل هي أيضًا مفهومٌ يولّدُ مشاعرًا.

لقد تناظر اللاهوتيّون والمفكّرون، بكتاباتٍ كثيرة، وتناقشوا في طبيعة مشاعر **الله** وهل لديه مشاعر أم لا، وجميعُنا مديونون لكلّ الجهد

coptic-books.blogspot.com

والفكر الذي صُرِف على هذا الموضوع، وللمدى الذي وصلوا إليه في معالجته. لكن بعد كلّ ما قُرِئَ وكلّ ما دُرِسَ أجد أنّه أيًّا تكن البراعة التي تلجأ إليها بعض مدارس الفكر للتملّص من إمكانية الله على الشعور، من غير المعقول أن يكون الله قد اختار اللغة المجازيّة التي اختارها لولا قلبه الذي ينبض بالقول «أحببتكم.»

هناك ما قد يساعدنا هنا، فنحن نعلم أنّ الحيوانات تشعر بالألم، بل وحتى بالسعادة، لكننا ندرك أيضًا أنّه لا يمكننا أن ننسبَ إليها نفسَ الإمكانيّة على فهم الألم أو السعادة كما يفعل البشر في الحالات نفسها. وفي الواقع نحن نعرفُ ضمنَ عالمِ الحيوان مستوياتٍ مختلفةً من التّعبير عن المشاعر.

تكلّم سي. أس. لويس C. S. Lewis عن الطريقة التي بها «نعبّر عن الألم». فمثلاً بالنسبة للبشر، إنّ الألم مرتبطٌ حتميًّا بسياقٍ أخلاقيٍّ وبأسئلةٍ عن الهدف، العدالة، والسببيّة. نحن نحاول أن نتعامل معه بتعابير الخير والشرّ، وحيث أنّنا نعيش ضمنَ سياقٍ أخلاقيٍّ، لذلك هناك تفوُّق في منطقنا الأخلاقيّ عندما يُقارن مع عالم الحيوان، فلماذا لا نفكّر أنّه من الممكن لله أن يشعر بطريقةٍ أسمى، ضمن لانهائيّته، لكن مع ذلك يشعر؟ قد يعبّر عن الفرح والألم بشكلٍ مختلف، بطريقةٍ تسمو على إمكانيّتنا، دون الانتقاص من نفسه أو من واقع فهمنا.

ذكّرنا توما الأكويني Thomas Aquinas بالاستخدام التّشبيهي للغة. يستطيع الله أن يستخدم نفس الكلمة ليصفَ مشاعره بطريقةٍ هادفة، وفي الوقت نفسه يتجاوز سياقنا. فمثلاً عندما أقول إنّي أحبُّ أحدَهم وهو يرفضُ أن يحبّني، أنا أتألّم، أتألّم لأنّني خسرتُ أمرًا ما. وعندما يقول الله أنّه يحبّنا ونحن نرفض أن نحبّه، هو يتألّم أيضًا، لكنه يتألّم لأنّنا نحن خسرنا أمرًا ما وليس هو. فالكلمة هي نفسها لكن للسّياق انعكاسٌ على طريقة استخدام الكلمة.

coptic-books.blogspot.com

هذه كانت المأساة المضاعفة لإسرائيل. قال الله لهم «أحبّكم»، وفي فشلهم أن يميّزوا ذلك الحبّ أخفقوا أيضًا في رؤية ماذا خسروا، فهُم في سياق رفضهم لحبّ الله لم يجعلوا الله أقلّ ممّا هو، بل جعلوا أنفسَهم أقلّ ممّا قُصِد لهم أن يكونوا.

في حبِّ الله المعبَّر عنه بوضوح، إذ يستخدم تعابيرَ مشحونةً عاطفيًّا، نفهمُ المقوِّم الأول للعبادة الهادفة: لا يستطيع الإنسان أن يعبدَ دون محبّة. هذا يعني أنّ المشاعر جزءٌ أصيلٌ من العبادة، ولكن مع التأكيد قطعيًّا على أنّ المشاعر والانفعاليّة أمران مختلفان. فعندما تسطو المشاعرُ على الفكر تتحوّل إلى عنصرٍ مدمِّر، أمّا عندما تُضبَط وتوجَّه بالحقّ فتشكِّلُ تعبيرًا شرعيًّا، إذًا المحبّةَ جزءٌ أساسيٌّ من العبادة.

أين الإكرام؟

يتابع الله كلامَه من خلال ملاخي ليوجّه تهمةً ثانية: «الابْنُ يُكْرِمُ أَبَاهُ، وَالْعَبْدُ يُكْرِمُ سَيِّدَهُ. فَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَبًا، فَأَيْنَ كَرَامَتِي؟ وَإِنْ كُنْتُ سَيِّدًا، فَأَيْنَ هَيْبَتِي؟ قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ ...وَتَقُولُونَ: بِمَ احْتَقَرْنَا اسْمَكَ؟» (ملاخي ١: ٦).

كان هذا احتجاجُ الله لديهم، لقد حاول بكلِّ جهدٍ أن يقتربَ إليهم ومع اقترابه منهم لم يفقدوا فقط رؤية محبّته، بل أيضًا فقدوا موقف المهابة الكلّي الأهمّية. يا له من خطأ فادحٍ مُكلفٍ أن يكون ربُّ المجد قريبًا منّا وننسى مَن هو. كان هذا قصرَ نظرٍ من النّوع الأسوأ.

في اللغة الهندية، الكلمة التي تعني أب هي Pita، والكلمة التي تعني أمّ هي Mata. لكن لا يمكن أن تدعو أباك Pita وأمّك Mata مع أنّهما الكلمتان الصّحيحتان، وإنّما لا بدّ أن تضيف اللاحقة Jee، فتدعو أباك Pita jee وأمَّك Mata jee. وأقرب شبيهٍ لهذا في العالم الغربيّ هو في جنوب الولايات المتّحدة حيث يجيبُ الأولاد أباهم «نعم سيّدي» Yes, Sir، وأمَّهم «نعم سيّدتي» Yes, Ma'am، وأيضًا يدعونهما «بابا» Daddy و«ماما»

coptic-books.blogspot.com

Mommy بتعبيراتهم التحبّبية. وهكذا يكون ما هو عزيزٌ على القلب مكرّمًا أيضًا مُبقين على مسافة، وما يريدُ الله فعلاً قولَه لشعبه هو «أنتم تدعوني بابا Daddy، أين «يا سيّد» Sir؟»

عندما كنتُ صبيًا صغيرًا في وقتٍ ما في الخمسينيّات، قام الرياضيّ الأمريكيّ المشهور جيسّي أُوينز Jesse Owens بزيارةٍ إلى الهند. كنت مفتونًا بكوني في الصفّ الأول أراقب كلَّ حركةٍ قام بها فيما تكلّم عن انتصاراته في أولمپياد ١٩٣٦ في برلين Berlin حيث ركضَ أمامَ تحديق هتلر Hitler ورهبته، وفازَ بأربع ميدالياتٍ ذهبيّة. ويستطيع المرء أن يتخيّل مقدارَ الإثارة لدى شابٍّ صغير بكونه قريبًا جدًّا من «بطل». لقد وصفَ كلَّ حدَثٍ تسابقَ فيه وتكلّمَ عن مجهوده، وأيضًا عن الفوز في الكلّ.

وبعد انتهاء كلمته إذ أحاطت به الجموع لأجل الحصول على إمضائه، تدبَّرتُ أن أدنو إلى جانبه تمامًا وملتُ نحوَه بحيثُ طوال الوقت يكون جزءٌ منّي بتماس مع جزءٍ منه. وربّما شعرَ بي ملتصقًا به فالتفتَ وانحنى ومدَّ يدَه وصافحني، واختفت يدي في يده الكبيرة. سألني عن اسمي وأنا كنت متوتّرًا جدًّا لدرجة أنّني لست واثقًا إن كنتُ أجبتُ بشكلٍ صحيح، لكنّ تلك المصافحة تركتني أحدِّق بيدي مرارًا وتكرارًا، فهذه هي اليد التي صافحها جيسّي أُوينز. ولسنوات طويلة تمنّى كلُّ أصدقائي لو أنّ أحدَنا أنا أو جيسّي لم يولد قطّ، لأنّه أيًّا تكن المحادثة، لا بدّ لي بطريقةٍ ما أن أجدَ سببًا لأقول: «عندما كنتُ مع جيسّي أُوينز...»

لو فرضنا أنّني بمجرّد أن صافحني جيسّي أُوينز فقدتُ التّمييز بين عظمته في الرّياضة وعجزي في المقابل، ألن يكون ذلك ذروةً في الحماقة؟ وهل في اقترابه منّي سبب كافٍ لي لأربِّتَ على ظهره وأقول: «حسنًا جيسي، هوذا أنت وأنا، واحد مقابل واحد فلنذهب إلى المضمار؟»

coptic-books.blogspot.com

إنّه لا يزال بطل العالم، وأنا مجرّد معجب، واقترابُه منّي لم يُزِل الفرق. هو ليس «جيسي» بالنسبة لي لمجرّد أنّه صافحني، بل ما زال «السيّد جيسي أوينس».

هذه هي النّقطة التي طرحها الله في سؤاله، «لماذا لا تهابونني؟» «هل نسيتُم مَن أنا؟»

يشكّلُ هذا التّفاعل بين الله وشعبه مذكِّرًا قويًّا بالمقوِّم الثاني للعبادة: نحن لا نستطيع أن نعبد الله بدون مهابة.

عندما كان رئيس الكهنة يدخل إلى قدس الأقداس، وذلك مرّة واحدة في السنة، كان عليه أن يدخل ووجهه إلى الباب، إذ لا يمكنه أن يواجه الله. وعندما مدَّ عُزّة يده، بنيَّةٍ حسنة، ليثبِّتَ تابوت العهد، أعطى الله الشعب درسًا دراماتيكيًّا بألاّ يتمّ التعامل معه كأمرٍ عاديّ، إذ كان تابوت العهد يمثّل حضوره.

إنّ مفهوم الإكرام والمهابة هذا مفهومٌ صعبٌ للغاية، خاصة في أمريكا الشماليّة حيث أزيلت الفروقات الإجتماعية. إنّ تحطيم الحواجز الإجتماعيّة أمرٌ جيّدٌ، لكن هناك بعضُ الحدود التي لا ينبغي أبدًا أن تُمحى إلى درجة أن يضيعَ الاحترام الواجب، كما بين الأب والابن، المعلّم والتلميذ، الشاب والمتقدِّم في العمر. فعندما تضيع هذه الحدود يضيعُ شيءٌ من منحى الحياة بالنسبة لنا جميعًا، لكن الفرق الأعظم، بالطبع، هو الفرق بين الله وبيننا نحن خليقتُه. وعندما يضيعُ هذا التفريق مع ما يُمليه من مهابة، تموتُ أعظمُ علاقةٍ بين كلِّ العلاقات.

من الملفت للانتباه أنّه بموت الاحترام في ثقافتنا تغيَّرت اللّغة أيضًا، فلم يعُد هناك مستويات لمخاطبة مَن هم أكبر سنًا أو مَن نعمل أو نخدم تحت إمرتِهم. وهذه التغيّرات لها أسبابها الهامّة، لكن في المحصّلة

coptic-books.blogspot.com

فقدت الـ «أنت» عندما نتكلّم مع الله، والـ «أنت» عندما نتكلّم مع أصحابنا البشر فروقاتها الضّرورية.

نقرأ في الأصحاح العاشر من سفر الأعمال كيف سَجد كرنيليوس عند أقدام بطرس وأقامه هذا الأخير قائلاً: «قُمْ، أَنَا أَيْضًا إِنْسَانٌ» (آية ٢٦). المضمون واضح، فأن تسجدَ على ركبتيك أمام الله هو تعبُّدٌ شرعيٌّ ويأتي طبيعيًّا حتى بالنسبة لشخصٍ كان وثنيًّا حسب مصطلحات تلك الأيام. يستحقّ الله ليس فقط التسبيح، الأمر الذي نسمع عنه الكثير، إنّما يستحقّ أيضًا الإكرام، الذي قليلاً جدًّا ما نسمع عنه. نقرأ في المزمور ١١١: ٩، «قُدُّوسٌ وَمَهُوبٌ اسْمُهُ.» في الترجمات الحديثة استبدلوا كلمة «مهوب» بكلمة «رائع» التي يمكن أن تُستخدَم في وصف أيِّ شيءٍ، من لاعبيّ كرة السلة وحتى الكمپيوترات. ومع هكذا انحرافٍ في المعنى، فإنّ كلمة «المهابة» هي التي يستحسن استخدامها مع الله.

إذ يصلُ كاتبُ الرسالة إلى العبرانيّين إلى الخاتمة القويّة الصّياغة مناديًا يسوع: رئيس كهنة عظيم، الإعلان الأسمى لله الآب وأعظم من الملائكة، يوصينا جميعًا «لذلكَ وَنَحْنُ قَابِلُونَ مَلَكُوتًا لاَ يَتَزَعْزَعُ لِيَكُنْ عِنْدَنَا شُكْرٌ بِهِ نَخْدِمُ اللهَ خِدْمَةً مَرْضِيَّةً، بِخُشُوعٍ وَتَقْوَى. لأَنَّ إِلهَنَا نَارٌ آكِلَةٌ» (عبرانيين ١٢: ٢٨).

إنّ المحبّة والمهابة هما المقوِّمان الأولان لاستقامة العبادة.

تقديمُ السقيمِ ذبيحةً

قدَّم الله مقوِّمًا ثالثًا للعبادة وذلك في ردِّه على سؤالهم المناوئ: «بِمَ احْتَقَرْنَا اسْمَكَ؟» (ملاخي ١: ٦)، إذ أجاب الله «بِقَوْلِكُمْ: إِنَّ مَائِدَةَ الرَّبِّ مُحْتَقَرَةٌ. وَإِنْ قَرَّبْتُمُ الأَعْمَى ذَبِيحَةً، أَفَلَيْسَ ذلكَ شَرًّا؟ وَإِنْ قَرَّبْتُمُ الأَعْرَجَ وَالسَّقِيمَ، أَفَلَيْسَ ذلكَ شَرًّا؟ قَرِّبْهُ لِوَالِيكَ، أَفَيَرْضَى عَلَيْكَ أَوْ يَرْفَعُ وَجْهَكَ؟» (١: ٧ و٨).

coptic-books.blogspot.com

نصِلُ هنا إلى لبّ ورطتهم: العبادةُ غيرُ ممكنةٍ بدون ذبيحة، تقديم أفضل ما لدينا. لكنّ الشعب بدأ بإظهار الاحتقار بتقديم الأعرج والأعمى والسقيم من حظيرتهم، وتقديم بواقيهم لله في عبادتهم.

عندما كنت في الثانية عشرة من عمري سألتني معلّمة مدارس الأحد إن كنت أرغب بلعب دور يوسف في مسرحيّة الميلاد تلك السنة – ولا بدّ لي أن أضيف بصدقٍ وبرأفةٍ قدر الإمكان أنّ الكنيسة كانت متحرّرة بإفراطٍ بحيث ضاع الإنجيل تحت ثقل المراسم – وكنتُ على وشك رفض الطلب لأنّني في الواقع لم أعرف ماذا عنى ذلك. لكنّني أُخبِرتُ حينها أنّ كلّ ما عليَّ فعلُه هو مرافقة مريم إلى المذبح وذراعها في ذراعي والوقوف هناك، ثم الاستدارة ووضع ذراعها في ذراعي ثانيةً والخروج. ما من حاجةٍ إلى كلمات ولا إلى مهارة كبيرة في التمثيل، وعندما التقيت مَن ستلعب دور مريم قرَّرت أنّ ذلك سيكون مشوِّقًا.

وصلتُ إلى الكنيسة باكرًا وكنتُ أتجوَّل لقتل الوقت فرأيتُ على طاولةٍ عند المذبح طاسًا فضّية فيها رقاقات من البسكويت. ولعَدَم معرفتي بما يمكن أن يكون ذلك، تناولتُ قبضةً منها وتمتَّعتُ بها بينما تأمّلتُ بإعجابٍ الفنَّ العظيم والتماثيل الرائعة في تلك الكاتدرائيّة الجميلة. وفجأةً رأيتُ كاهنًا يخرجُ من حجرة الاجتماعات ويتّجه نحوي مباشرةً، فحَيَّيتُه بأدبٍ وتابعتُ تمتُّعي بالبسكويتات التي في يدي. فتوقَّف، وحدَّق، وصرخ بانفعالٍ: «ماذا تفعل؟» فقلتُ مدهوشًا بثورته قَدرَ اندهاشه بفعلي: «أنا يوسف في مسرحيّة الميلاد.» بالطبع لم يكن ذلك هو الجواب الذي أراده فسألني: «ما الذي في يدك؟» وإذ حدَّق بي من رأسي إلى قدمَي استطاع أن يرى أنّ هناك المزيد في جيبي، فتلقّيتُ أكثر توبيخ غموضًا صَدَف أن تعرّضتُ له، وكانت الكلمة التي كرَّرها الكاهن كثيرًا هي كلمة (تدنيس المقدَّسات)، وقد اخترتُ ألّا أبحث عن معناها أبدًا إذ كنتُ واثقًا أنّ ذلك آخر الخطّ بالنسبة لي، أن أفعلَ أمرًا لم أعرف حتى كيف ألفظه.

coptic-books.blogspot.com

بعد سنواتٍ عديدة لم أستطع منعَ نفسي من الضحك بينما أنا أقرأ تعريف ج. كامبل مورغان G.Campbell Morgan لـ Sacrilege (تدنيس المقدَّسات). قالَ أنّها تُعرَّف عادةً على أنّها أخذُ شيءٍ يعود لله واستخدامُه دنيويًّا أي تدنيسه، وجميعنا نعرف المثال في سفر دانيال عندما استخدم بلشاصَّر آنيةَ الهيكل في ليلةٍ من الاحتفال الصاخب والتّجديف، فكان ذلك استخدامًا مدنِّسًا للمقدَّسات. لكن يقول مورغان أنّ تدنيسَ المقدَّسات لا ينحصر في هكذا استخدامٍ دنسٍ فقط، بل تتشكّل صيغتُه الأسوأ من أخذ شيءٍ لا يعني لك إطلاقًا وتقديمه لله، وهذه هي التّهمة التي وجّهها الله لشعبه حين قال: «تقرِّبون الأعرج والأعمى والسقيم، أليس ذلك شرًّا؟»

إنّ العبادة في نواتها هي أن تقدّم لله كلَّ ما هو أفضل لديك، وهذا لا يمكن أن يتمّ دون التضحية باستحسان وتملُّق العالَم. وإن توقَّفنا وأعدنا حساباتنا لبضع دقائق، لرأينا كم نقتربُ جميعُنا من تدنيس المقدَّسات كلَّ يوم.

هل نعطي الله أفضلَ وقتِنا؟

هل نعطيه أفضلَ طاقاتنا؟

هل نعطيه أفضلَ تفكيرِنا؟

هل نعطيه أفضلَ ثروتِنا؟

هل نعطيه أفضلَ أحلامِنا وخططِنا؟

أم أنَّ العالم يحصل على أفضل ما لدينا، في حين يحصل الله على مجرَّد البواقي؟

كتب تشارلز وسلي Charles Wesley ترنيمةً جميلة:

يا مَن أتيتَ من العُلا

لتمنحَ النّارَ السماويّة النقيّة

coptic-books.blogspot.com

أضرِم لهيبَ حبٍّ مقدَّس
على مذبح قلبي الشحيح

ودَعه يشتعل لمجدِك
باتِّقادٍ لا يُطفَأ
ويعود مرتعشًا إلى مصدره
بصلاةٍ متّضعةٍ وتسبيحٍ حارّ

يا يسوع، ثبِّت توقَ قلبي
في أن أعملَ وأتكلّم وأفكّر لأجلك
وأصون النّار المقدَّسة
وأُضرِم موهبتَك فيَّ

مستعدًّا لمشيئتك الكاملة
مستمرًّا في أعمال الإيمان والمحبّة
إلى أن يختمَ الموتُ مراحمَك الأبديّة
ويجعلَ الذّبيحة تامّة.[٢]

كثيرًا ما أفكّرُ بتلك الكلمات «أن أعملَ وأتكلّم وأفكّر لأجلك.» من المُحزن العيشُ في مجتمع يسود فيه الاعتقاد بأنّ الأذكياء في هذا العالَم هم العاملون في «المِهَن العالميّة» ذات المتطلّبات الفكريّة العديدة، لذا هم يستحقّون الاحترام، في حين هناك افتراض غير خاف هذه الأيام أنّ العاملين في الخدمة ليسوا على مستوى فكريٍّ موازٍ، وأنّ الله يأخذُ فضلة العقول في العالم.

هذا صحيحٌ من جانبٍ ساخرٍ ما، فالله اختار الضعيف في هذا العالم ليخزي الحكيم، واختار البسيط ليواجه المحنَّك. لكن من جانب معيبٍ

coptic-books.blogspot.com

صُوِّرَ هذا كاريكاتوريًا ليلمّح إلى أنّ الله لا يبالي بالمفكِّر والمقتدر، أو أنّ المفكّرين الأكثر ذكاءً ينتمون للعالم، في حين أنّ العاديّين ينتمون لله.

كان موسى وبولس اثنين من نخبة العقول في العهدين القديم والجديد وقد دُعِيا ليضَعا مقدراتهما في خدمة الله. كما دُعيَ إبراهيم وأيّوب في غناهما ليدركا فقرَهما الروحيّ لدى مذبح الله.

كتبَ وليام ماك تشسني William McChesney في منزله في فينيكس – أريزونا Phoenix, Arizona، قبل أربع سنوات من استشهاده بينما كان مُرسَلاً في الكونغو Congo عام ١٩٦٤، إذ دفع حياتَه ثمنًا لعهده مع الله:

إن كان هو الله ومات لأجلي
ما من ذبيحةٍ بالنسبة لي
أكبر من أن أقدّمها أنا البشر،
فأنا مستعدّ لكلّ شيء لخاطر يسوع.[٣]

فَسادُ النّيَّة

رأينا أنّه لا يمكننا العبادة دون مشاعر، ولا يمكن العبادة دون مهابة، ولا يمكن العبادة دون ذبيحة، ونأتي الآن إلى المقوّم الرابع وهو أنّه لا يمكن عبادة الله بدافعٍ خاطئ.

صرخ الله: «مَنْ فِيكُمْ يُغْلِقُ الْبَابَ، بَلْ لاَ تُوقِدُونَ عَلَى مَذْبَحِي مَجَّانًا؟ لَيْسَتْ لِي مَسَرَّةٌ بِكُمْ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ، وَلاَ أَقْبَلُ تَقْدِمَةً مِنْ يَدِكُمْ» (ملاخي ١: ١٠).

أصبحَ الكثير ممّا في الهيكل استعراضًا، وكأنّ كلّ شيء يُشيرُ إلى جماليّة الواجبات الدينيّة والأداء الدينيّ للمرء، أمّا في الداخل فالقلب بعيدٌ جدًّا عن الله. وفي كلّ مرّةٍ نجد مزيجًا من السلطة والشعائر مع الحاجة إلى

coptic-books.blogspot.com

النقاء الداخلي، هناك خطورة كبيرة أنّ الأخير سيُعاني. إنّ رتابةَ التكرار وإغواء السلطة قوّتان جدٌّ فعّالتان ليُكتَفى بهما، وهذا ما يجعل من الإبقاء على التجدّد في دراسة المرء وجهوده مفهومًا ضروريًّا جدًّا. فكلّ يومٍ جديدٍ يضعُ أمامَنا فرصًا جديدةً لنجدّد نشاطنا، لنتعلّم، ولنتقوَّى.

«مَن فيكم يغلق الباب؟» وكفانا هذه التمثيليّة السخيفة.

نقولُ مجازيًّا: القلبُ هو كرسيّ النفس، ونعني بذلك أنّ أهواءَنا، عواطفنا، رغباتنا، وإخلاصنا هي إشارات حقيقيّة فيما يخصّ الرّوح، إنّها تعبيراتنا الصّامتة عن التزامنا الحقيقيّ.

هناك أغنية قديمة تقول بتعبيراتٍ جسديّة: «شفاهُك قريبةٌ جدًّا، لكن أين قلبك؟» وهذا ما يسأله الله بالضّبط بتعبيراتٍ روحيّة، فمجيئهم وذهابهم في الهيكل كان واضحًا أمّا قلوبهم فبعيدةٌ جدًّا.

شدٌّ في التّعليم

تاليًا، قدَّم الله للشعب المقوّم الخامس للعبادة: أنّه لا يمكن عبادة الله دون إرشادٍ في الحقّ. فقد خاطب الكهنة ووبَّخهم: «لأَنَّ شَفَتَيِ الْكَاهِنِ تَحْفَظَانِ مَعْرِفَةً، وَمِنْ فَمِهِ يَطْلُبُونَ الشَّرِيعَةَ، لأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْجُنُودِ» (ملاخي ٢ : ٧).

أهناك تفويضٌ أوضح أم ائتمانٌ أكثر رزانةً من هذا – أن يرشدوا الشعب في معرفة الله بحيث يعبدونه ليس فقط بالرّوح، بل أيضًا بالحقّ؟

يمكن للعبادة أن تكون مخطئةً في الشكل، وجميعُنا معرّضون أحيانًا لهكذا أخطاء، لكنّ الخطر الكبير الذي يواجهنا ليس الأخطاء في الشكل بقدر ما هو فساد المضمون أو الجوهر. انتبه إذ تجمحُ المشاعرُ في المرّة اللاحقة واسأل نفسك السؤال الهامّ: هل هذا مجرّدُ تشوّهٍ في المراسم، أم هو سلبٌ لذات طبيعة الله؟

coptic-books.blogspot.com

كثيرًا ما طغت الفوضى والوقاحة وأُجيز التّعبير، وأصبحت هذه النّزعة مشوِّشة ومُربِكة للمسيحيّة بجملتِها، ناهيك عن الشكوكيّين.

عندما أعطى الله الإرشادات الكهنوتيّة في القديم، حذّر بأنّه إن كان هناك مجرّد جسأة في يدِ الكاهن عليه أن يُحجِم عن واجباتِه إلى أن تزول، حتى لا يوجد ما يشتّت تركيزَ العابد. ما أبعد ما انحرفنا عن هذه الوصية؛ إنّ العبادة ليست لمجد الرجالِ والنساء، إنّها لمجد الله.

التّعليم هو البذرة التي تُزرَع في القلب والعقل ومن ثمرها تنتجُ حياةٌ يمكن تقديمها كذبيحةٍ لله. وحيث لا يوجد تعليم قد يتلفُ المحصول إن لم يكن عديم الجدوى.

البيت - قلب الكنيسة

نأتي هنا إلى المقوِّم الأخير الذي وضعه الله أمام شعبه، وكانت التّهمة هي العهود المنقوضة أو العصيان المُستهتر إذ لا يمكن عبادة الله دون طاعة. النقطة التي طرحها الله هنا مفاجئة كلّيًا، فقد مضى الله إلى بيوتهم وسألهم أن ينتبهوا بأمانةٍ إلى العهود المنقوضة التي قطعَها الأزواجُ لزوجاتهم والزّوجات لأزواجهنّ، وبيَّن مأساة شعب فقَدَ علاقته مع الله وصولاً إلى عهود الزواج.

لا بدَّ أنّ هذا الموضوع كان هامًّا جدًّا بالنسبة لله حتى يضمّنه في كلماته الختاميّة (ملاخي ٢ : ١٣-١٥):

«وَقَدْ فَعَلْتُمْ هذَا ثَانِيَةً مُغَطِّينَ مَذْبَحَ الرَّبِّ بِالدُّمُوعِ، بِالْبُكَاءِ وَالصُّرَاخِ، فَلاَ تُرَاعَى التَّقْدِمَةُ بَعْدُ، وَلاَ يُقْبَلُ الْمَرْضِيُّ مِنْ يَدِكُمْ. فَقُلْتُمْ: «لِمَاذَا؟» مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الشَّاهِدُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ امْرَأَةِ شَبَابِكَ الَّتِي أَنْتَ غَدَرْتَ بِهَا، وَهِيَ قَرِينَتُكَ وَامْرَأَةُ عَهْدِكَ. أَفَلَمْ يَفْعَلْ وَاحِدٌ وَلَهُ بَقِيَّةُ الرُّوحِ؟ وَلِمَاذَا

coptic-books.blogspot.com

الْوَاحِدُ؟ طَالِبًا زَرْعَ اللهِ. فَاحْذَرُوا لِرُوحِكُمْ وَلاَ يَغْدُرْ أَحَدٌ بِامْرَأَةِ شَبَابِهِ.»

كانت عهودُ الزواج في اللّغة الإنكليزيّة القديمة تقول: «بجسدي أعبدُكَ» With my body I thee worship، وهذا يتعهَّد بحصريّةٍ غير مشروطة في إكمال الحبّ. قال الله: «لقد كسرتُم تلك العهود وخُنتم امرأةَ شبابكم»، وبكلماتٍ أخرى لقد تهاوت العبادة في نمطِ حياةٍ متمرّدٍ ابتلع قدسيّة البيت، وهذا بدوره انعكس في عبادةٍ مُرائية.

من بين كلِّ المواضيع غير المتوقّع ورودها أثناء حديث الله عن العبادة في سفر ملاخي، هذا الموضوع عن حفظ العهود الزوجية هو الأقلّ توقّعًا. ومع ذلك فهو تحديدًا ما تناوله الله مطوَّلاً.

يعودُ تشوُّشُ العبادة على البيت بعهودٍ منقوضةٍ، فإن لم نحترم الكلمة التي تعهّدنا بها أمام الله نفسه، ما الدّافع لنحفظ كلمتنا لأزواجنا أو زوجاتنا؟ ومن ثمّ يبدأ مفعول الدومينو (سقوط كلّ الحجارة عند سقوط أحدها) وينتجُ من العهود المكسورة ذريّةٌ شرّيرة. لقد أحزَنَ الله كثيرًا ضياعُ الأولاد الذين وقعوا في شرك حالةٍ ذات عهودٍ منقوضة؛ هذه فكرةٌ معقّلةٌ والتأمّلُ فيها مؤلمٌ.

فكِّر للحظةٍ في الآية المذهلة من رسالة يعقوب (٥ : ١٢) عندما يعرّفُ الدّيانة الحقَّة. فكّر في الاحتمالات العديدة التي يمكن أن تستدعيها تلك العبارة، ومع ذلك هو يعرّف الدّيانة الحقّة بكلّ بساطة على أنّها: «لتكن نعمُكم نعم ولاكم لا»، وبكلماتٍ أخرى، احترموا كلمتَكم.

لقد ألِفَ الناسُ حياة الكذب وحلّ تدميرٌ متبادل. التقت الحياةُ العائليّة المُخزية مع عبادة المجتمع، وشقّت حياةُ العبادة المُخزية لها طريقًا إلى البيت، وهكذا يمكن صياغة المشكلة بصورة معاكسة أيضًا: إن كان الهيكل مليئًا بمَن لا يوثق بعهودهم الزوجيّة، كيف يمكن الوثوق بعهودهم لله؟

coptic-books.blogspot.com

مَن نحن في حياتنا الخاصة أمرٌ مهمٌّ في نظر الله، وهو يحدِّد ما يحقّ لنا قوله أو فعله في العلَن.

إنّ النظريّة السياسية المعاصرة فصَلت السُّلطة والشعائر عن الشخصيّة، وإنّ عبارة «ما جمعه الله لا يفرّقه إنسان» تصحّ أيضًا في العبادة.

سأل الله : «كيف تأتون إلى الهيكل في حين أنّ هيكل جسدكم قد تدنَّس؟» يقول كاتب المزامير في المزمور ٢٤: ٣ و٤، «مَنْ يَصْعَدُ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ؟... (إلّا) الطَّاهِرُ الْيَدَيْنِ، وَالنَّقِيُّ الْقَلْبِ.»

أرجَعَ الله تفكّكَ العبادة إلى المكان الأكثر أهمّية – إلى خيمتنا الأرضيّة حيث يريد أن يلتقي معنا، ويسكن معنا، وذلك غير ممكن دون نقاوةٍ أخلاقيّة.

إنّ هدفَ الله لأجلنا تَبِعَ دائمًا هذا التّتالي: الفداء، التبرير، العبادة. فلا يمكن أن نتبرّر دون أن نُفتَدى أولاً، ولا نستطيع أن نعبد حتى نُفتدَى ونتبرّر.

لقد اتّبع الله نفس التسلسل في تاريخ إسرائيل، فهو أولاً افتداهم، ثم أعطاهم الناموس ليرشدهم للبرّ، وأخيرًا أعطاهم تعليمات العبادة. إنّ الحياة التي لا تُعاش لإجلال الله – جاعلةً له بديلاً في عبادتها – هي مَساسٌ بطبيعة الله.

◎ عبادةٌ منهارةٌ تساوي حياةً مرهَقةً

أيمكننا الآن رؤية ما حصل في انهيار عبادة إسرائيل؟

كان الفسادُ مُمَنهَجًا، ولهذا وصفَ الله الحالة الناتجة بقوله: «وَقُلْتُمْ: مَا هذِهِ الْمَشَقَّةُ؟ وَتَأَفَّفْتُمْ عَلَيْهِ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (ملاخي ١: ١٣)؛ «قُلْتُمْ: عِبَادَةُ اللهِ بَاطِلَةٌ» (ملاخي ٣: ١٤).

coptic-books.blogspot.com

تشكّلُ العبادةُ عبئًا لكلِّ مَن يريدُ العيش في عدم أمانة، وفي كلِّ مرّةٍ تفقدُ العبادةُ قيمتَها سيحلّ الإرهاق ويسودُ إحساسٌ بعدم جدوى الحياة. بغيرِ علمٍ أو خلافه، يستطيع حتى الشخصُ العاديُّ وغيرُ الضّليع رؤيةَ الرابط بين عدم الجدوى أو العقم، وبين فقدان العبادة.

إنّ عقم الحياة الروحيّة يجلبُ معه دينونتَه – مزيدًا من العقم. عندما يصبحُ التّكرار الباطل عادةً سنكرّرُ المزيد، وستكون النتيجة بطلانًا أكثر؛ ربّما لهذا تداعت العبادةُ في زمننا إلى مزيدٍ من الجهل، مثلما تفسح البدعة مجالاً لمزيدٍ من البدع.[٤]

نشرَت مجلّة ريدرز دايجست *Reader's Digest* عام ١٩٧٦ مقالةً تهكّميّةً عنوانُها: «طريق نوح»، وهي توضّح هذا النوع من العقم الروحي:

وقالَ الربُّ لنوح: «أين الفلك الذي أمرتُك أن تبنيه؟»

فقال نوح للربِّ: «لديّ ثلاثة نجّارين مرضى وقد خذلَني مزوِّدُ خشبِ الجُفر، ماذا بإمكاني أن أفعل يا ربّ؟»

فقال الربُّ لنوح: «أريدُ ذلك الفلك أن ينتهي بعد سبعة أيامٍ وسبع ليالٍ.»

قال نوح: «هكذا سيكون»، لكن لم يكن كذلك.

وقال الرّبُّ لنوح: «ماهي المشكلة الآن؟»

فأجاب نوح الربّ: «أفلَسَ مقاولي، ولم يصل القار الذي أمرتَني أن أضعه على خارج وداخل الفلك، والسبّاكُ مشاركٌ في إضراب، وابني سام الذي يساعدني في العمل شكّل فرقةَ موسيقى مع أخويه حام ويافث. وهكذا أنا لم أنتهِ بعد يا رب.»

فغضبَ الربُّ وقال: «وماذا عن الحيوانات ذكورًا وإناثًا من كلّ نوعٍ ليأتوا إليك لحفظ نوعِهم على الأرض؟»

coptic-books.blogspot.com

قال نوح: «لقد سُلِّموا إلى العنوان الخطأ، ويجب أن يصِلوا يوم الجمعة.»

قال الربُّ: «ماذا عن الأحادي القرن وسبعة أزواجٍ من كلِّ طيور السماء؟»

فشدّ نوحُ يديه المتشابكتَين وبكى قائلاً: «يا ربّ إنّ الأحادي القرن صنفٌ مقطوعٌ لا يمكنك الحصول عليه لا بالمحبّة ولا بالمال، وطيورُ السماء تُبَاعُ فقط بأنصافِ الدّزينة. يا ربُّ أنت تعرف كيف هي الأمور.»

فقال الربُّ بحكمته: «نوح، يا بنيّ، أنا أعلم، وإلّا لماذا برأيك أنزلتُ الطوفان على الأرض؟»

هذا ينطبق جيّدًا على هذه الأيام، فنحن أيضًا مثل الشعب القديم، تبِعنا الفساد التدريجيّ للفرد والمجتمعَ، من فقدان المحبّة والامتنان لله إلى نمط حياةٍ ضعيف الإرادة وغير مطيع. كما أنّنا مرهقون داخليًّا وخارجيًا، ومن ثمّ التمسَ كلٌّ بمسعاه الخاصّ سبيلاً ما لإشباع جوعه. وكانت النتيجة أنّه بالنسبة للبعض أصبح الذنبُ لا يُحتمل، ولآخرين سبقَت المشاعرُ المعرفةَ وفقدَت العبادةُ حقيقتها. كثيرون أضاعوا مفهومَهم عمّن هو الله، وكثيرون جرَّبوا متعًا تركتهم خاوين. لم يتمكّن المستقيمون من فهم الهدف من الألم، وأصبحَ البيت مكانًا لعهودٍ منقوضةٍ، عائلاتٍ ممزّقةٍ وأطفالٍ مجروحين، واجتاحَ شعورٌ عميقٌ بالوحدة حياة الجميع.

في مكانٍ ما وسطَ شعائرهم وطقوسهم، حلّ إرهاقٌ وضاع هدفُ الله في الشركة معهم. لهذا كان التماسُ الله الأخيرُ إليهم قبلَ أن يَظهرَ ابنُه – الله الساكن معهم – هو أن يفهموا ما المقصودُ بالعبادة أن تكون وأن تفعل.

coptic-books.blogspot.com

ترك لنا رئيسُ الأساقفة ويليام تمپل William Temple ما أعتبرُه أجملَ تعريفٍ لذلك القصد:

«العبادةُ هي إخضاعُ كلّ طبيعتنا لله، إنّها إزكاءُ ضمائرنا بقداسته، تغذيةُ عقولنا بحقّه، تطهيرُ مخيّلتنا بجماله، فتحُ قلوبنا لمحبّته، وإخضاعُ إرادتنا لقصده، كلٌّ هذه مجتمعةً معًا في توقيرٍ وهيامٍ هي أعظمُ تعبيرٍ نستطيعُه.»[٥]

باختصار، العبادة هي ما يربطُ كلَّ الحياة معًا ويعطيها تركيزًا واحدًا، فيكون الضمير، والعقل، والمخيّلة، والقلب، والإرادة كلّها ملتحمةً معًا في العبادة. ويجتمع الحبّ، والتهيّب، والتّضحية، والدّافع، والحقّ، والطاعة أمام من صَنعَنا الذي وحده يستطيع أن يقدِّم وحدةً في التّنوّعِ الذي شكَّلنا عليه. عندما نسمح لأنفسنا بأن نتجزّأ يحصلُ تَعطُّلٌ في معظم تفكيرنا وتفقدُ الحياةُ تركيزَها. العبادةُ تأخذُ تنوّعَ محبّتِنا وقدراتنا وتدمجُها نحو اتّجاهٍ في الحياة.

نستطيع الآن أن نرى كيف تجيب العبادة على الذّنب، إذ نأتي إليه بتهيّبٍ من أجل الغفران.

نستطيع أن نرى كيف تمضي العبادةُ أبعدَ من إشباع المتعة، إذ حتى المتعة لها إرهاقها.

نستطيع أن نرى كيف تقودُ العبادةُ المشاعر، إذ حتى مشاعرنا تحتاجُ أن تُحَدَّ وتُوَجَّه بالحقّ.

نستطيع أن نرى كيف تستطيع العبادةُ أن تُجابِهَ الإحساس بالوحدة، فوحدها العبادة تستطيع أن تجمعَ كلّ عواطفنا، وهذا ما لا يستطيعُه الحبّ.

coptic-books.blogspot.com

لهذا، إنّ العبادة هي التعبيرُ الأسمى في الحياة، الجذرُ الذي منه تنمو الأغصانُ وتُزهر التعابير.

إنّ كلمات إريك ليدل Eric Liddell في فيلم «مركبات من نار» *Chariots of Fire* بليغةٌ جدًّا، فهو كان قد ركض في أولمپياد ١٩٢٤ وفاز بالميداليّة الذهبية قبل أن يذهب كمرسل إلى الصّين China. عندما سُئِل لماذا تُمضي الكثير من الوقت في التدريب قال: «إنّ **الله** صنعني لأجل هدف، لأجل الصّين، لكنّه أيضًا صنعني سريعًا، وعندما أركضُ أشعرُ بسروره.»

العبادة مساويةٌ للحياة في الامتداد، فيها يلتقي المقدَّسُ مع الدّنيوي، فيها تلتقي صرخاتُنا مع صرخةِ **الله**.

coptic-books.blogspot.com

ملحق للفصل الثالث

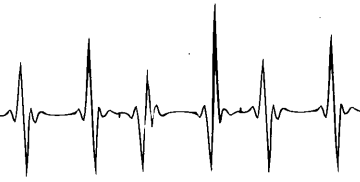

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

إنّ الثّقة في شخصيّة الله تشكّلُ لبَّ الصّراع الفلسفيّ الناتج عن مواجهة السؤال عن الشر، فلا بدّ من الإجابة على سؤال الشكوكيّ: أكنتَ لتخلق عالمًا ألم كهذا؟ وإن فعلتَ، أيمكن في الوقت عينه أن تُدعى صالحًا؟ وهذا ليس تحدّيًا سهلاً إذ يسري في السؤال ومن الجواب الكثير من الافتراض والاستنتاج.

إبقاءً على الجواب في مستواه الأكثر أساسيّة، يمكننا على الأقل استخلاص جزئيّتين عندما يُثار السؤالين عن الشر ووجود الله.

الأولى هي الواضحة: كيف يمكن أن يكون هناك إلهٌ كلّيّ المحبّة وكلّيّ القدرة بينما الشر واضحٌ جدًّا ومتفشٍّ؟ والثانية أكثر تشويشًا: حتى إن وُجِدَ إلهٌ، كيف يمكن أن يُدعى صالحًا وهو يسمحُ بحدوث الموت والدمار، في حين نُعتبَر نحن أشرارًا إن فعلنا الأشياء نفسها؟

هذا كان سؤال إيڤان كارامازوڤ Ivan Karamazov: أكنتَ لتبني كَونًا يجيزُ هكذا مآسٍ شنيعة؟ كيف يمكن أن يسمح الله بكلِّ ما نراه ونسمعه ومع ذلك يُدعى صالحًا؟ لا بدَّ لهذا السؤال أن يُرى بتضميناته الأوسع قبل أن يجابَ على تحدِّيه الفظّ المباشر. جميعنا نعلم الأسلوب السائد الذي يُصاغ به هذا السؤال، وقد خطَّه سي. أس. لويس C. S. Lewis بالتّعابير التالية:

> «إن كان الله صالحًا فسيرغبُ بجَعل خلائقه سعداء. وإن كان الله كلّي القدرة فسيكون قادرًا على فِعل ما يرغب به. لكنّ الخلائق غير سعداء، لذا فإنّ الله إمّا يعوزه الصلاح أو القدرة أو كلاهما. هذه هي مشكلة الألم في صيغتها الأبسط، وتعتمدُ

coptic-books.blogspot.com

إمكانيّة الإجابة عليها على إظهار أنّ تعابير «صالح» و«كلّي القدرة»، وحتى «سعيد» هي تعابير ملتبسة، إذ يجب الإقرار منذ البداية أنّه إن كانت المعاني الشائعة المتعلّقة بهذه الكلمات هي الفضلى أو المعاني الوحيدة الممكنة، فستكون المرافعة بلا جواب.»[1]

لا بدّ لنا للوصول إلى غايتنا من المضيّ بالسؤال إلى حدٍّ أبعد؛ إنّ السؤال الفعليّ للشكوكيّين هو أنّه لو فعلنا نحن ما نرى **الله** يفعله، أو سمحنا بما يسمح به **الله** فسنُعتبر أشرارًا، فكيف يكون خيرًا أن يتّخذ **الله** هكذا قرارات، وشرًّا إن قمنا نحن بالمثل؟

البُعد الفلسفيّ

قبل تقديم أيِّ جوابٍ محدّدٍ لهذا السؤال، دعونا أولاً نكرّرُ نقطةً هامّةً ذُكرَت في الفصل الثالث «صرخةٌ لأجل منطقٍ في الألم»، حيث تأمّلنا في صراع أيّوب مع **الله** ومع الشرّ. وهذه النقطة البالغة الأهمية يجب أن تشكّل أساسًا للجواب: لا يمكنُ دحضَ وجود **الله** بعرض واقع الشرِّ والخبث، فهذه التّصنيفات توجد فقط إن وُجِدَ قانونٌ أخلاقيٌّ مطلَق، والقانونُ الأخلاقيُّ المطلقُ يوجد فقط إن وُجِد **الله**.

قد يحاول أحدُهم أن يلتفَّ حول الموضوع قائلاً: «لكنّنا لا نرى قانونًا أخلاقيًّا في الوجود، لذا لا يمكن أن يوجَد واضعٌ لقانونٍ أخلاقيّ»، لكن هذا فقط ينقل الموضوع خطوةً أبعدَ بتضمين أنّنا سنتمكّن من تمييز القانون الأخلاقيّ إن رأيناه. فالافتراض هنا هو أنّنا نملكُ الإمكانيّة لنقرّر وجودَ قانونٍ أخلاقيٍّ أم لا؛ كيف اكتسبنا تلك الإمكانية في كونٍ مادّيٍّ صرف؟

الحقيقة أنّنا مهما حاولنا لا نستطيع أن نُنكر إطارًا أخلاقيًّا ما، من دون الاستناد إلى أخلاقيّاتٍ خالصة. وبصياغةٍ أخرى، إن سلّمنا بأنّ الشرَّ هو العملة المتداولة في هذا العالم، فالله غير قابل للصّرف.

coptic-books.blogspot.com

البعد الأخلاقيّ

دعونا نمضي الآن إلى السؤال عن كيف يكون **الله** سائدًا على كونٍ فيه بعضُ الوقائع التي لو كنّا نحن مَن أجازها لاعتُبِرَت شرًّا بلا جدال. وللإجابة عن هذا السؤال بشكلٍ كاملٍ علينا أن نتناوله خطوةً خطوة.

أولاً: لا بدّ أن نربط بين شخصيّة **الله** وعلاقته بالقانون الأخلاقيّ. هل القانون الأخلاقيّ هو قانونٌ أخلاقيٌّ لمجرّد أنّ **الله** حكَمَ به هكذا، وبالتالي هو استبداديٌّ جائرٌ، أم هو قانونٌ أخلاقيٌّ مطلقٌ يُشرفُ حتى على **الله** نفسه؟

بكلماتٍ أخرى، هل القانونُ الأخلاقيّ أمرٌ تفوَّه به **الله** بشكلٍ نزَويّ أو فكرةٌ تجريديّةٌ موجودةٌ بمعزلٍ عنه؟ أيديرُ **الله** الأمور بسلطةٍ غاشمةٍ ويتّخذُ خياراتٍ تُعتبَرُ من ثمَّ صالحةً لمجرّد أنّه هو قال ذلك، أم هو نفسُه تحت القانون وعليه أن يطيعه حتى لو كان مخالفًا لرغباته؟

يبدأ ردِّي على هذه الأسئلة بسؤال: هل القانون الأخلاقيّ الذي يختارُ كلٌّ منّا أن يعيش بموجبه، قانونٌ نختارُه تعسّفيًا لنمارس به سلطتنا، أم أنّه يوجدُ فوقَنا وأعلى منّا؟ إن كنّا نختاره تعسّفيًا، فحينها ليس لدينا أيّ حقٍّ أن ندين القانون الأخلاقيَّ الذي يتصرّف بموجبه أيّ شخصٍ آخر بمَن فيهم **الله**. أمّا من الجانب الآخر، إن كان القانون الأخلاقيّ أعلى منّا ويشرفُ علينا، فكيف إذًا نقرّر من أين يأتي؟ هذا السؤال يتحدّى الملحِدَ وكلَّ وجهة نظرٍ أخرى، سواءً قائلةً بوحدة الوجود أم بوجودِ إله.

إنّ الجواب بالنسبة للمسيحيّ، كما هو متضمّن في العهدين القديم والجديد، هو أنَّ القانون الأخلاقيّ الذي يدعو إلى قدسيّة حياة كلِّ فردٍ أعطيَ لنا من **الله**، ولهذا لا مفرَّ من التفكير ضمنَ إطارٍ مرجعيٍّ أخلاقيٍّ لا نستطيع أن نتخلّص منه. لقد هوجمَت أو جُوبهَت كلُّ مناقشةٍ استخدمَها الفلاسفةُ المسيحيّون للدّفاع عن وجود **الله** على مدى قرون، لكنّ الصراع

coptic-books.blogspot.com

الأخلاقيّ الذي نعيش به جميعنا يجعلُ المناقشة الأخلاقيّة لا مفرَّ منها. إن كان القانون الأخلاقيّ يلاحقنا، وهو يصدر عن الله، فهل حَكَم الله به أم أنّ الله أيضًا يخضع له؟

مرّةً ثانية، هل هو استبداديّ أم مطلَق؟

بينما نبدأ في فضِّ الجواب عن هذا السؤال، يجب أن نضع نقطةَ تمييزٍ جوهريّة بيننا نحن كمخلوقاتٍ محدودة، وبين الله الكائن غير المحدود.

يجب أن نفهم بوضوح أنّ الخيارين حول كون القانون استبداديًا أم مطلقًا موجودان فقط بالنسبة لنا ككائناتٍ محدودة، ومحدوديّتنا لا تسمح باحتمالات أخرى، وشخصيّتنا لا تستطيع أن تكون مصدرًا لما هو مُطلَق. لا يستطيع الإنسان أن يكون مقياسًا لكلِّ الأشياء، وإلا سنكون مضّطرين للسؤال: أيُّ إنسان هو المقياس النهائيّ؟

لقد قُتِلَ الملايين باسم الدّين وباسم الأيديولوجيّات المُلحِدة، ويجب أن نطرح بعيدًا وَهمَنا بأنّ «الإنسان صالح في الأساس». فالتاريخ والاختبار يخبراننا في دماءٍ ودموعٍ أنّنا لا نستطيع أن نثق بشخصيّاتنا.

لكن بالنسبة لله، فالقانون ليس استبداديًّا ولا أعلى منه، بل متجذِّر في شخصيّته التي هي كاملة وغير متبدِّلة. هو وحدُه موجودٌ بشكلٍ أبديٍّ وكاملٍ. وتمامًا كما أنّ سببَ وجوده كائنٌ في ذاته، كذلك أيضًا الناموس الأخلاقيّ، أمّا نحن فسببُ وجودنا كائنٌ خارج ذواتنا وكذلك الناموس الأخلاقيّ.

ليس في الله زيفٌ، وليس فيه نزعةٌ شريرةٌ أو حكمٌ خاطئ، والله لا يُسيء الحُكمَ مطلقًا، وهو لا يتصرَّف بغاياتٍ حقودةٍ أو مدمِّرةٍ لما هو خير، بل ليس فيه إلّا ما هو طاهر ومستقيم. لهذا لا يجب تفسير ما يُدعى مأساةً أو فظاعةً في فضاء خيارَي الاستبداديّ أو المطلق، وإنّما من خلال شخصيّة مَن هو كلّي القدرة والصلاح.

coptic-books.blogspot.com

ماذا يعني هذا فعليًّا في التواءات ومنعطفات، وفي آلام وخسارات وجودِنا الأرضيّ؟ دعونا نطبّقُ ذلك الإطار المَرجعيّ.

الحقيقة الوجوديّة

عندما تضربُ مأساةٌ أو عملٌ وحشيٌّ، هناك على الأقلّ أربع «ضحايا» متباينة في ذلك الفعل أو الحدث. الضحيّة الأولى هي مَن فَقَدَ حياته في ذلك الحدث (دعونا نفترض أنّه طفل، بما أنّ المشكّك دائمًا يطرحُ السؤال على المسيحيِّ بتلك الطريقة).

يجب أن نتوقّف مباشرةً ونحلّل قلبَ وعقلَ السؤال، هل الفعل الذي ينتج عنه فقدان حياة طفل هو فعلٌ لا شفاءَ له ضمن نطاق سلطة **الله**؟

الله هو رئيسُ الحياة ولديه القدرة على ردِّها لمَن فقدها، وإنّ الشفاء بالنسبة لمَن يعرف **الله** أعظمُ من الحياة المُعاشة في الجسد. لذلك يقول الرسول بولس: «لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ» (فيلبّي ١ : ٢١). كيف يمكن للموت أن يكون ربحًا ما لم يكن مؤدّيًا إلى حياةٍ أكثر جمالاً وجوهريّة من الحياة التي ماتت الآن؟

يعطينا الكتاب المقدَّس دلالاتٍ كثيرةً على أنّ الطفل الذي يموت يمضي ليكون مع **الله**. ويمكنني أن أضيف أنّ ذلك ليس بسبب الكمال الأخلاقيّ في الطفل، بل بسبب التّدبير الوقائيّ في الصليب.

عندما فقَدَ داود ابنه قال: «أَنَا ذَاهِبٌ إِلَيْهِ وَأَمَّا هُوَ فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيَّ» (٢صموئيل ١٢: ٢٣).

فهناك نهايةٌ للوجود الأرضيِّ، إنّما لا نهاية للوجود نفسه. والحياة التي فُقِدَت ليست بمفقودة إن كانت في يدَي من صنعَها ويُبقيها.

coptic-books.blogspot.com

الضحيّة الثانية التي تعاني هي مَن، رغم معرفته بنعمة المسيح الفادية، عليه أن يتحمّلَ فقدانَ وخسارةَ ذلك المحبوب. إنّ منظرَ النعش مؤلم. لكن هنا، الله هو المعزّي والشافي الذي يجلبُ عزاءَ حضوره إلى مَن يحمل ذلك الألم. اقرأ بعض المزامير الرائعة عن التعزية التي كتبَها داود عندما كان متألّمًا وفاقدًا: «أَيْضًا إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي...» تعزّيني (المزمور ٢٣ : ٤).

إنّ أعظم الشهادات عبر التاريخ عن نعمة الله الغامرة تجلّت، ليس كخدعٍ نفسيّةٍ، بل بسبب حضور الله الحقيقيّ في حياة المتألّمين.

الله لا يعطي فقط دعمًا وشفاءً داخليّين، بل أيضًا الوعد بأنّ مَن افترقوا سيلتقون ثانيةً، فالعلاقات التي تُصنَع في الله لا تموت أبدًا. يقول الرسول بولس: «لاَ تَحْزَنُوا كَالْبَاقِينَ الَّذِينَ لاَ رَجَاءَ لَهُمْ» (١تسالونيكي ٤ : ١٣).

الضحيّة الثالثة هي الشكوكيّ الذي ينبري ويدين هذا الفعل والخسارة الناتجة عنه على أنّه أثيمٌ وشرّير. ويتبع هذا أمران: الأول هو التناقض الذي أُحدِثَ للتوّ إذ أنّ مَن يدين لا يملكُ أساسًا لقانونٍ أخلاقيٍّ يقدِّم الإدانةَ وفقًا له. فبالتأكيد إنّ نظريّة التطوّر اللاعاقلة والتي هي كما يقول تنيسون Tennyson «دمويّةُ النّابِ والمخلب»، لا تقدّم أساسًا أخلاقيًّا لهذا التأنيب الفلسفيِّ، أم لا؟

في الواقع، إن كنّا نحن فعلاً النتاجَ العشوائيَّ للتطوّر، يكون العنف والتسلّط أمورًا جيّدة بحدِّ ذاتها لأنّها على الأقلّ تضمن بقاءَ الأنسب. لكن في إطارنا المرجعيّ الأخلاقيّ، يذكّرنا الله أنّ الموت والانفصال هي مذكّراتٌ حيّةٌ بصيغةٍ مُعجَّلةٍ عمّا ينتظر حتميًّا مَن اختاروا أن يعيشوا بمعزلٍ عن الله. الشرّ والهلاك هي النّواتج المنطقيّة لأولئك الناس سواءً في تدبيرٍ بطيءٍ أم دراماتيكي.

coptic-books.blogspot.com

فعلاً، إنّ انفصال العلاقات والموت والألم كلّها تمثّل شرورًا نحيا خلالها. لكن هناك اعتبارٌ هامّ ثانٍ يتحدَّى الشكوكيّ، وهو أنّ الشر يجب أن يعرّف دائمًا فيما يتعلّق بهدفٍ، فكيف يمكن لأيّ شيءٍ أن يوجد دون تأسيس هدفٍ أولاً؟

بدون هدفٍ يكون الهلاك تعبيرًا لا معنى له. إنّ هدفَ الله لأجلنا هو أن نحيا له الذي هو مصدرُ وجودنا. وفيه فقط، مَن زرعَ الحبَّ والغموض والعبادة في قلوبنا يتحقّقُ الهدف. وعندما نقاوم ذلك الهدف لا يكون الشرُّ الأعظم هو الموت أو المعاناة، لأنّ الحياة تُسترَدّ، إنّما الشرّ الأعظم يتمثّل في اختيار فصلِ ذواتنا عن الله والعيش نقيض هدفه.

لهذا السبب عرَّف دستويفسكي Dostoevsky جهنّم على أنّها عدمُ القدرةِ على الحبّ.

جهنّم هي مجرّد تصديقٍ على إرادةٍ اختارت أن تُنكِر على الله أحكامه وتحيا بمعزلٍ عنه. قال سي. أس. لويس أنّ هناك نوعان فقط من النّاس في هذا العالم: أولئك المستعدّون أن يحنوا ركبَهم ويقولوا لله: «لتكن مشيئتك»، وأولئك الذين يرفضون أن يحنوا ركبَهم ويقول الله لهم: «حسنًا، لتكن مشيئتكم».

قد يردّ أحدهم: «لكن لماذا لا تقدّم لنا أحكامُ الله إلّا طريقًا واحدًا إليه؟» الجواب هو أنّه حتى لو أعطانا ألف طريقٍ وطريق سيظلّ الشكوكيّ يريد طريقًا واحدًا بعد لأنّه في قلبِ الشرِّ يكمُن الاستقلال – قانونُ الذّات ومحبّةُ الذّات، ودائمًا سيقود قانونُ الذّات إلى فقدان القانون، ومحبّةُ الذّات إلى فقدان الحبِّ. وهكذا يكون انتقادُ الشكوكيِّ للشرِّ مبطلٌ لذاته منطقيًّا ووجوديًّا.

يأتي بنا هذا إلى الضّحيّة الرّابعة، وهي السائل: «كيف يمكن لله أن يتسلّط على الموت بينما لا نملكُ نحن الأفراد ذاتَ الحقِّ في إنهاءِ حياة؟»

coptic-books.blogspot.com

لا شخصيّتنا ولا إمكانيّتنا تبيحُ انتحالَ هكذا سلطةٍ على قدسيّةِ الحياة.

الله وحدُه يتصرّفُ دائمًا بشكلٍ ملائمٍ وانطلاقًا من قداسةٍ ونقاءٍ، ولن يفعل مطلقًا ما هو خطأ. ولا يمكن للبشر أن يحصلوا على نفس الامتياز في أفعالٍ نسمّيها فظائع إذ نحن لا نملك الشخصيّة لفعلِ الخَيارِ الصّحيح ولا القدرة على ردِّ الحياة.

يستطيع **الله** أن يسمح لأحداثٍ كهذه أن تحصل لأنّه هو وحدُه يستطيع ردَّ الحياةِ خلال تلك المآسي وإظهارَ دمار الخطيّة خلال المآسي، كونه كاملاً في قراراته، طاهرًا في منطقه، وقادرًا أن يمنح القوّة لمَن يلتمس عزاءَه. نحن لا نستطيع ادّعاء هكذا كمالٍ، فشخصيّاتُنا غير نقيّة، ويمكن لقراراتنا بسهولةٍ أن ترتكز على معلوماتٍ خاطئة ودوافع خاطئة. أليس لهذا السبب يوجد القانون وتؤسَّس السلطات في الأرض بحيث لا يكون لكلِّ فردٍ الحقُّ أن يثأر لكلِّ خطإٍ؟ ومع ذلك نرى كيف تخطئ الدول والحكومات رغم كلّ التّدابير التي يتّخذها القانون لحماية البريء.

هذه المعاثر مُضافةً إلى عرضتِنا للخطإ تجعل من الواضح أنّ المآسي والفظائع التي نراها يجب أن تجعلنا نلوذُ بـ**الله** وندركُ كم أنّ العقل البشريَّ مخادع، وكم نحن بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الحكمة الشخصيّة، أو كما يصوغها الكتاب المقدَّس بحاجةٍ إلى قلبٍ مُغيَّرٍ وإرادةٍ مُمَكَّنةٍ كي نستطيع أن نعيش لأجل **الله**.

كتب مالكولم ماغريدج Malcolm Muggeridge مرّةً للأمّ تريزا Mother Teresa قائلاً أنّه ليس لديه اهتمام بالكنيسة أو بالإيمان المسيحيّ بسبب كلِّ ما يراه فيها من ازدواجيّة. فكتبت إليه الأمّ تريزا، التي أمضت حياتها محاطةً بالألم والبؤس، قائلةً: «مشكلتُكَ محدودة، **الله** غيرُ محدودٍ، دَع اللامحدودَ يهتمُّ بَصراعِك المحدود.»[٢]

coptic-books.blogspot.com

أحنى ماغريدج ركبتَيه للمسيح وقال عن ذلك أنّه الخطوة الأكثر إشباعًا التي اتَّخذَها في حياتِه.

العالمُ كما نعرفُه

لا بدّ لنا من إضافةِ فكرةٍ مختصرةٍ واحدةٍ بعد. هل هذا إذًا أفضلُ العوالم التي كان بإمكان الله صنعها؟ بكلٍّ وضوح، هناك بالنسبة لطريقة تفكيرنا أربعة عوالم ممكنة فقط قد تكلّم عنها الباحثون.

الأوّل هو ألاّ توجدَ خليقة؛ ألم يكن أفضل لو لم يخلق الله عالمًا من أن يخلقَ هذا العالم حيث الخير والشرّ؟

الثاني هو لو أنّه خلق عالمًا خيارُه الوحيد هو الخير، أي نوعًا من عالمٍ آليّ.

الخيارُ الثّالث هو عالمٌ ليس فيه ما يدعى خيرًا أو شرًّا، أي عالم غير أخلاقي.

والرّابع هو العالم الذي نعيش فيه حيث يوجد الخير والشرّ مع إمكانيّةِ اختيارِ أحدهما.

حالما نطرحُ السؤالَ عمّا هو الأفضل فنحن ثانيةً نستندُ إلى نقطةٍ مرجعيّةٍ مطلقة، وتلك لا نستطيعُ تعريفَها إلاّ إن كان الله موجودًا.

في التّحليل النّهائيِّ للعوالم الأربعة الموصوفة، عالمُنا هو الوحيد الذي تكون فيه المحبّة ممكنةً بشكلٍ أصيل. محبّة الأمِّ لطفلها، محبّة الرجل لزوجته، محبّة الصّديق لصديقه، محبّة الرجل والمرأة لله. لا بدَّ أن نميّز أنَّ المحبة هي الخُلُق الأسمى الذي نعرفه، وحيث المحبّة ممكنة سترافقها الحرّيّة وإمكانيّة المعاناة.

coptic-books.blogspot.com

وحده الله في شخصيّته هو التّعبير المطلق عن المحبّة الذي لا ينفصل أبدًا عن القداسة. لا يمكن لله أن يكون في الوقتِ نفسه قدّوسًا وغير مُحبٍّ، أو مُحبًّا وغير قدّوسٍ. وفي تحوّلنا عنه نفقد مصدر المحبّةِ الحقيقيّة، ونعيش مع ألمِ عدم القداسة، وتبقى المعاناة معضلةً تاركةً شخصيّاتنا المعيبة في بحثٍ عن قانونٍ أخلاقيٍّ، وعقولنا المحدودة صارخةً لأجل جوابٍ. مَن منّا لا يتألّم إن رأى حبًّا نقيًّا مُساءً إليه ومحتقرًا؟

إنّ قلوبَنا تُبدي جوعًا لأجل حبٍّ نقيٍّ ونحن في هذا العالم فقدنا كِلَي التعريفين (الحبّ والنقاء) لأنّنا أنكرنا مصدرَهما.

حين نأتي إلى المسيح عند الصليب حيث تجتمع المحبّة والقداسة والألم، نجدُ كلاًّ من الجواب على الألم والقوّة على العيش لأجل المسيح في هذا الجسد الفاني، إذ هنا هوجمَت القداسة والمحبّة باسم الغيرة الدينيّة والسياسيّة، هنا انسكبَ الألم بلا حدودٍ فيما كان النّصرُ ينتظر. حين نأتي إلى الصليب، ومن هناك نحيا حياتنا لأجل المسيح، نصل إلى الاكتشاف الرائع أنّ الصليب والقيامة يتلازمان. حيث توجد إمكانيّة المحبّة توجد أيضًا إمكانيّة الألم، وحيث الوعدُ بالقيامة هناك أيضًا الوعد بمسح الدموع.

السماء هي تصديقٌ على خَيارِنا بأن نحبّه ونكون معه، فهذا هو رجاءُ كلِّ تابعٍ ليسوع المسيح الذي «الحياة الأبديّة هي أن نعرفه».

جهنّم هي تصديقٌ على ازدراء جواب الله ورجائه والعيشِ مع تبعات قدرتنا على التّناسل، لكن أيضًا قدرتِنا على التّدمير بدون شفاء.

للإجابة عن سؤال إيڤان كارامازوف، إن كنتُ كاملاً في الصّلاح ولديّ القدرة على خلق الحياة وردّها، لن أرى فقدانَ الحياةِ بالطريقة التي رآها إيڤان. أمّا من الناحية الأخرى، إن ملكتُ القدرة على خَلقِ الحياة دون النقاء الأخلاقيّ لأحرسها أو القوّة لأردَّها، فحينها ينبغي ألاّ أخلقَ

coptic-books.blogspot.com

تلك الحياة. لكن لن يمكنني أن أقول «لا ينبغي» إلّا إن كنتُ أعرف ما الذي يجب أن يُعتبر خيرًا وما الذي يجب أن يُسمّى شرّيرًا. تلك الـ «لا ينبغي» تأتي إليّ من الله الذي يملكُ القدرة أن يخلقَ والقدرة أن يشفي، السلطانَ على أخذِ حياةٍ وعلى تعزيتنا في فقدانها. وقد طلبَ منّا الله أن نثق في قدرته، وهدفه، وشخصيّته.

إنّ سؤال إيقان تحذيرٌ لنا لئلّا نلعب دورَ الله، ولا يمكنه أن يكون قرار اتّهامٍ ضدَّ الله الذي لا تنطبق عليه نفس محدوديّات القدرة والحكمة.

القاعدة اللاهوتيّة

بناءً على ما تقدّم، إنّ رغبة الله الكبيرة هي أن نرى قلوبَنا أمامه كما يراها هو، مميِّزين عدم أهليّتنا لإصدار أحكامِ أخلاقيةٍ بمعزلٍ عنه، وعندما نأتي إليه مثل أيّوب على أنّه الخالق والمبدِع، الكاشف والمعزّي، الوسيط والمخلّص، نجدُ أنّه أيضًا المقوّي والشافي والمُنقِذ. ونستطيع بناءً على ما نعرف أن نثقَ بشخصيّته لأجل ما لا نعرف، وربّما لهذا كان آخر ما نطقَت به الأمّ تريزا هو أربع كلماتٍ صغيرة بينما استعدّت للقاء مخلّصها. فإذ عاشَت في مدينةٍ يُضرَب المَثلُ بألمها ومعاناتها، وجدَت الجواب الأوحد الذي يستحقُّ وجودَها، فكانت كلماتُها الأخيرة: «أنا أحبّك يا يسوع». لقد أخذت محبّته إلى مدينةٍ وعالمٍ محتاجَين.

إنّ أيّ جوابٍ آخر لمشكلةِ الألم ليس فقط يُخفِق في أن يُرضي، بل يُخفِق حتى في أن يبرّر السؤال.

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

ENDNOTES

CHAPTER 1

THE CRY TO KNOW GOD

1. Charles Haddon Spurgeon on Malachi 3: 16, quoted in Arthur W. Pink, *The Attributes of God* (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1975), 89.

2. This story is also shared in Rolando E. Villacorte, *The Real Hero of Edsa* (Quezon City, Philippines: Berligui Typographics, 1988), 135.

3. J. P. Moreland and Kai Nielsen, *Does God Exist? The Great Debate* (Nashville: Thomas Nelson, 1990).

4. Read R. C. Sproul, *The Psychology of Atheism* (Minneapolis: Bethany Fellowship, 1974).

5. A. W. Tozer, *The Knowledge of the Holy* (Lincoln, Nebr.: Back to the Bible, 1971), III.

6. Tozer, 62.

7. Used by permission.

8. William Blake, "The Tyger", in *Songs of Experience,* 1794.

9. This discussion is developed from F. W. Boreham, "The Candle and the Bird," in *Boulevards of Paradise* (London: The Epworth Press, 1944), 112.

10. Arthur Hugh Clough, "Say Not the Struggle Nought Availeth," quoted in Boreham, "The Candle and the Bird."

CHAPTER 2

THE CRY TO FEEL MY FAITH

1. Daniel Goleman, *Emotional Intelligence* (New York: Bantam, 1995), 3.

coptic-books.blogspot.com

2. David Gelertner, "How Hard Is Chess?" *Time,* 19 May 1997.

3. William Cowper, "Walking with God," in *A Choice of Cowper's Verse,* selected by Norman Nicholson (London: Faber & Faber, 1975), 23.

4. Goleman, 80.

5. Os Guinness, *God in the Dark* (Wheaton, Ill.: Crossway, 1996), 134.

6. William M. Runyan, "Lord, I Have Shut the Door."

7. Oswald Chambers, *My Utmost for His Highest,* (New York: Dodd, Mead, 1935), May 20.

8. Martin Lloyd-Jones, *Spiritual Depression: Its Causes and Cure* (London: Pickering & Inglis, 1965), 21.

9. Katharina A. D. von Schlegel, "Be Still, My Soul," trans. Jane L. Borthwick.

10. Elie Wiesel, quoted in Dennis Ngien, "The God Who Suffers," *Christianity Today,* 3 February 1997.

11. Anne Taylor Fleming, "The Right Thing to Do," *Ladies' Home Journal,* July 1997.

CHAPTER 3

THE CRY FOR A REASON IN SUFFERING

1. David Hume, source unknown.

2. Source unknown.

3. Fyodor Dostoevsky, *The Brothers Karamazov,* trans. Andrew R. MacAndrew (New York: Bantam, 1981), 296.

4. Bertrand Russell, *Why I Am Not a Christian* (London: Unwin Books, 1967), 146.

coptic-books.blogspot.com

5. Annie Johnston Flint, "He Giveth More Grace."

6. Malcolm Muggeridge, quoted in Donald McCullough, *Waking from the American Dream* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity, 1988), 145.

7. G. K. Chesterton, "The Ethics of Elfland," in *Orthodoxy* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1959).

8. A lie that many have bought into is the Darwinian evolution theory. It has recently been articulated by a professor of biochemistry from Lehigh University. Michael Behe has powerfully demonstrated that meeting Darwin's own challenge of what it would take to falsify his theory comes from biochemistry. Behe's book, *Darwin's Black Box*, is a masterpiece. Richard Dawkins, the arch-Darwinist from Oxford, has angrily denounced Behe as "intellectually lazy" and adjured him to "go find an answer" to support the theory of evolution from within Behe's own discipline. One has to wonder where the lines of reason and unreason become blurred when intellectuals such as Darwins defy the logic of scientific findings.

9. Read Michael Polanyi, *Personal Knowledge* (London: Routledge & Kegan Paul, 1962)

10. A friend of mine, a professor of chemistry, sent me this curious item to enjoy. His letter said, "In 18 milliliters of water (about two swallows) there are 6×10^{23} molecules of H_2O. How big is 10 to the power of 23? A good computer can carry out 10 million counts per second. It would take that cmputer two million years to count 10 to the power of 23. If that is not awesome enough, look at it this way. A stack of five hundred sheets of paper is two to three inches high. How high would the stack be if it had 6 to the power of 23 sheets? That stack would reach from the earth to the sun, not once, but over one million times. That is the vastness and density God has put into this creation." He ended the letter by saying, "What an awesome God!"

11. Mike Otto, "Looking Through His Eyes."

coptic-books.blogspot.com

12. William Cowper, "God Moves in a Mysterious Way."

13. Fanny J. Crosby, "All the Way My Savior Leads Me."

CHAPTER 4

THE CRY OF A GUILTY CONSCIENCE

1. See Robert Karen, "Shame," *The Atlantic,* February 1992, 44-70.

2. William Shakespeare, *Macbeth,* act V, scene I, line 28.

3. George Gordon Byron (Lord Byron), quoted in *The International Dictionary of Thoughts* (Chicago: J. G. Gerguson, 1969), 346.

4. Peter Malkin in *The Jerusalem Post International Edition*, 28 March 1992.

5. Benjamin Franklin, quoted in *The International Dictionary of Thoughts,* 583.

6. Alexander Pope, quoted in *The International Dictionary of Thoughts,* 584.

7. C. S. Lewis, quoted in *The International Dictionary of Thoughts,* 584.

8. Peter Kreeft, *For Heaven's Sake* (Nashville: Thomas Nelson, 1986), 98.

9. Saint Thomas Aquinas, the *Summa,* quoted by Peter Kreeft in *For Heaven's Sake,* 96.

10. From an interview with Richard Dortch in *Christianity Today,* 18 March 1988.

11. John Donne, in *The Oxford Book of English Verse, 1250-1900* (England: The Oxford University Press, 1924), #201.

coptic-books.blogspot.com

CHAPTER 5

THE CRY FOR FREEDOM IN PLEASURE

1. Malcolm Muggeridge, *Vintage Muggeridge: Religion and Society,* ed. Geoffrey Barlow (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1985), 21.

2. Neil Postman, *Amusing Ourselves to Death* (New York: Viking, 1985), vii.

3. Sigmund Freud, quoted by Heinrich Meng and Ernest Freud, eds., *Psychoanalysis and Faith: The Letters of Sigmund Freud and Oskar Pfister* (New York: Basic Books, 1963), 61.

4. F. W. Boreham, "Phoebe's Perplexity," in *Wisps of Wildfire* (London: Epworth, 1925), 79-80.

5. Frank B Minirth and Paul D. Meier, *Happiness Is a Choice* (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1994), 13.

6. Susannah, Wesley, quoted in *Topical Encyclopedia of Living Quotations,* ed. Sherwood Eliot Wirt and Kersten Beckstrom (Minneapolis: Bethany House, 1982), 227.

7. Rich Wilkerson, *Private Pain* (Eugene, Oreg.: Harvest House, 1987), 123.

8. Minirth and Meier, 60.

9. Malcolm Muggeridge, *Jesus Rediscovered* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1969), 77-78.

10. Arthur Sullivan and Adelaide Proctor, "The Lost Chord."

11. G. K. Chesterton, *Orthodoxy* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1959), 160.

12. C. S. Lewis, *The Screwtape Letters* (Grand Rapids, Mich: Baker, 1969), 51.

coptic-books.blogspot.com

CHAPTER 6

THE CRY OF A LONELY HEART

1. Thomas Wolfe, "God's Lonely Man," in *The Hills Beyond* (New York: Plume/ New American Library, 1982), 146, 148.
2. D. H. Lawrence.
3. C. S. Lewis,*The Abolition of Man* (New York: Macmillan, 1947), 87.
4. C. S. Lewis, *The Four Loves* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1960), 192.
5. Lewis Thomas, quoted in Paul Brand and Phillip Yancey, *Fearfully and Wonderfully Made* (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1980), 25.
6. F. W. Boreham, "The Sword of Solomon," in *The Blue Flame* (London: Epworth, 1930), 29-30.
7. Sister Mary Rose, president of Covenant House, New York City, *Covenant House Newsletter,* Fall 1995. Used by permission.
8. Frederick Buechner, *The Longing for Home* (San Francisco: Harper Collins, 1996), II.
9. Lewis, *The Four Loves,* 32-33.
10. Martin J. Nystrom © 1984 Maranatha! Music, c/o The Copyright Co., Nashville, TN

CHAPTER 7

THE CRY OF GOD FOR HIS PEOPLE

1. *The Christian Century,* 10 May 1961.
2. Charles Wesley, fourth verse of Samuel Wesley's hymn, "O Thou Who Camest from Above."

coptic-books.blogspot.com

3. William McChesney, quoted by Joseph T. Bayly, *Martyred* (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1966), 121.

4. There are many spurious expressions of all kinds of worship that reveal the desperate hunger for something spiritual. Certain forms of mysticism have become extremely popular because they induce people into a sense of worship. But when the philosophies undergirding those expressions are evaluated, there is a fragmentation at the core, and it will only be a matter of time before their bankruptcies are revealed. True worship can only be experienced when we worship the true and living God and do so in spirit and in truth.

5. William Temple, quoted by David Watson, *I Believe in Evangelism* (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1976), 157.

POSTSCRIPT TO CHAPTER 3

THE CRY FOR A REASON IN SUFFERING

1. C. S. Lewis, *The Problem of Pain* (New York: Macmillan, 1966), 26.

2. Malcolm Muggeridge, *Something Beautiful for God* (New York: Ballentine, 1971), 117.

coptic-books.blogspot.com